الجامعـــة الإســـلامية بغـــزة
عمـــادة الدراســـات العليـــا
كليـــــــــــــــة الآداب
قســـم التـــاريخ والآثـــار



عوامل سقوط الأندلس

Factors fall Andalus

(92هـ-711م = 897هـ- 1492م)

إعداد الطالب:

رامز إسماعيل طه الحلبي

رقم الطالب: 2010/3331

إشراف الأستاذ الدكتور:

خالد يونس عبد العزيز الخالدي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ (بحث تكميلي) في قسم التاريخ بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة- فلسطين

1436هـ-2015م

غزة – فلسطين

إقـــــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

عوامل سقوط الأندلس (92هـ-711م = 897هـ- 1492م)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

DECLARATION

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification

Student's name:	اسم الطالب/ة: رامز اسماعيل الحلبي
Signature:	التوقيع: رامز الحلبي
Date:	التاريخ: 10 أكتوبر 2015





الجامعة الإسلامية – غزة
The Islamic University - Gaza
مكتب نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا هاتف داخلي 1150

الرقم: ج س غ/35/ Ref

التاريخ: 2015/08/12م Date

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ رامز اسماعيل طه الحلبي لنيل درجة الماجستير في **كلية الآداب/ قسم التاريخ**، وموضوعها:

عوامل سقوط الأندلس (92-897هـ = 711 - 1492م)

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الأربعاء 27 شوال 1436هـ، الموافق 2015/08/12م الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً بمبنى طيبة، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

أ.د. خالد يونس الخالدي	مشرفاً و رئيساً	....
د. غسان محمود وشاح	مناقشاً داخلياً	....
د. يوسف إبراهيم الزاملي	مناقشاً خارجياً	....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في **كلية الآداب/قسم التاريخ**.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق ،،،

مساعد نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. فؤاد علي العاجز


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

الحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات، الحمد لله الذي منّ عليّ بإتمام هذه الرسالة، وإخراجها على هذا الوجه، وأسأل الله أن يجعلها في ميزان حسناتي، وحسنات من كان سبباً في إخراجها، وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور/ **خالد يونس الخالدي** لسعة صدره في إشرافه على رسالتي، وتصويب كل خلل فيها، ومتابعتي بالنصح والتوجيه، فجزاه الله عني خير الجزاء. كما أتوجه بشكري إلى المناقشين الفاضلين **الدكتور: يوسف ابراهيم الزاملي.**

والدكتور: غسان محمود وشاح.

ولكل من كان له فضل علي، فجزاه الله خيراً، وأسأل الله أن يجزيهم عني ما هو أهله.

وأتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى أخي وصديقي ورفيق قيدي الأستاذ/ **نعيم محمد عطا الله،** على جهوده المباركة ومؤازرتي في رسالتي، والذي لولا همته ما كانت لترى النور.

وكذلك أتوجه بشكري إلى الأخ الفاضل/ **عبد الرحمن ابراهيم كباجة،** الذي تحمّل مشاق الطباعة في هذه الرسالة.

كما أتوجه بالشكر إلى **جمعية دار الهدى والعاملين فيها،** التي ما ضنت علي بتقديم ما تملك من إمكانيات.

كما وأتوجه بشكر خاص إلى الدكتور الفاضل/ **رياض أبو حشيش** الذي سخر لي كل مكتبته خدمةً لبحثي.

فجزا الله الجميع عني كل خير،،،

الإهــداء

- إلى والديّ الصابرَين شجرة الخير والعطاء، ونهر الحب والوفاء، الذَين منعني الأسر عن وداعهما الوداع الاخير.
- الى الذين هتفتُ بحناجرهم وتنفست برئتهم في كل تفاصيل حياتي... أشقائي النجباء.
- الى نصفي الآخَر وقرة عيني وسر سعادتي ... زوجتي وأبنائي الأحباء إسماعيل، وزينب.
- الى رفقاء دربي ومسيرتي، الذين ما بعثرهم النسيان لحظة واحدة، إخواني الأسرى والشهداء.
- إلى من زرع في قلبي حب الأندلس تاريخاً وحضارة الدكتور الشهيد/ فتحي إبراهيم الشقاقي، والدكتور المعلم/ عصام سيسالم.
- الى شهداء الاندلس على مدار تاريخها المجيد، وشهداء فلسطين والأمة.
- الى كل من علمني حرفاً منذ طفولتي وحتى رسالتي هذه.
- إلى كل هؤلاء أهدي هذا الجهد المتواضع.

الباحث/

رامز اسماعيل طه الحلبي

الاختصارات والرموز

ترمز الحرف التالية إلى ما يقابلها أينما وردت في فصول هذه الدراسة:

ص	**صفحة**
ج	جزء
ت	توفي
هـ	هجري
م	ميلادي
ق.م	قبل الميلاد
ط	طبعة
د.ط	**دون طبعة**
د.ت:	**دون تاريخ النشر**
تح:	**تحقيق**

فهرس الموضوعات

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

لقد أنزل الله عز وجل كتابه الحق، وأمر بتدبر آياته، ووجه من خلالها النظر في أحوال السابقين ومآلاتهم، وذلك للاعتبار والاتعاظ فقال تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا)([1])، وقال أيضاً: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)([2]) وقال أيضاً: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)([3]).

إن التاريخ الإسلامي تاريخ مجيد، امتزج فيه الإنسان بالعقيدة فصيغ بشكل هو الأرقى على مدار التاريخ، وذلك لأنه قدم النموذج الحضاري (النافع للبشرية)، وكان له ذلك الشهود في حفظ الإنسانية، والتطور بها متكاملاً مع الذين سبقوه غير ناكر لهم، وتُعتبر الأندلس من أهم النماذج في تاريخ الإسلام حضارةً وتقدماً، ويشهد على ذلك كثرة علمائها وفقهائها ومساجدها ومدنها، ثم نشرها لأشكال المدنية في أوروبا، حيث اعتبرت رافداً مهماً يمد أوروبا بأسباب التقدم وأشكال الحضارة.

ولأن الله لا يحابي أحداً حتى ولو كانت دولة الإسلام، فقد جرى عليها القانون الإلهي وسنته في الكون، ذلك القانون المتمثل بإهلاك الأمم إذا ما حادوا عن الحق، فبعدما كانت الأندلس مركزاً للإشعاع الحضاري، وثغر متقدم للجهاد في سبيل الله، ركن أهلها إلى الدنيا ومتاعها وغرقوا في ملذاتها، فأصاب الفساد كل مرافق الحياة فيها تقريباً، فعلى المستوى السياسي أوكل الأمر إلى غير أهله، فالخلفاء والحكام لم ينطبق عليهم شروط أولي الأمر، التي أوضحها الفقهاء، والعلاقات السياسية الداخلية من أسوء ما يكون، فالتطاحن والفرقة كانت السمة السائدة لأهل السياسة في الأندلس، وكذلك العلاقات الخارجية تميزت بالتبعية إلى حد ما، والأستقواء بالأعداء على الإخوة والانغماس في الترف، ميزت المجتمع الأندلسي في بعض مراحله المهمة، وكذلك لم يكن صوت العلماء مسموع في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بعض المراحل، وهناك علماء دخلوا أبواب السلاطين وأفتوا لهم بما يريدون، وفتحت أبواب السجون لمن أبى مجارات الحكام من العلماء، وبدلاً من أن تُحل الإشكالات الداخلية بشكل يرضاه الله سبحانه وتعالى، تطاحن القوم وسفحوا دم بعضهم، ليهزوا المجتمع المسلم الأندلسي، وليفسح المجال أمام العدو المتربص ليلج إليهم ويدك أركان دولتهم فيما بعد.

---

(1) سورة محمد: آية 10.

(2) سورة يوسف: آية 111.

(3) سورة الإسراء: آية 16.

كل تلك الأسباب آنفه الذكر، كانت عوامل مباشرة وغير مباشرة لسقوط تلك الحضارة العظيمة، التي تغنى بها الشعراء وعاش المسلمون في ظلالها الوارفة ثمانية قرون، وأشرق نورها على أوروبا عندما كانت سادرة في ظلامها، فلم يشفع لتلك الحضارة أنها كانت مسلمة، وأن أهلها مسلمين، فالقانون الإلهي ينسحب على الجميع دون محاباة، فسقطت مصداقاً لقوله عز وجل: (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا)([1]).

أسباب اختيار الموضوع:

أقدمت على دراسة هذا الموضوع وتحمستُ للخوض فيه، لأسباب عدة أهمها:

1- ابتغاء أجرٍ نرجوه من الله، لتقديم علم ينتفع به.
2- كثرة المصادر والمراجع العلمية التي تناولت الحديث عن الأندلس.
3- التعرف على قوانين النهوض والسقوط بالأمم.
4- تعريف المسلمين بتاريخهم المجيد في الأندلس مما يحفز على استعادة ذلك المجد.
5- كشف أسباب سقوط الأندلس لتلافي تلك الأسباب.
6- عدم وجود دراسة أكاديمية تتناول سقوط الأندلس بشكل خاص.
7- تحليل أسباب سقوط الأندلس خاصة من الناحية الإسلامية؛ لأن المصادر لم تتناولها بالشكل المطلوب.
8- الارتباط الوجداني بين الأندلس وحضارتها من جهة وبين الباحث من جهة أخرى.
9- لتأخذ الأمة في زماننا هذه العبرة والعظة، من ذلك التاريخ، لأن أسباب سقوط الاندلس، نراها اليوم حاضرة في زماننا، خاصةً التناحر الداخلي والتبعية والاستقواء بالأعداء.

منهج الدراسة:

سيتبع الباحث في دراسته المنهج التاريخي الوصفي التحليلي.

حدود الدراسة:

أولاً: **الجانب المكاني:** ستركز الدراسة على فترة الحكم الإسلامي للأندلس.

ثانياً: **الجانب الزماني:** تبدأ الدراسة من بداية الفتح الإسلامي للأندلس، وحتى نهاية سقوط غرناطة، أي الفترة الواقعة بين عامي (92-897هـ = 711-1492م).

تقسيمات الدراسة:

دراسات سابقة:

في حدود ما قام به الباحث من مسح للدراسات السابقة، وذلك بالرجوع إلى دليل الرسائل الجامعية بالجامعة الأردنية، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض، وبالرجوع إلى بعض المكتبات المركزية لم يحصل الباحث على دراسة تناولت هذا الموضوع.

---

(1) سورة الكهف: آية 59.

الدراسات التي تمكن الباحث من الوقوف عليها هي:

1- **التحديات الداخلية التي واجهت الأندلس خلال الفترة من 300-366هـ**، انتصار محمد صالح الديلمي، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الموصل، العراق.

وقد جاءت رسالتها في أربعة فصول، الفصل الاول تناول الأوضاع السياسية والداخلية للأندلس، وفي الفصل الثاني تعرض لنشأة الممالك الاسبانية الشمالية، والتي مثلت تحدياً مهماً لدولة الإسلام في الاندلس، أما الفصل الثالث فكان عنوانه الاندلس والاخطار الخارجية، وبحثت فيه العلاقات بين الاندلس والممالك الاسبانية الشمالية، أما الفصل الرابع فقد تناول الدولة الفاطمية في المغرب العربي والصراع بين الدولة الفاطمية والاندلس زمن حكم عبد الرحمن الناصر.

2- **الاندلس في عصر الولاة 91-138هـ**، أشرف يعقوب اشتيوي، جامعة النجاح الوطنية، رسالة ماجستير.

تناول الباحث الدراسة بالبحث والتحليل فترة مهمة من فترات التاريخ الإسلامي، عُرفت باسم "عصر الولاة في الاندلس" وقد جاءت الدراسة في أربعة أقسام وكانت على النحو التالي:

ركز الفصل الأول على التعريف بعصر الولاة وهو العصر الأول من عصور الحكم الإسلامي في الاندلس وقد عرف بهذا الاسم لأن الحاكم فيه كان يُسمى والياً، وكان يعيّن من قبل حاكم إفريقية، أو الخليفة الاموي في دمشق، وفي هذا الفصل تحدث عن الأنشطة العسكرية والفتوحات، وعالج الباحث في الفصل الثاني التنظيم الإداري للبلاد، الذي اصبح أساساً لكل تنظيم إداري لاحق، وما كان من نشاط جهادي وراء جبال البرانس لتأمين حدود الاندلس، وفي الفصل الثالث تناول الباحث ما تفشّى في ذلك العصر من الخلافات والاضطرابات بين عناصر المجتمع المختلفة من عرب وبربر ومولدين ومستعربين ويهود وغيرهم، أما الفصل الرابع فقد خصصه الباحث للعناصر التي تألف منها النسيج الاجتماعي، ودور كل منها في صياغة تاريخ الاندلس.

وقد تناولت الرسائل السابقة الموضوعين من جوانب عديدة مثل السرد التاريخي والتحليل في بعض الأحيان، ولكنها لم تبرر أسباب السقوط وترجعها الى القوانين الإلهية في صعود وهبوط الحضارات إلا بشكل بسيط.

محتويات الرسالة:

اشتملت الرسالة على فصل تمهيدي، وأربع فصول، أوضحنا في المقدمة أسباب كتابة الموضوع، وذكر فصول الدراسة، وقد شمل الفصل التمهيدي على نبذة جغرافية عن الأندلس، ومراحل الفتح والعهود التي مرت بها، ثم سقوطها، وكان الفصل الأول مشتملاً على الانحرافات عن الشريعة، والتي كانت سبباً في سقوط الأندلس، متضمنة شيوع المنكرات، والمولاة لغير المسلمين، وعلاقة الحكام بالعلماء، ثم تولية غير المسلمين.

وكان الفصل الثاني مشتملاً على العوامل الاقتصادية والإجتماعية التي تسببت في سقوط الأندلس، وتم الحديث فيه عن النزاع بين عناصر المجتمع الأندلسي، والترف وفرض الضرائب، وفي الفصل الثالث تم الحديث عن العوامل السياسية، والتي من خلالها تطرق إلى فساد الحكام، والصراع على السلطة والخلاف الفقهي، والقمع الفكري.

وكان الفصل الأخير يتحدث عن عوامل السقوط الخارجية مشتملاً على دور الممالك النصرانية في الشمال، وموقف القوى في شمال أفريقيا، ثم ما آلت إليه الأندلس بعد السقوط ومحاكم التفتيش.

وقد ختمت رسالتي بخاتمة ضمنتها أهم النتائج التي توصلت لها الدراسة، وفي خاتمة الدارسة وضع الباحث بعض النتائج التي توصلت إليها، ملخصاً أهم ما استنتجته من دراستي والتوصيات التي ينصح بها للدارسين من بعدي.

والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد،،،

الباحث/

رامز إسماعيل الحلبي

1 شعبان 1436هـ الموافق السبت، تشرين الأول 10، 2015

فصل تمهيدي:

المبحث الأول: نبذة جغرافية عن الأندلس.

المبحث الثاني: مراحل الفتح الإسلامي.

المبحث الثالث: العهود التي مرت بها الأندلس.

المبحث الرابع: سقوط الأندلس.

نبذة جغرافية عن الأندلس

أصل تسمية الأندلس:

قبل الشروع في الحديث عن تاريخ الأندلس لا بد من الوقوف قليلاً على جغرافيتها، لما لعظيم أثر الجغرافيا على التاريخ.

لقد حظيت جغرافية الأندلس في التراث العربي بأوفر قسط من الدقة، وحسن التعريب، فجاءت في مجموعها صورة صادقة لجغرافية شبه الجزيرة الإيبرية، لم ينسخها ما توالى عليها من التغيرات السياسية والتاريخية، بل بالعكس لبثت إلى يومنا هذا أساساً للاشتقاق والمصطلحات الجغرافية الحديثة([1]).

وقد قيل إن اسمها في القديم (إيبارية)، ثم سميت بعد ذلك بـ(طالقا)، ثم سميت بـ(إشبانيا)، من اسم رجل ملكها في القديم كان اسمه إشبان، وقيل سميت بـ(الإشبان) الذين سكنوها في أول الزمان، وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء (الأندليش) الذين سكنوها([2]).

ويذكر أيضاً أن أول من نزل الأندلس بعد الطوفان قوم يُعرفون بالأندليش (بشين معجمة)، فسميت بهم الأندلس (بسين غير معجمة)([3])، واشتقت الأندلس من أسماء الاندليش الذين سكنوها في قديماً([4]).

أما العرب فأطلقوا كلمة الأندلس على شبه الجزيرة الإيبرية كلها، حيث شمل الفتح الإسلامي في بدايته سائر شبه الجزيرة، ما عدا الركن الشمالي الغربي الذي اعتصم به القوط([5])، ثم أطلق الاسم بعد ذلك على أسبانيا المسلمة، أو الجزء الذي سيطرت عليه الدولة الإسلامية من شبه الجزيرة، ولم يكن فرق يوم إذن بين أسبانيا والبرتغال([6]).

وكلمة أندلس تعني أيضا شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلسية)، أي أسبانيا والبرتغال، حيث لم يكن للبرتغال وجود أيام الفتح الإسلامي للأندلس، ومدلول مصطلح (الأندلس) شامل لشبه الجزيرة الأيبيرية، وعبارة عن تحوير لكلمة (فاندليسيا Vandalusaia) أي بلاد (الوندال Vandals)،

---

(1) عنان: جغرافية الأندلس، ص11.

(2) الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص2.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص1.

(4) الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ج1، ص2.

(5) القوط: القوط اليسير من الغنم والجمع أقواط (ابن زكريا: مقاييس اللغة، ج5، ص41)؛ والقوطية نسبة إلى القوط وهم ينسبون إلى قوط بن حام بن نوح كانوا بالأندلس من أيام إبراهيم عليه السلام (الحموي: معجم الأدباء، ج5، ص391).

(6) عنان: جغرافية الأندلس، ص11

وهم القوم الذين احتلوها قبل (القوط Codos) أي قبل الفتح الإسلامي العظيم سنة (92هـ= 711م)، للأندلس بعدة قرون([1]).

ويفصل الأندلس من الجنوب مضيق جبل طارق، ويبلغ عرضه من الشرق الى الغرب (13-37كم)([2])، فيما يبلغ طوله حوالي (80 كيلو متر)، فهو ذراع مائي ضيق، يمكن رؤية الشاطئ المغربي من الشاطئ الأسباني وبالعكس؛ إذا كان الجو صحواً، وبهذا تكون مسافة المضيق الفاصلة للمغرب عن الأندلس ضيقة، لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري، أو الثقافي بينهما، وهذا أثر بدوره على نشوء صراع تقليدي بين الشاطئ الإفريقي، والأوربي للسيطرة على المنطقة المحيطة بالمضيق، والمعروفة بـ (العدوتين)، عدوتي المغرب والأندلس، والعدوة معناها الشاطئ أو الجانب([3]).

يرى الباحث بأن تلك الجغرافيا إضافة لتأثيرها على الانتشار العسكري والثقافي، كان لها تأثير أيضا على توجه المسلمين الأوائل لفتح شبه الجزيرة الإيبرية.

وحدود الأندلس زمن الحكم الإسلامي شمل كل البرتغال تقريباً، وأكثر أسبانيا الحالية، حيث تمتد الأندلس جنوب الخط الافتراضي الذي يصل بين نهر دويره ([4]) في الغرب حتى برشلونة في الشرق، مع ارتفاع إلى الأعلى في الوسط يفصل هذا الخط بين أسبانيا النصرانية في الشمال وبين الأندلس (أسبانيا الإسلامية) في الجنوب([5]).

وبالتالي فإن سيادة المسلمين لم تنتشر بصورة مطلقة على جميع أجزائها([6])، وبلغ عدد المدن الأندلسية في فترة الحكم الإسلامي بعمومه حوالي 40 مدينة([7]).

موقع ومساحة الأندلس:

الأندلس جزيرة قريبة من شكل المثلث، ومعظمها يقع على البحر([8])، وحد الأندلس من الغرب المحيط الاطلسي الذي يسمى عند بعض المسلمين بالبحر الأخضر، أو بحر الظلمات، أو بحر المحيط الروم، وتقع من جهة الشرق والجنوب الشرقي على البحر المتوسط المسمى بالبحر

---

(1) الحجي: انتشار الإسلام في الأندلس، ص1.

(2) مجهول: الاستبصار، ص138.

(3) العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص231.

(4) نهر كبير كثير الماء شديد الجريان عميق القاع وعلى ضفته مدينة سمورة (الادريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص727).

(5) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص37.

(6) بيضون: الدولة العربية في اسبانيا، ص65.

(7) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص183.

(8) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص17.

الشامي([1]). ووصفها ابن سعد أنها جزيرة أحاطتها البحار فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جانب([2])، وتقع شبه الجزيرة الأيبيرية في الجنوب الغربي من أوربا على مثلث من الأرض يضيق كلما اتجهنا إلى الشرق، ويتسع كلما اتجهنا غرباً، ويتصل شمالاً مع فرنسا، بسلسلة جبال البرينيه (جبال البرتات)، وباستثناء تلك الناحية فإن المياه تحيط بها من كل جانب؛ مما جعل العرب يطلقون عليها (جزيرة الأندلس) مجازاً، وجبال البرينيه هي الفاصل البري الوحيد الذي يربط شبه الجزيرة مع أوربا، فتلتقي في الشمال مع المحيط الأطلنطي، وفي الجنوب مع المتوسط([3]).

الأندلس جزيرة كبيرة طولها نحو شهر، وعرضها نيف وعشرين مرحلة([4]) (والمرحلة تقدر بـ 44.5كم تقريباً)([5])، والمسعودي قرر بأن مسيرة عمائر الأندلس نحواً من شهرين، ولهم من المدن الموصوفة أربعين مدينة([6])، وقدّر جغرافيو الأندلس طولها نحو ثلاثين يوماً وعرضها تسعة تسعة أيام([7])، ومساحة الأندلس تزيد وتنقص حسب سيطرة المسلمين عليها، فقد وصل حكم المسلمين إلى برشلونة، وما وراءها من الشرق إلى لشبونة، وما جاورها من الغرب، ولم يبقِ في أيدي الأسبان والبرتغال من تلك الجزيرة سوى ارض مصخرة ضئيلة من الشمال تعرف ببلاد الجلاقة واستوريكا، ويُذكر بأن العرب لم يمتلكوا الجزيرة بأسرها حين الفتح، وإنما ملكوا معظمها، ولذلك لم تحدد مساحة الأندلس الإسلامية على التحقيق([8]).

أهم مدن الأندلس:

1- غرناطة:

تسمى دمشق لأن جند الشام نزلوها عند الفتح، وقيل لأنها تشبه دمشق بكثرة أنهارها وأشجارها([9])، وغرناطة بفتح أوله وسكون ثانيه ثم نون وبعد الألف طاءٌ مهملة، وقيل أن الصحيح الصحيح أغرناطة بالألف في أوله، أسقطها العامة كما أسقطوها من البيرة فقالوا لبيرة، وغرناطة بغير ألف، ومعنى غرناطة رمانة بلسان عجم الأندلس، وسميت بذلك لحسنها، وهي من أقدم مدن الأندلس، وأعظمها وأحسنها وأحصنها، ويشقها النهر المعروف بنهر قلزم في القديم، ويعرف الآن بنهر حداره، وعليه ساقية كبيرة تخترق نصف المدينة، فتعم مرافقها بالماء، وله نهر آخر يقال له

---

(1) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص36.

(2) منهاج الفكر، ص70.

(3) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص36.

(4) الحموي: معجم البلدان، مج1، ص268.

(5) جمعة: المكاييل والموازين الشرعية، ص97.

(6) مروج الذهب، ج1، ص63.

(7) شكيب: خاتمة تاريخ العرب، ص12.

(8) علي: غابر الأندلس وحاضرها، ص17.

(9) المقري: نفح الطيب، ج2، ص392.

سنجل، واقتطع لها منه ساقية أخرى، تخترق النصف الآخر فتعمه مع كثير من الأرباض، وبينها وبين البيرة أربعة فراسخ([1])، وبينها وبين قرطبة ثلاثة وثلاثون فرسخاً([2]).

وغرناطة عروس مدن الأندلس، وخارجها لا نظير لها في الدنيا، وهي مسيرة أربعون ميلاً([3])، يخترقها الأنهار الكثيرة والبساتين، والجنات والرياضات والقصور، والكروم محدّقة بها من كل جهة، وأعجب مواضعها عين الدمع، وهو جبلٌ فيه بساتين ورياضات لا مِثْلٌ له بسواها([4])، وسهل غرناطة فسيح يشبه غوطة دمشق، ومن جماله كان حديث الركبان، وسمر الليالي، وقد منحها الله ذلك السهل الذي تخللته الأنهار والحدائق والبساتين والجنات، وهي قرة عين للناظرين، وفيها ينزل الثلج شتاءً ويظل إلى الصيف إلى جبل غرناطة([5])، ولو لم يكن لها الا ما خصها الله سبحانه تعالى من المرج الطويل لكفاها([6]) وكان فيها أكثر من ثلاثمائة قرية، إضافة الى الحصون المجاورة([7]).

2- طليطلة:

مدينة طليطلة تقع وسط الأندلس، وكانت قاعدة القوط من قبائل الافرنج، ثم ملكها المسلمون زمان الفتح، وعرضها تسع وثلاثون درجة، وخمسون دقيقة، وطولها ثمان وعشرون درجة([8])، ومن أهميتها أنه لما أكمل اليونان عمارة جزيرة الأندلس، جعلوا دار الحكمة والملك فيها مدينة طليطلة، لأنها وسط البلاد([9])، ومن قرطبة إلى طليطلة ستة أيام([10])، ويشقها نهر عظيم يدعى تاجة يخرج من بلاد الجلالقة والوشكند، وهي أمة عظيمة لهم ملوك، وهم حَرْب لأهل الأندلس كالجلالقة والإفرنجة، ويصب هذا النهر في البحر الرومي، وهو موصوف بأنه من أنهار العالم([11])، وافتتح طارق بن زياد مدينة طليطلة وهي مدينة مملكة الأندلس وهي مما يلي فرنجة وأصاب بها مائدة عظيمة أهداها موسى بن نصير إلى الوليد بن عبد الملك بدمشق حين قفل سنة

---

(1) الفرسخ يعادل 5.5كم تقريباً (جمعة: المكاييل والموازين الشرعية، ص97).

(2) الحموي: معجم البلدان، ج4، ص195.

(3) الميل يعادل 1855متر تقريباً (جمعة: المكاييل والموازين الشرعية، ص97).

(4) ابن بطوطة: تحفة النظار، ج2، ص768.

(5) ابن الخطيب: الإحاطة ، ج1، ص18

(6) المقري: نفح الطيب، ج1، ص176.

(7) ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص32.

(8) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ج1، ص7.

(9) ابن سمعون: أمالي ابن سمعون، ج1، ص460.

(10) الاصطخري: المسالك والممالك، ج1، ص19.

(11) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص67.

ست وتسعين والوليد مريض([1])، وهي من عظائم مدائن الأندلس([2])، وهي مدينة منيعة جليلة، ليس في الجزيرة مدينة أمنع منها، ولها نهر عظيم يقال له الدوير([3])، وعليها أسوار منيعة([4])، وتعتبر واسطة السلك واشمخ ذرة الملك في الجزيرة([5])، وقد تخرج منها جماعة من العلماء([6]).

3- قرطبة:

قرطبة بضم أوله وسكون ثانيه، وضم الطاء المهملة أيضاً والباء الموحدة، يمكن أن يكون معناها العدو الشديد، وهي مدينة عظيمة بالأندلس، وكانت سريراً لملكها وقصبتها([7])، وقال التاجر الموصلي ابن حوقل بعدما زارها سنة 350هـ: أعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقعة، وهي حصينة بسور من حجارة ولها بابان مشرعان في نفس السور الى طريق الوادي من الرصافة([8])، وتسمى قرطبة مدينة الأندلس العظمى، وهي في وسطها، وليس في الأندلس ما يقاربها في العظمة والكبر([9]). وفي زمن بني أمية كان طولها عشر عشر درجات وعرضها 38.5 درجة، وتقع غرب النهر الكبير الذي تقع عليه اشبيليه، وفي جنوبها جبل شلير، الذي لا يفارقه الثلج([10])، وهي في ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضا، وبين المدينة والمدينة سور حاجز، وهي قاعدة الأندلس وأم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين بها، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائلها ومناقب خلفائها أشهر من أن تذكر وهم أعلام البلاد وأعيان الناس، اشتهروا بصحة المذهب وطيب المكسب وحسن الزي، وعلو الهمة وجميل الأخلاق، وكان فيها أعلام العلماء وسادات الفضلاء([11]).

بلغت قرطبة عظمتها زمن عبد الرحمن الناصر (300هـ- 912م) وابنه المستنصر (350-366هـ/961-976م)، وخاصة حينما اتخذها عاصمة لدولته الفتيه، ومقراً له كخليفة للمسلمين في العالم الغربي، وجعل منها منبراً للعلوم والثقافة المدنية، حتى غدت تنافس القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في قارتها، وبغداد عاصمة العباسيين في المشرق، والقيروان والقاهرة في

---

(1) البلاذري: فتوح البلدان، ج1، ص232.

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج1، ص385.

(3) الحموي: معجم البلدان، ج1، 48.

(4) المسعودي: مروج الذهب، ج1، ص67.

(5) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص92.

(6) الجزري: اللباب في تهذيب الانساب، ج2، ص284.

(7) الحموي: معجم البلدان، ج4، ص324.

(8) المقري: نفح الطيب، ج1، ص460.

(9) الاصطخري: المسالك والممالك، ج1، ص17؛ البلاذري: فتوح البلدان، ج1، ص324.

(10) المغربي: الجغرافيا، ج1، ص49.

(11) الحميري: صفة جزيرة الاندلس، ج1، ص456.

أفريقيا، وسماها الأوربيون جوهرة العالم، وإهتم الأمويون في نواحي الحياة المختلفة بقرطبة؛ من زراعة وصناعة وبناء حصون ودور أسلحة، وشق الترع والقنوات، وأقاموا المصارف، وجلبوا للأندلس أشجاراً لم تكن تزرع فيها، ولقرطبة القنطرة التي علت القناطر فخرا في بنائها وإتقانها وعدد قسيّها سبع عشرة قوساً، بين القوس والقوس خمسون شبراً([1]).

4- إشبيلية:

تقع إشبيلية على نهر عظيم، وهو نهر قرطبة، دخلها المجوس الذين يقال لهم الروس سنة تسع وعشرين ومائتين، فسبوا، ونهبوا، وحرقوا، وقتلوا([2]).

وهي إحدى مدن الأندلس الجليلة، بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام أي ثمانون ميلاً، وهي مدينة قديمة أزلية، ومعنى اسمها المدينة المنبسطة، ويقال إن الذي بناها يوليس القيصر، وكان سبب بنيانه إياها؛ أنه لما دخل الأندلس ووصل إلى مكانها أعجبه كرم ساحتها، وطيب أرضها، وجبلها المعروف بالشرف، فردم على النهر الأكبر مكاناً وأقام فيه المدينة، وأحدق عليها بأسوار من صخر، وبنى في وسط المدينة قصبتين متقنتين عجيبتي الشأن تعرفان بالأخوين، وجعلها أم قواعد الأندلس، واشتق لها اسماً من اسمه، ومن اسم رومية فسماها رومية يوليش. ويقال إن اشبانية اسم خاص ببلد إشبيلية الذي كان ينزله اشبان بن طيطش وباسمه سميت الأندلس اشبانية، ولم تزل معظمة عند العجم من ذلك الوقت([3]).

وفتح المسلمون إشبيلية في شعبان سنة (94هـ=713م) بقيادة موسى بن نصير بعد حصار دام شهراً واحداً وأقام عليها عيسى بن عبد الله الطويل، وهو أول ولاتها من المسلمين([4]).

وكان ملوك الأعاجم يتداولون السكن في أربع مدن أندلسية أحداها اشبيلية، وقد بنى عبد الرحمن بن الحكم (176- 238هـ= 792-852م)، سور اشبيلية بعد غلبة المجوس عليها، كما بنا جامعها وهو من عجيب البنيان([5])، وتعتبر مملكة اشبيلية أو غربي الأندلس من حيث الرقعة الإقليمية والزعامة السياسية والقوة العسكرية من أهم دول الطوائف(400-484هـ=1009-1091م) وأعظمها شأناً، فضلاً عن ذلك التفوق الإقليمي والسياسي فقد سطعت مملكة اشبيلية بين

---

(1) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص579؛ الشبر يعادل 15.5سم تقريباً (جمعة: المكاييل والموازين الشرعية، الشرعية، ص97).

(2) الحموي: معجم البلدان، ج1، 48.

(3) الحميري: الروض المعطار، ج1، ص58؛ صفة جزيرة الأندلس، ج1، ص18.

(4) عنان: دولة الإسلام، ج2، ص35.

(5) الحميري: الروض المعطار، ج1، ص58.

دول الطوائف، زهاء نصف قرن بفخامة بلاطها وروعة رسومها وكان للأدب والشعر بها دولة زاخرة، طبعت تلك الحقبة القصيرة من تاريخها بطابعها الخالد([1]).

5-سرقسطة:

سرقسطة بفتح أوله وثانيه ثم قاف مضمومة وسين مهملة ساكنة وطاء مهملة بلدة مشهورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال تطيلة ذات الفواكه العذبة، ولها فضل على سائر فواكه الأندلس([2])، ولمدينة سرقسطة جسر عظيم يجاز عليه إلى المدينة ولها أسوار منيعة ومبان رفيعة([3])، واسمها مشتق من اسم قيصر، وهو الذي بناها، وذكر أنها بنيت على مثال الصليب، وجعل لها أربعة أبواب: باب إذا طلعت الشمس أقصى المطالع في القيظ قابلته عند بزوغها، فإذا غربت قابلت الباب الذي بإزائه من الجانب الغربي، وباب إذا طلعت الشمس من أدنى مطالعها في الشتاء قابلته عند بزوغها وهو الباب القبلي، وإذا غربت قابلت الذي بإزائه من الجانب الغربي. وهذه المدينة على خمسة أنهار. وهي واسعة الخطة لا يعرف بالأندلس مدينة تشبهها، وقيل: تعرف بالبيضاء، لأن أسوارها القديمة من حجر الرخام الأبيض، وأخذ النصارى سرقسطة من أيدي المسلمين سنة اثنتين وخمسمائة بعد أن حاصروها تسعة أشهر، صلحاً، خرج إليها الإفرنج في خمسين ألف راكب([4]). وهي قاعدة من قواعد مدن الأندلس كبيرة القطر آهلة ممتدة الأطناب، واسعة الشوارع والرحاب حسنة الديار والمساكن، متصلة الجنات والبساتين ولها سور مبني من الحجارة حصين، وهي على ضفة النهر الكبير المسمى ابره، الذي تنصب مياهه إلى مدينة سرقسطة، ومن أسمائها المدينة البيضاء؛ وسميت بذلك لكثرة جصها وجيارها، ومن خواصها أنها لا تدخلها حية البتة وإن جلبت إليها وأدخلت المدينة ماتت، ولمدينة سرقسطة جسر عظيم يجاز عليه إلى المدينة ولها أسوار منيعة ومبان رفيعة([5]).

تعتبر المدن السابقة من أهم المدن وأكبرها وأعظمها شأناً قبل الفتح الإسلامي وأثنائه، ولأنه كما ذكر في النصوص السابقة، أن عدد المدن الأندلسية بلغ في فترة الحكم الإسلامي حوالي 40 مدينة، فقد آثر الباحث أن يذكر بعضاً منها وذلك لمقتضى البحث. وعند الحديث عن تلك المدن رأينا الموقع الجغرافي المتميز، وكثرة الأنهار وخصوبة التربة، واعتدال المناخ، مما أثرت تلك الجغرافيا على حضارة المنطقة تأثيراً مباشراً، وكانت تلك الأسباب مجتمعة حافزاً ودافعاً قوياً لأهل المنطقة، حيث عاشوا في بحبوحة من الحياة، وفي ترف عالٍ، أدى أن يطمع بهم الغريب ويؤثروا على أخلاق تلك البلاد.

---

(1) عنان: دولة الإسلام، ج2، ص31.

(2) الحموي: معجم البلدان، ج3، 212.

(3) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص554.

(4) الحميري: الروض المعطار، ج1، ص317.

(5) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص554؛ الحميري: الروض المعطار، ج1، ص317.

المبحث الثاني
مراحل الفتح الإسلامي

مبررات وأسباب الفتح الإسلامي للأندلس:

لقد كان الفتح الإسلامي للأندلس حلقة في سلسلة من الإنجازات المتتابعة مهدت لها عوامل عدة مهمة وكانت محصلتها النهائية فتح الأندلس، ولم يكن فتح المسلمين زمن الخلافة الأموية لشبه جزيرة أيبيريا محض صدفه، بل خطط له طويلاً، حتى إذا ضعف البيزنطيين تقدم الامويون بقائد متمرس في الفتح وشؤون البحر، وهو موسى بن نصير، الذي كان أبوه رئيس حرس الخليفة معاوية بن أبي سفيان ﷺ([1]).

ويعد فتح الأندلس أمراً طبيعياً حسب خطة المسلمين أثناء فتوحاتهم، والمتمثلة بتأمين حدودهم، ونشر دعوتهم وذلك بالمضي في جهادهم إلى ما وراء تلك الحدود، ولنشر العقيدة الإسلامية، وبعد فتح شمال أفريقيا كان المد الإسلامي يحمل عناصر القوة الذاتية الأصيلة التي تبرر فتح اسبانيا([2]).

وبالتالي فإن فكرة الفتح لم تكن وليدة لحظة عند الفاتحين المسلمين، بل تنبه لها الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ﷺ، عندما أوصى الفاتحين الأوائل، وكتب إلى الذين خرجوا لفتح القسطنطينية: "إنما تفتح من قبل البحر وأنتم إذا فتحتم الأندلس فأنتم شركاء لمن يفتتح قسطنطينية في الأجر آخر الزمان والسلام"([3]).

وهذا النص السابق من أوائل النصوص التي بينت أن التوجه لفتح الاندلس كان مبكراً، يعود لعهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ.

ثم إن خليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان ﷺ كان آخر ما وصى به: "أن شدوا خناق الروم فإنكم تضبطون بذلك غيرهم من الأمم"، ويقصد هنا بالروم القاطنين في شبة الجزيرة الايبيرية في شمال إفريقيا([4]).

إذاً فالفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية أمر طبيعي حسب خطة المسلمين في الفتوحات، والمتمثلة بتأمين حدودهم ونشر دعوتهم، وذلك بالجهاد خلف ما وراء الحدود، لنشر الإسلام، والذي من مقتضاه أن يستمر ما دام يمتلك القوة على ذلك، ولما وصل تيار الفتح إلى

---

(1) سيسالم: جزر الأندلس المنسية، ص51.

(2) الشطاط: تاريخ الإسلام، ص28.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج 7 ص 152.

(4) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج59، ص159؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج8، ص133؛ ابن خياط: تاريخ، ج1، ص230.

شمال افريقيا، كان المد الإسلامي المتين يحمل عناصر القوة الذاتية التي دفعت بالقائمين والعاملين فيها إلى الاستمرار، وأن لا تقف عند شواطئ إفريقيا الشمالية الغربية فكان عبورها إلى أسبانيا متوقعاً وطبيعياً عبر المضيق (المجاز أو الزقاق)([1]).

لا يمكن فصل فتح الأندلس عن السياق العربي الإسلامي بشكل عام، والهادف إلى تهيئة الأمة مع كل إمكاناتها المادية والفكرية والبشرية لحمل رسالة السماء الى الشعوب المظلومة، والتي تعاني من العبودية والتسلط والحرمان وعدم التكافل الاجتماعي، وكانت القيادة المركزية (الخلافة الأموية) في دمشق تكتفي بتحديد الأهداف والغايات وتضع الخطط، لذا وافقت الخلافة على العبور إلى أسبانيا شريطة اختبار المنطقة بالسرايا، ثم تركت التفاصيل للقائد الميداني الأعلى للفتح موسى بن نصير الذي كلف طارق بن زياد بالأمر([2]).

تعددت أسباب الفتح الإسلامي للأندلس ما بين أسبابٍ موضوعية وأسباب ذاتية، فمن الأسباب الذاتية: طبيعة المنهج الإسلامي الذي تكفل بإزالة الظلم ونشر العدل بين الناس، مصداقاً لقول الصحابي ربعي بن عامر: "الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"([3]).

أما فيما يتعلق بالعوامل الموضوعية للفتح، فقد روي أنَّ طارقاً كان والياً لموسى على طنجة؛ وكان يوماً جالساً، إذ نظر إلى مراكب قد طلعت في البحر؛ فنزل من فيها وقالوا لطارق: (إليكم جئنا عامدين) ومعهم عظيمهم يليان، فقال طارق: "ما جاء بك؟ فقال له إنَّ أبي مات، فوثب على مملكتنا بطريق يقال له لذريق؛ فأهانني، وأذلَّني؛ وبلغني أمركم؛ فجئت إليكم أدعوكم إلى الأندلس، وأكون دليلا لكم)، فأجابه طارق إلى ذلك([4]).

يعتبر توجه يليان لطارق بن زياد سبباً مساعداً ومهماً لتوجه طارق والمسلمون لفتح الأندلس، وهناك أسباب أخرى ذكرها المؤرخون للفتح وهي:

إن يليان، صاحب الجزيرة الخضراء اتصل بموسى بن نصير سنة (91هـ=709م)، من خلال طارق بن زياد عامل موسى على طنجة، وكان من أمر يوليان أن زين لموسى فتح الأندلس وسهولة ذلك الفتح، وقيل بأنه ذهب اليه بنفسه في البحر حتى اجتمع به([5])، ولم يكن العرض الذي عرضه يليان على موسى بن نصير بفتح الأندلس ودخولها اعتباطياً وبدون سبب؛ بل ان يليان كان يريد أن يثأر لنفسه من لذريق الذي اعتدى على ابنة يليان، وكانت

---

(1) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص43.

(2) طه: دراسات التاريخ الاندلسي، ص20.

(3) الطبري: تاريخ، ج2، ص401.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص140.

(5) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص140.

عنده؛ فاغتصبها نفسها؛ فأرسلت إلى أبيها، فلما بلغه ذلك، أحفظه، وكتمه، وارتصد به الأيام، ونصب له الغوائل، حتى كان من دخول العرب المغرب ما كان، وأرسل لذريق إلى يليان في بزاة وطيور وغيرها، فأرسل إليه يوليان: لأوردن عليكم طيراً لم تسمع قطُّ بمثلها، وهو ينوي الغدر به؛ فحينئذ دعا طارقاً إلى ما كان من جواز البحر([1]).

ويشار أيضاً إلى أن الأسباب التي شجعت على التفكير بالفتح؛ التنازع بين القائد لذريق والملك غيطشة، ورغبة أبناء الأخير بالانتقام من لذريق، الذي استولى على ملك أبيهم عنوة وغصبه([2]).

ما قبل الفتح:

لم يكن الشروع في فتح الأندلس دون سابقة من المغازي والسرايا التي كانت تستكشف الواقع الجديد جغرافياً وعسكرياً في شبة الجزيرة الايبيرية، ولذلك أغزى موسى بن نصير ابنه عبد الله ابن موسى فأتى ميورقة ومنورقة جزيرتين بين صقلية والأندلس ففتحهما وسميت تلك الغزوة بغزوة الأشراف، لأن أشرف الناس كانوا فيها تحت قيادة بن عبد الله([3]).

في سنة (81هـ=700م)، قاد عبد الله بن قطين غارة بحرية على جزيرة قوصره، بعدما أمره موسى بن نصير؛ فقام بتدمير القواعد البيزنطية البحرية حتى لا تتعرض لقاعدة ترشيش (تونس)([4]).

وفي سنة (84هـ=703م)، غزا عطاء بن رافع صقلية([5])، وفي سنة (85هـ=704م)، أغار أغار عبد الله بن موسى بن نصير على جزيرة صقلية وعاد منها بغنائم كثيرة([6])، وسنة(87هـ=706م)، أغزى موسى ابنه عبد الله بن موسى سردانية فافتتحها([7]). وفي سنة (88هـ=707م)، استعمل موسى بن نصير مولاه طارق بن زياد على طنجة وجعل معه جيشاً كثيفاً جلهم من البربر وجعل معهم من يعلمهم القرآن والفرائض، وكان ذلك الجيش هو الجيش الفاتح الذي قاده طارق بن زياد([8]). وفي سنة (89هـ=707م)، قاد عبد الله بن مرة حملة على

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص141.

(2) الصوفي: تاريخ العرب في الأندلس ص76-77.

(3) ابن خياط: تاريخ، ج2، ص302.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص263.

(5) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج6، ص18.

(6) ابن قتيبه: الامامة والسياسة، ج2، ص58.

(7) الحميري: الروض المعطار، ج1، ص315؛ ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج1، 475.

(8) ابن الاثير: الكامل، ج2، ص252.

جزيرة سردانية، وكان على رأس اسطول مصر المساند فإنتصر وغنم بعد أن أوقع خسائر فادحة وأسر ثلاثة ألاف أسير سوى الذهب والفضة وغيره([1]).

يلاحظ أن تلك السرايا والغزوات التي وجهها موسى بن نصير –رحمه الله– قد أفادت الجيش الفاتح أعظم إفادة، والتي تمثلت في الأمور التالية:

1- التعرف على الطبيعة الجغرافية للأرض المنوي فتحها وتجاوز العقبات.
2- التعرف على طبيعة العدو وخططه واستعداداته العسكرية.
3- كسر الحاجز النفسي الذي قد يعترض جيش الفاتحين، خاصة وأنهم سيخوضون غمار حرب بحرية ما عهدوها من قبل.

أما على مستوى التجهيزات المتمثلة في العدة والعتاد، فقد أقام موسى بن نصير سنة (84هـ=703م)، وأمر بدار صناعة للسفن بتونس، وجعل لها ما يشبه الميناء، بعدما جهز قناةً تصل إلى اثني عشر ميلاً ميلاً تمتد من البحر إلى دار الصناعة تلك، وحول الميناء إلى مشتي للمراكب تأوي إليه إذا هبت الرياح، وكان قد أمر بصناعة مائة مركب([2]).

ويلاحظ من خلال تجهيز موسى للمراكب المئة ونصيحته لعطاء بن أبي نافع، بأن لديه خبرة لا تخفى على أحد فيما يتعلق بتجهيز العدد والعدة، وخبرة واضحة أيضاً فيما يتعلق بالأجواء وطبيعة الجغرافيا المحيطة بالمنطقة.

إستشارة موسى بن نصير للخليفة الوليد بن عبد الملك:

في أخر عام (90هـ=709م) كتب موسى الى الوليد بما فتح الله عليه وبما عرضه يوليان([3])، واستشاره، إمَّا مراسلة (وهو الأكثر الأظهر) وإما بأن نهض بنفسه إليه؛ فأشار الوليد بأن يختبرها بالسرايا، ولا يغرر بالمسلمين([4]).

فاستجاب موسى لنصيحة الوليد بن عبد الملك وأَمْرُهُ بعد استشارته، وبعث موسى بن نصير للوليد بن عبد الملك رجلاً من البربر، يُسمّى طريفاً ويكنى أبا زرعة، في مائة فارس وأربعمائة راجل؛ فجاز في أربعة مراكب، حتى نزل في ساحل البحر بالأندلس، في منطقة تُعرف اليوم بجزيرة طريف، وسميت باسمه لنزوله هنالك؛ فأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء، وأصاب سبياً ومالاً كثيراً، ورجع سالما، وكانت إجازته في شهر رمضان من سنة

---

(1) ابن قتيبه: الامامة والسياسة، ج2، ص235.
(2) ابن قتيبه: الامامة والسياسة، ج2، ص234.
(3) ابن الأثير: الكامل،ج4، ص267؛ الحميري: الروض، ج1، 35؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص253.
(4) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص140.

(91هـ=710م)، ويعتبر بعث طريفا أول البعوث الاستكشافية فيما ذكر بعض المؤرخين على أنَّ صاحب الفتح الأكبر للأندلس وجلّه ومعظمه كان طارق بن زياد([1]).

يرى الباحث بأنه ما كان للقائد موسى بن نصير أن يقطع أمراً عظيما كالفتح دون العودة للاستشارة المباشرة من خليفة المسلمين في الشام الوليد بن عبد الملك، وكانت تلك عادة القوم تماشياً مع تعليم الدين الإسلامي المستنبطة من قول الله عز وجل ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾([2])، وكذلك مراعاةً لمقتضى الإمرة والإمارة، وذلك الأمر يدلل على أخلاق موسى بن نصير كقائد منضبط منسجم مع قيادته العليا.

طارق بن زياد أول الفاتحين:

بعد الفتح الذي أحرزه أبو زرعه طريف، أرسل موسى مولاً له كان على مقدمه جيشه يسمى طارق بن زياد، فعقد له وبعثه في سبعة آلاف من البربر والموالي ليس فيهم عرب إلا القليل، فهيأ له يليان المراكب وحل بجبل طارق يوم السبت في شعبان من سنة (92هـ –711م)، وقيل في رجب من السنة، في اثني عشر ألفاً غير ستة عشر رجلاً([3]).

بشرى رؤية النبي ﷺ:

في رجب سنة (92هـ–711م) ركب طارق البحر فغلبته عيناه، فرأى النبي ﷺ ومعه المهاجرين والأنصار ﷺ، وقد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسيّ، فقال له النبي ﷺ: يا طارق تقدم لشأنك، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد، فنظر طارق فرأى النبي ﷺ وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه؛ فاستيقظ من نومه مستبشرا وبشر أصحابه، وقويت نفسه ولم يشك في الظفر، فلما تكامل أصحاب طارق بالجبل نزل إلى الصحراء وفتح الجزيرة الخضراء([4]).

وعندما عبر طارق بن زياد ومعه ألف وستمائة رجل طمعت الروم فيهم فاقتتلوا ثلاثة أيام، وكان على الروم أمير استخلفه لذريق ملك الروم، وكان قد كتب إلى لذريق يعلمه أن قوماً لا ندري أَمِنَ الأرض هم أم من السماء؟! قد وصلوا إلى بلادنا، وقد لقيتهم فانهض إلي بنفسك، فأتاه لذريق في تسعين ألف فارس يمتطون خيلهم، فلقيهم طارق وعلى خيله مغيث الرومي مولى الوليد بن

---

(1) الحميري: الروض المعطار، ج1، ص35؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص253؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج4، ص267.

(2) سورة النساء: آية 59.

(3) الحميري: الروض المعطار، ج1، ص 35.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج4، ص268.

عبد الملك، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة، فقام فحثهم على الصبر ورغبهم في الشهادة، وبسط في آمالهم ثم خطبهم([1]).

خطبة طارق بن زياد ونقدها:

ذكرت العديد من المراجع خطبة طارق بن زياد التي ألقاها حينما التقى مع جيش لذريق، تلك الخطبة التي فنّدها البعض وردها لأسباب عديدة سنتطرق لها بعد الوقوف على الخطبة كما جاءت من أحد مصادرها والتي هي على النحو التالي:

عندما التقى طارق ولذريق، قام في أصحابه فحمد الله ثم قال: "أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم، فليس ثم والله إلا الصدق والصبر، فإنهما لا يغلبان، وهما جندان منصوران، ولا تضر معهما قلة، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة، أيها الناس ما فعلت من شيء فافعلوا مثله، إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال، ألا وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أتهيبه حتى أخالطه أو أقتل دونه، فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وتولوا الدبر لعدوكم فتبددوا بين قتيل وأسير، وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية، ولا تعطوا بأيديكم، وارغبوا فيما عُجّل لكم من الكرامة، والراحة من المهانة والذلة، وما قد أُجل لكم من ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا والله معكم ومعيذكم تبوؤوا بالخسران المبين، وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين، وها أنا ذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتي، فحمل وحملوا، فلما غشيهم اقتتلوا قتالاً شديداً، ثم إن الطاغية قتل وانهزم جميع العدو فاحتز طارق رأس لذريق"([2]).

ان مؤرخي الأندلس لم يتعرضوا لتلك الخطبة إلا قليلاً ،دون المتقدمين مما يشير الى عدم شيوعها، كما أن بناء الخطبة المسجوع لم يكن من أسلوب القرن الأول الهجري، وكذلك خلت الخطبة من المفاهيم العقائدية التي تمتع بها الفاتحين الأوائل، كما خلت من الآيات والاحاديث الشريفة، والأهم أن طارق ومعظم جيشه من البربر فكيف سيستقيم لهم فهم تلك الخطبة([3])، وتعتبر فصاحة الخطبة وأسلوبها بجملته من الأسباب النافية أن تكون من إلقاء طارق بن زياد الامازيغي هو ومعظم جيشه([4]).

يرى الباحث بأن النقد السابق لا يعني أن طارقاً لم يخطب بل ربما خطب خطبة على عادة الفاتحين وقادة الجند ولكنها ليست بتلك الصيغة التي ذُكرت أنفا رغم عدم وقوف الباحث على ما يؤكد رأيه.

---

(1) الطرطوشي: سراج الملوك، ج1، ص 148.

(2) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج2، ص 238.

(3) حجي: التاريخ الأندلسي ص60-61.

(4) طه: دراسات في التاريخ الأندلسي ص22.

معركة وادي لكة (معركة الفتح الأولى)(92هـ-711م):

وفي سنة (92هـ- 711م)، عبر طارق بن زياد البحر بإذن أميره موسى بن نصير ومعه ثلثمائة من العرب، ومن البربر زهاء عشرة آلاف، فجعلهم جيشاً واحداً ونزل بهم عند جبل الفتح، فسمى الجبل باسمه، وبلغ الخبر لذريق فنهض إليهم يجر أمم الأعاجم، وأهل ملة النصرانية، في زهاء أربعين ألفاً فالتقوا بفحص شريش (تونس)([1])، وكان لذريق قد جاء مستعلياً، ومعه من أدوات الحرب وعديد الجيش؛ ما جعله يظن بأنه منتصر لا محالة، لدرجة أنه جاء بحبال محملة على بغال حتى يقيد المسلمين بعد هزيمتهم ويأخذهم عبيداً، فزحف الى طارق وهو على سرير ملكه، محمول على بغلين، وعليه تاجه وجميع الحلية التي كانت تلبسها الملوك، حتى وصلوا ساحة المعركة. فخرج إليهم طارق بجميع أصحابه رجالة ليس فيهم راكب إلا القليل؛ فاقتتلوا قتالا شديدا حتى ظنوا أنه الفناء، ثم صرف الله وجوه أعدائه؛ فانهزموا؛ وأدرك لذريق؛ فقتل في وادي الطين، ولم يعرف للذريق موضع، ولم توجد له جثة، بل وجد له خفٌّ مفضفض، وقالوا أنه غرق أو قتل([2]).

ودخل طارق قرطبة، وفتح الله الأندلس على المسلمين، بعد أن اقتتلوا من شروق الشمس الى غروبها فلم تكن قطُّ بالمغرب مقتلة أعظم منها، وبقيت عظامهم في المعركة دهراً طويلا لم تذهب([3]). وكان لذريق قد جاء على رأس 100 من الفرسان وما كان مع ابن زياد سوى سبعة ألاف فقط، والقليل من الخيل، ولما رأى تلك الجيوش أرسل طارق بن زياد الى موسى بن نصير يستنجده، فامده ابن نصير بخمسة ألف من المشاة على رأسهم طريف بن مالك، وهكذا اصبح عند طارق بن زياد اثنا عشر الفا([4]).

في تلك المعركة تجلت سنة الله الخالدة المتمثلة في قوله تعالى: (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)([5])، فما أشبه تلك المعركة ببدر الكبرى، حيث جاءت قريش بخيلها وخيلائها وفجورها، فالمشهد يتكرر مع لذريق الذي جاء بأبهة الُملك، لابساً حليه محمولاً على أكتاف رعيته، ظاناً بأنه منتصر فأخذ معه حباله لتقييد الأُسارى من المسلمين، فيما جيش طارق يواجه بعدده وعتاده المتواضع جيش لذريق المنتفش بما يملك من رجال وسلاح، ويحضر قول الرسول ﷺ :"خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمِائَةٍ، وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ، وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفاً مِنْ قِلَّةٍ"([6]).

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص150.

(2) ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص 18؛ الحميري: الروض، ج1، ص28.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص141.

(4) مجهول: أخبار مجموعة، ص17.

(5) سورة البقرة: أية 247.

(6) ابن حنبل: مسند، ج1، ص294، حديث رقم: (2682).

طارق يفتح طليطلة وشذونة(92هـ-711م):

بعد النصر الكبير الذي أحرزه المسلمون في وادي لكة، توجه "طارق بن زياد" لفتح طليطلة، ولكن "موسى بن نصير" أمره بألا يتسرع في الفتح، فخالف طارق أوامره، ورغم غضب موسي إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يمده بثمانية عشر ألف جندي([1]).

فدخل طارق طليطلة يوم الإثنين الخامس من رجب سنة (92هـ-711م)، وبدأ طارق يفتح المدينة تلو المدينة ويكتب الله النصر على يديه([2]).

عندما علم أهل طليطلة بقدوم طارق فارقوها، وفتحها طارق ووجد بها بيت الملوك([3])، وألفاها خاليةً إلا من اليهود في قلة، وفر ملكها مع جيشه، فلحقهم طارق خلف الجبل فسلكوا الى وادي الحجارة([4]).

وفي فتح طليطلة أشار يليان على طارق أن يدخلها بعد نصره في وادي لكه، ففرق طارق جيوشه من إستجة([5])، فبعث مغيث الرومي، مولى الوليد بن عبد الملك بن مروان إلى قرطبة، وبعث جيشاً آخر إلى مالقة، وأرسل جيشاً ثالثاً إلى غرناطة مدينة إلبيرة([6])، وسار هو في معظم الجيش إلى كورة جيان يريد طليطلة. فمضى الجيش الذي وجه طارق إلى مالقة ففتحها، ولجأ جيشها إلى جبال هناك ممتنعة، ثم لحق ذلك القسم من الجيش المتوجة إلى إلبيرة؛ فحاصروها، وفتحوها عنوة ثم مضى الجيش إلى تدمير، وذكر معاوية بن هشام وغيره، أن فتح ما ذكر تأخر إلى دخول موسى ابن نصير في سنة (93هـ/ 712م)([7]).

ونزل طارق بأهل مدينة شذونة فامتنعوا عليه، فشد الحصر عليهم، حتى أنهكهم، فتمكن من فتحها عنوة، فغنم منها كثيراً وتوجه الى مورور ثم إلى قرمونة، ثم توجه الى إشبيلية؛ فصالحه

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج4، ص277؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج1، ص226.

(2) ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص18- 19؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص261.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص18.

(4) ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص143.

(5) مدينة إستجة: تقع على نهر غرناطة (شنيل) وهي مدينة حسنة، ولها قنطرة عجيبة البناء من الصخر المنجور، وبها أسواق عامرة، ومتاجر قائمة، ولها بساتين وجنات ملتفة، وحدائق زاهية، والمسافة بينها وبين قرطبة خمسة وثلاثون ميلاً (الادريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص572).

(6) إقليم البيرة: فيه من المدن غرناطة ووادي آش والمنكب، وحصون وقرى كثيرة، وهو يتصل بإقليم البشارات وفيه مدينة بسطة، وحصن طشكر الموصوف بالمنعة، وفيه حصون كثيرة (الادريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص537).

(7) ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص18- 19؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص261.

أهلها على الجزية، ثم قاتل أهل إستجة وهم في قوة؛ ومعهم فلول عسكر لذريق، فقاتلوا قتالا شديداً حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين، ثم نصر الله المسلمين ولم يلقوا فيما بعد ذلك حربا مثلها([1]).

العلاقة بين موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد:

كتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح والغنائم، فحركته الغيرة وكتب إلى طارق يتوعده بأن لا يتوغل بغير إذنه، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، واستخلف على القيروان ولده عبد الله ومنها توجه سنة (93هـ- 712م)، في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر، فأجاز إلى الأندلس، وتلقاه طارق وانقاد له ثم تمم موسى الفتح، وتوغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق، وأربونة([2]) في الجوف وصنم قادس([3]) في الغرب، ودوخ أقطارها وجمع غنائمها([4]).

وزعم البعض أن السبب الذي دفع موسى بن نصير للتوجه الى الاندلس، أنه استمع الى وشاية بخصوص طارق بن زياد، وعظيم الغنائم التي غنمها، وقيل أن سبب ذهاب موسى الى الاندلس عدم استجابة طارق لأمر موسى، والذي أمره فيه بألا يتعدى قرطبة بعدما هزم لذريق، وقيل حمله على دخول الاندلس الحسد([5]).

ولقد كان طارق بن زياد على صلة بقائده موسى بن نصير، يفتح الفتوحات باسمه وبتعليماته، ويخبره عن كل شيء أولاً بأول، ومنذ بداية الفتح، ويستشيره فيما يحتاج إليه، وقد طلب المدد قبل معركة وادي لكة، وكان موسى على علم تام بأحوال الفتوح، قال ابن الكردبوس: بأنه بعد معركة وادي لكه وصل الخبر الى موسى، فكتب الى الخليفة الوليد بذلك النصر، وبعد عبور طارق بعام وتوزيعه لجيشه على المدن المفتوحة خاف طارق من الهزيمة؛ خاصةً وأن عدداً من جيشه استشهد، فاستنجد بمولاه موسى بن نصير، فرأى موسى بأن يلحق بالاندلس على رأس جيش يقوده بنفسه([6]).

---

(1) المقري: نفح الطيب، ج1، ص260.

(2) بلد في طرف الثغر من أرض الأندلس، وبينها وبين قرطبة ألف ميل، وأربة بالتحريك والباء الموحدة اسم مدينة بالمغرب من أعمال الزاب وهي أكبر مدينة بالزاب يقال إن حولها ثلاثمائة وستين قرية (الحموي: معجم البلدان، ج1، ص140).

(3)صنم قادس موضوع على بلاد الأندلس، فجعل رأسه لطليطلة، وصدره لقرطبة، وكذلك أعضاؤه قسمها عضواً عضواً على بلاد الأندلس، وحوله ثارت بعض الخرافات (الحميري: الروض المعطار، ج1، ص449).

(4) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص150.

(5) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص143.

(6) الحجي: التاريخ الاندلسي، ص68.

يرى الباحث ومن خلال تعليقات الحجي السابقة أن ما أظهرته بعض الروايات حول العلاقة التي ساءت بين قائد الفتوحات العامة موسى بن نصير، ومولاه طارق بن زياد فاتح الأندلس، وبعد الوقوف على العديد من الروايات يتضح بأن ذلك الامر ليس له ما يؤكده، وذلك لأسباب عديدة أهمها، أن موسى بن نصير من أهل التقى والورع، ودينه يمنعه من الحقد على مولاه، وكذلك موسى بن نصير لم ينقصه مجد فهو صاحب قائد الفتوحات العامة، كما أن طارق بن زياد ما كان يقطع أمراً إلا بموافقة سيده موسى بن نصير.

موسى بن نصير يستكمل الفتح:

وفي سنة (94 – 95هـ) افتتح جميع حصون الأندلس، وهزم من لقيه من أمرائها؛ فلم يلق كيداً من أحد، ولا انهزمت له راية، حتى انتهى إلى مدينة من مدن إفرنجة، يقال لها لوطون، وقد ملك ما سواها ودونها إلى أقصى برشلونة، فلما انتهى إلى مدينة لوطون، ضاق المسلمون، وخافوا أن يحاط بهم؛ فكلموه في ذلك؛ فقفل بهم راجعا([1]).

وإن أهم أسباب نصر المسلمين في فتح بلاد الأندلس، تمثلت بالنوعية الباهرة لذلك الجيش الفريد، والصفات الإنسانية الفذة التي جمّلته بها عقيدته الربانية، وبها كان النصر لا بغيرها، وهي وحدها تستطيع فعل ذلك، فبدأ القوط ضعافاً أمام ذلك النوع من الجيش الفريد([2]).

اعتبر فتح الأندلس من أروع الأعمال في التاريخ العسكري الإسلامي، ودليل قدرة القيادة الإسلامية العربية ونبوغها في ذلك المجال، وظهر ذلك جلياً في التنظيم الرائع والتعاون البناء بين القيادة العسكرية العليا (موسى بن نصير) وساحة العمليات، كما يظهر في دقة التخطيط الذي انتهى بفتح شبه الجزيرة الايبيرية، في مدة ثلاثة سنوات (92–95هـ)، وهي فترة قصيرة جداً أمام اتساع البلاد وطبيعة جغرافيتها، وكذلك تظهر في حكمة طارق بن زياد، القائد والخبير في عدم اندفاعه وتحديده للزمان والمكان الملائمين للكر والفر، حيث اختار فصل الربيع لإتمام الانزال وتجاوز برودة الشتاء، وإجباره لخصمه أن يقطع شبه الجزيرة من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي([3]).

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص143؛ ابن قتيبة: المعارف، ج1، ص570.

(2) الحجي: التاريخ الاندلسي، ص35.

(3) طه: دراسات في التاريخ الاندلسي، ص22.

المبحث الثالث

العهود التي مرت بها الأندلس

مرت الأندلس بعهود متعددة شأنها شأن كل الدول على مدار التاريخ، وقد تقلبت تلك العهود ما بين عهود أمن ورخاء واستقرار سياسي واقتصادي، وعهود أخرى كانت تتميز بالإضطراب والثورات الداخلية والهجمات الخارجية، والتراجع الاقتصادي والتفكك المجتمعي والذي لازم كثير من عهود الأندلس، ولا شك بأن كل ميزة من مميزات العهود التي مرت بها الأندلس كانت تحمل فيها عوامل استمرار ونهوض وزيادة في العمران، وأخرى كانت تتميز بأنها عوامل هدم وسقوط بل واندثار في كثير من الأحيان.

وأول عهد يطالعنا في التاريخ الأندلسي هو عهد الفتح، والذي استمر من سنة (92هـ-95هـ=711م-714م)، ثم يليه عهد الولاة من سنة (95هـ-138هـ =714م-755م)، وقد اعتبر بعض المؤرخين أن مدة الفتح داخلة في عهد الولاة، ثم يأتي عهد الإمارة والذي يبدأ من سنة(138هـ-317هـ-755م-929م)، ثم يليه عهد الخلافة من سنة (316هـ-400هـ= 929م-1009م)، ثم يليه عهد الطوائف من سنة(400هـ-484هـ=1009م-1091م)، ثم يليه عهد المرابطين والموحدين (484هـ-.620هـ=1091م-1223م)، وأخيراً مملكة غرناطة من سنة (620هـ-897هـ= 1223م- 1492م)، والتي مثل سقوطها نهاية الحكم الاسلامي للأندلس وذهاب سلطان المسلمين السياسي منها(1).

وسنتناول في هذا المبحث كل عهد من عهود الأندلس موضحين صفاته السلبية والإيجابية وفترته الزمنية وأهم ملوكه بنوع من الإيجاز.

أولا: عهد الفتح سنة (92هـ-95هـ = 711م-714م)

أول ما بدأ الفتح في الأندلس كان من خلال سرية طريف بن مالك المكنى بأبي زرعة، حيث قدم من المغرب على رأس خمسمائة مسلم، فوصل الأندلس في رمضان عام (91هـ- 710م)، وقام بعدة غارات فغنم غنائم كثيرة وحاز أموالاً وأسرى([2])، وكان طريف بن مالك قد عرف جنوب الأندلس جيداً وعاد إلى موسى بن نصير شارحاً له ما عرف، فبدأ موسى بن نصير بتجهيز جيشٍ وإعداد عدة لمدة عام كامل حتى اكتمل عنده سبعة ألاف مقاتل بدأ بهم فتح الأندلس([3])، وبعد تجهيز ذلك الجيش، كلف طارق بن زياد أميراً عليه وتوجه إلى الأندلس([4])، وقد اجتاز طارق بن زياد البحر سنة (92هـ-711م)، بعد ما أذن له موسى بن

(1) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص39-40.

(2) مجهول: أخبار مجموعة، ص16.

(3) الحميري: الروض المعطار، ص35.

(4) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس: ص47.

نصير ومعه ثلاثمائة من العرب، ومن البربر عشرة ألاف، ثم قسمهم إلى قسمين، أحدهما وقف هو على رأسه، ونزل به جبل الفتح الذي سمي بجبل طارق، والأخر وقف عليه طريف بن مالك النخاعي ونزل بمكان مدينة طريف التي سمت باسمه([1])، وقيل بأن الجيش الذي كان معه لم يتجاوز تسعة ألاف([2]).

وما أن وصل طارق بن زياد حتى وجد حاميةً على منطقة يقال لها الجزيرة الخضراء، فعرض عليهم طارق الاسلام أو الجزية أو الحرب، فأبوا إلا الحرب، وكان سجالاً، إلى أن انتصر طارق بن زياد عليهم، فأرسل زعيمهم (تدمير) رسالة إلى لذريق وقال له فيها: أدركنا يا لذريق فإنه نزل علينا قومٌ لا ندري أهم من أهل الأرض أم من أهل السماء؟ قد وطؤوا إلى بلادنا وقد لقيتهم ولتنهض إلى بنفسك([3]).

معركة وادي لكة (برباط) (رمضان 92هـ- 711م):

ولما بلغ لذريق غزو طارق بلاده جهز له جيشاً من مئة ألف، فأرسل طارق بن زياد إلى موسى أن يمده بجيش بعد أن تجهز له لذريق، فأمده موسى بن نصير بخمسة ألاف، وكان مع طارق سبعة ألاف، والتقى الجيشان على نهر لكة من أعمال شذونة، واتصلت الحرب ثمانية أيام، انتصر طارق بن زياد وهزم لرذريق وغرق في النهر([4]).

ثم تحرك طارق إلى مضيق الجزيرة، ونهض إلى مدينة إستجة، فوجد فيها فلول العسكر؛ فقاتلوه فتالا شديداً، حتى كثر القتل والجراح في المسلمين، ثمَّ نصرهم الله، فهرب أكثرهم إلى مدينة طليطلة، وتركوا مدائن الأندلس وراءهم قليلة الأهل([5]).

اللقاء بين موسى بن نصير وطارق بن زياد:

خرج موسى بن نصير إلى الأندلس في رجب سنة (93هـ- 712)، بجيش قوامه ثمانية عشر ألفاً([6])،وبذلك الجيش توجه إلى مدينة شذونة، فافتتحها، ثم افتتح قرمونة بالحيلة، ثم فتح إشبيلة وفتح ماردة بعد حصارهما([7])، بعد حصارٍ استمر من رمضان إلى شوال سنة (94هـ-

---

(1) ابن خلدون: العبر، ج4، ص254.

(2) مجهول: أخبار مجموعة، ص19.

(3) المقري: نفح الطيب، ج1، ص24.

(4) ابن الاثير: الكامل، ج4، ص268؛ القضاعي: الحلة السيراء، ج2، ص333.

(5) ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص141.

(6) المقري: نفح الطيب، ج1، ص277.

(7) المقري: نفح الطيب، ج1، ص229.

713م)، وأثناء حصاره لماردة توجهت فلول القوط بعد اجتماعها، وقتلوا كثيراً من المسلمين في إشبيلة التي سقطت بأيدي القوط، فأعاد فتحها عبد العزيز بن موسى بن نصير ([1]).

وبعد الفتوحات التي أنجزها المسلمون في الأندلس، أمر الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير بالعودة إلى الشام، فاستجاب موسى بن نصير لذلك الأمر مكرهاً([2])، وعلى ما يبدو أن سبب استدعاء الوليد بن عبد الملك لموسى خوفه على المسلمين من التوغل في بلاد لم يخبروها، خاصة وأن عددهم لم يكن كبيراً، وبعودة موسى لدمشق توقف الفتح، واستجمع النصارى قواتهم المبعثرة([3]).

لقد تميز عهد الفتح بعدة ميزات ايجابية وسلبية، وكان أهمها أن ذلك الجيش كان على قلب رجل واحد بعربه وعجمه من البربر، ورغم قلة عددهم إلا أن قلوبهم كانت عامرة بالايمان وحب الجهاد، وكانوا تحت قيادة مؤمنة واعية خبيرة بأمور الحرب والدعوة الى الله، وبجهادهم ودعوتهم بنيت أول أسس لدولة الاسلام التي نشأ عليها حضارة الأندلس ممتدة الى ثمانية قرون، وأما السلبية في ذلك العهد فهي استدعاء موسى بن نصير لدمشق، وبذلك الاستدعاء توقف الجهاد في الأندلس وتمكنت فلول النصارى من التمركز في الشمال؛ لتقم بعد ذلك الممالك النصرانية التي كانت عاملاً أساسياً في إسقاط الأندلس، خاصة وأن الفتح لم يستكمل لكل بلاد الأندلس.

عهد الولاة (95هـ-714م/ 138هـ-755م):

بعدما استقرت الاوضاع في بلاد الأندلس، بانتهاء عهد الفتح، تميز عهد الولاة بعدة مميزات أهمها تنظيم البلاد، وإصلاحها ونشر الاسلام بين الأسبان، ومواصلة الجهاد؛ والقضاء على النظام الطبقي الذي ساد قبل مجيء المسلمين، والسماح بالحرية العقائدية للناس، ونشر المساواة بين الجميع، لا فرق بين حاكم ومحكوم([4]).

وانتشر الإسلام في عهد الولاة بين الأسبان، وسادت قيمه وتعاليمه وثقافته، وذلك بعد تقيّد الفاتحين والدعاة بها، مما جعل أهل الأندلس يعجبوا بها، ويدخلوا في دين الله أفواجا([5]).

واهتم المسلمون بالعمران في ذلك العهد فأنشأوا القناطر على الأنهار، وكان أهمها قنطرة قرطبة([6])، وكانت القنطرة على النهر من أعظم آثار الأندلس وأعجبها، أقواسها سبعة عشر قوساً، قوساً، بناها السمح بن مالك الخولاني أمير الأندلس بأمر من عمر بن عبد العزيز رحمهما الله([7])،

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص14.

(2) المقري: نفح الطيب، ج1، ص276.

(3) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص125.

(4) مؤنس: فجر الأندلس، ص350.

(5) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص144.

(6) مجهول: أخبار مجموعة، ص30.

الله([1])، كما تميز ذلك العهد باتخاذ قرطبة كأول عاصمة رسمية للمسلمين في الأندلس، بعدما كانت طليطلة القريبة من فرنسا، ومن منطقة الصخرة التي أوى إليها فلول النصارى([2]).

يرى الباحث بأنه وبعد تلك الأمور المهمة التي قام بها المسلمون، والتي تمثلت بنشر الإسلام في الأندلس، وإرساء المدنيّة، واتخاذ قرطبة عاصمة لهم، كان لا بد أن يتم حماية تلك المنجزات بمواصلة الجهاد الذي استمر لفترات وانقطع في فترات مما سبب ضعفاً للاندلس وانهياره.

الجهاد في عهد الولاة:

أول المجاهدين في عهد الولاة السمح بن مالك الخولاني([3])، الذي حكم الأندلس سنة (97هـ-716م)، وانقطع حكمه ثم عاد عام (100هـ-719م)، بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وفي فترته عم الأمن والعدل بلاد المسلمين([4])، وقام بفتح الجنوب الغربي لفرنسا([5])، وظل السمح يجاهد ويُعلِّم الناس الإسلام في الأندلس إلى أن استشهد سنة (102هـ - 721م)، في أرض الفرنجة يوم التروية([6]). وبعد السمح رحمه الله جاء القائد عنبسة بن بن سحيم([7]) فبمجيئه استقام أمر الأندلس وغزى الفرنجة وتوغل في بلادهم واستشهد سنة (107هـ-726م)([8])، ومن شدة قتاله للروم طالبوه بالصلح([9]).

---

(1) المقري: نفح الطيب، ج1، ص480.

(2) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص25.

(3) السمح بن مالك الخولاني خامس ولاة الأندلس من قبل الدولة الأموية، ولاه عليها الخليفة عمر بن عبد العزيز عام 100هـ، خلفًا للحر بن عبد الرحمن الثقفي، وهو أول والٍ للأندلس يُعيّن من الخليفة في دمشق مباشرةً، بعد أن كانت تابعة لولاية لوالي أفريقية فيولي عليها من يشاء(عنان: دولة الاسلام في الاندلس، ج1، ص680).

(4) مجهول: أخبار مجموعة، ص28.

(5) الخشني: قضاة قرطبة، ص9.

(6) المقري: نفح الطيب، ج3، ص15.

(7) عنبسة بن سحيم الكلبي، نسبة إلى قبيلة كلب اليمانية، المعروفة تاريخياً بتأييدها للبيت الأموي، من القادة الفاتحين الشجعان، وهو أحد ولاة الأندلس الطموحين الذين حرصوا على تحقيق أحلام الخلفاء الأمويين في فتح القارة الأوربية، وهو يشبه بذلك السمح بن مالك الخولاني، وعبد الرحمن الغافقي. ولي الأندلس بعد السمح بن مالك (102-107هـ=721-726م) ليزيد بن أبي مسلم، والي المغرب الكبير؛ إذ جرت العادة أن يُعيّن ولاة الأندلس والي المغرب خلال عصر (المقري: نفح الطيب، ج3، ص16).

(8) سمي بذلك لأن الحجيج كانوا يتروون من الماء فيه في اليوم الثامن ويعدونه ليوم عرفة، (الفاكهي: أخبار مكة، ج3، ص189).

(9) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص27.

وفي سنة (112هـ-730م)، قاد عبد الرحمن الغافقي الجهاد الذي بلغ في زمانه مداً بعيداً إلى أن وصل إلى معركة بلاط الشهداء أو غزوة البلاط([1])، وفي تلك المعركة قاد الغافقي جيشاً من خمسين ألف مقاتل، والذي يعتبر أكبر حملة تدخل فرنسا، ولكن لم يقدر له النصر حيث هزم المسلمون ومن وقع تلك الهزيمة المنكرة لم يذكرها المؤرخون الأوائل، تشاؤماً وتطيراً، حتى ذهبت في مدارج النسيان، ولم يبقى في الذاكرة منها إلا أن أهل الإسلام هزموا هزيمة مروعة سنة (114هـ - 732م)([2])، وفي رمضان من تلك السنة استشهد القائد عبد الرحمن الغافقي رحمه الله، الله، وأصيب عسكره ([3]).

بعد الهزيمة في بلاط الشهداء توالت أحداث مأساوية على الأندلس، حيث بدأ الضعف يدب وذلك بعد أن أتى للحكم عبد الملك بن قطن الفهري([4]) سنة (114هـ - 732م)([5])، ثم عزل عزل عام (116هـ-734م)، لظلمه وعسفه([6]).

وبعده جاء عقبة بن الحجاج([7]) الذي حكم من (116هـ - 734م) إلى (123هـ - 741م)([8])، وكان عقبة بن الحجاج رحمه الله من أحسن الناس سيرة وأعظمهم طريقة وأعدلهم([9])، وأعدلهم([9])، وكان محمود السيرة مجاهداً مظفراً([10]).

وباستشهاد عقبة ينتهي العهد الأول من عهد الولاة، وينشغل المسلمون عن متابعة الجهاد، حيث جرت في الأندلس أحداث هددت المسلمين وأتت على كثير مما تم انجازه([11]).

---

(1) المقري: نفح الطيب، ج1، ص236.

(2) مؤنس: فجر الأندلس: ص228.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص20؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص236.

(4) عبد الملك بن قطن، ينتهي نسبه إلى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. أحد رجالات الأمويين في الأندلس، الأندلس، وأحد القادة الشجعان، من ذوي الكفاءة في الحروب، والجرأة في القتال، وأحد الطامحين إلى الُملك والسلطان، شهد وقعة الحرة شرقي المدينة المنورة عام 63هـ-683م، حين خرج أهل المدينة المنورة على يزيد بن معاوية لأسباب عدة، منها قَتل الحسين بن علي (ابن عذاري: البيان الغرب، ج1، ص151).

(5) الحميدي: جذوة المقتبس، ج7، ص287.

(6) المقري: نفح الطيب، ج1، ص236.

(7) "تَوَليَ عقبة بن الحجاج السَّلُولي الاندلس من قِبَل عبيد الله بن الحبحاب، فأقام خمس سنين محمودَ السيرة، مجاهدًا مظفَّرًا"، (المقري: نفح الطيب، ج1، ص236)، "وأقام عقبة بالأندلس بأحسن سيرة وأجملها، وأعظم طريقة وأعدلها" (ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص29).

(8) مجهول: أخبار مجموعة، ص33.

(9) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص29.

(10) المقري: نفح الطيب، ج1، ص236.

(11) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص206.

في الفترة الثانية من عهد الولاة والتي تبدأ من سنة (123هـ – 771م) حتى سنة (138هـ – 755م)([1])، والتي تميزت بالنزاعات الداخلية وبداية الصراعات العرقية، ومما يدلل على على ذلك، بداية الفتنة البربرية على يد الخوارج بقيادة زعيمهم ميسرة المدغري([2])، وذلك في بلاد المغرب([3])، وأثرت تلك الثورة على الأندلس، فأعلن بربر الأندلس العصيان في جليقية وأستورقا، وقتلوا العرب وطردوهم من البلاد([4])، وكانت كذلك الفتنة بين القيسية واليمنية، حيث ثارت الحرب بين عبد الملك بن قطن وبلج بن بشر قائد الشاميين، وانتهت بالهجوم على بن قطن وقتله وصلبه سنة (123هـ – 771م)، وعلى إثر مقتل عبد الملك بن قطن اشتعلت الحرب وتأججت بين القيسية واليمنية، وذهب المتحالفون مع بن قطن نحو قرطبة، ودارت معركة عنيفة بينهم وبين الشاميين، وذلك سنة 124هـ – 742م([5]).

نخلص بهذا العرض إلى أن عهد الولاة انقسم إلى قسمين، الأول تميز بقادة عظماء قاتلوا العدو ونشروا الاسلام ووطدوا أركان الدولة، ثم جاء القسم الثاني من عهد الولاة والذي تميز بالنزاع بين الأعراق، واستعار نار الفتنة بينهم، وذلك الأمر كان له أبلغ الآثار السلبية، حيث أسس للنزاع العرقي، والنزاع على السلطة، وأفضى في آخره إلى سقوط الأندلس.

عهد الإمارة (138-316هـ/ 755-929م):

انتهى عهد الولاة بمجيء عبد الرحمن بن معاوية (الداخل)، بعد يوسف الفهري آخر الولاة، وكان مجيء الداخل بعد سقوط الدولة الأموية في الشام سنة (132هـ– 750م)([6])، من أجل دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس، أرسل مولاه بدراً ليستطلع حال الأندلس، والتي اشتد بها النزاع العرقي([7])، وقد اتصل عبد الرحمن الداخل مع الأمويين الموجودون في الأندلس وأخبرهم بأنه عازم على دخولها وطلب منهم المدد([8])، وما أن دخل عبد الرحمن الأندلس حتى ذهب إلى

(1) المقري: نفح الطيب، ج1، ص298.

(2) ثار ميسرة المطغتي (المدغري) بطنجة على عمرو بن عبد الله فقتله وبايع لعبد الأعلى بن جريج الأفريقي رومي الأصل ومولى العرب كان مقدم الصفرية من الخوارج في انتحال مذهبهم فقام بأمرهم مدة وبايع ميسرة لنفسه بالخلافة داعيا إلى نحلته من الخارجية على مذهب الصفرية، ثم ساءت سيرته فنقم عليه البربر ما جاء به فقتلوه وقدموا على أنفسهم خالد بن حميد الزناتي (ابن خلدون: تاريخ، ج6، ص145).

(3) انظر ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص53.

(4) مجهول: أخبار مجموعة، ص42.

(5) مجهول: أخبار مجموعة، ص45.

(6) الحجي: التاريخ الأندلسي: ص215.

(7) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص244.

(8) ابن الأثير: الكامل، ج5، ص123.

اشبيلية، واجتمع مع أبو الصباح اليحصبي زعيم اليمنيين؛ فبايعه أبو الصباح، ثم راسل الداخل يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وطالبه بتسليم الإمارة له كونه حفيد هشام بن عبد الملك؛ فرفض الفهري ذلك، وجهز جيشاً لحربه([1])، ووقعت بينهم معركة المصاره سنة (138هـ-756م)، كان عبد الرحمن الفهري يقف على رأس القيسية فيما عبد الرحمن الداخل يقود اليمنية، وانتصر عبد الرحمن بعد معركة قوية وفرّ يوسف الفهري([2]).

وفي عهده قامت ثورات عديدة، توزعت ما بين ثورات داخلية وثورات دعمها العباسيون، ومن بينها ثورة العلاء بن المغيث الحضرمي([3]).

وتميز عبد الرحمن ببناء المدن والمتنزهات، حيث أنشأ الرصافة كأكبر الحدائق، أتى بنباتها من كل العالم([4])، كما حمى حدود الأندلس من شارلمان عندما هاجمها في سنة (157هـ-775م)، من خلال المتمرد سليما بن يقظان الأعرابي([5])، ولقد تميز عبد الرحمن الداخل بصفات القادة العظماء، فكان راجح الحلم فاسح العلم، ثاقب الفهم كثير الحزم، نافذ العزم بريئا من العجز سريع النهضة متصل الحركة لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة ولا يكل الأمور إلى غيره ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً بعيد الغور([6])، توفي عبد الرحمن الداخل بقرطبة ودفن بها سنة (172هـ -788م)([7]).

يلاحظ بأن الصفات التي تمتع بها عبد الرحمن الداخل ما هي إلا صفات قائد عظيم ليس من قادة المسلمين فحسب؛ بل من القادة العالميين الذين يخلد التاريخ ذكرهم، فبعد أن كان مطارداً، وقد نُكب في أهله وفي كل ما يملك، دخل أرضاً لا يوجد بها إلا بقية ممن أحب أهله؛ فاتكئ عليهم فأنشأ دولة مرهوبة الجانب، عظيمة البنيان، متخطياً كل الصعاب في الداخل والخارج.

وجاء بعد عبد الرحمن الداخل ابنه هشام للحكم سنة (172هـ -788م)، وفي زمانه انتشر المذهب الاوزاعي([8])، وكانت له حروب طويلة مع الممالك النصرانية مع الشمال([9])، وتوفي هشام هشام سنة (180هـ -796م)، وجاء مكانه ابنه الحكم، الذي ما كان على شاكلة أبيه ولا جده، ففي

---

(1) المقري: نفح الطيب ، ج3، ص33.

(2) مجهول: أخبار مجموعة، ص80-83.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص52.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج5، ص280.

(5) المقري: نفح الطيب ، ج3، ص48.

(6) المقري: نفح الطيب ، ج3، ص37.

(7) مجهول: أخبار مجموعة، ص105؛ وابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص58.

(8) المقري: نفح الطيب ، ج2، ص46.

(9) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص64.

عهده انتشرت الثورات ووصل به الأمر إلى إحراق بيوت الثائرين عليه ونفيهم خارج البلاد، خاصةً في ثورة الربض التي حصلت سنة (202هـ- 808م)([1]).

وفي سنة (206هـ-814م)، جاء للحكم عبد الرحمن الأوسط بعد أبيه الحكم، وفترته من الفترات الفاضلة في التاريخ الأندلسي، حيث استأنف الجهاد ضد الممالك النصرانية في الشمال وهزمهم([2])، وكان حسن السيرة هادئ الطباع محباً للعلم محباً للناس([3])، وفي عهده انتشرت الحضارة العلمية، فكان في زمانه عباس بن فرناس، صاحب الابتكارات الكثيرة([4])، وانعدم التسول التسول حيث قال المقري: وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق، في التسول التي تجعل الناس كسولةً عن الكد، وتحوج الوجوه للطلب في الأسواق؛ فمستقبحة عندهم، وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه، فضلاً عن أن يتصدقوا عليه، فلا تجد بالأندلس سائلا إلا أن يكون صاحب عذر([5]).

وفي سنة (238هـ-846م)، توفي عبد الرحمن الأوسط، وجاء ابنه محمد ومعهما يبدأ عهد الضعف في عهد الإمارة الأموية، ذلك العهد المتميز بعدة ميزات أهمها، دخول الكثير من أبناء الأندلس إلى الإسلام، وزيادة الجوانب الحضارية المدنية، ونمو التنظيمات الإدارية، ووصول العمران إلى ذروته، ثم الجهاد ضد الممالك النصرانية، وظلت على تلك الحالة إلى أن توفي عبد الرحمن الأوسط وبدأ النزاع بين أولاده([6]).

يلاحظ أن العهد الأول تميز بوجود قادة عظماء أمثال عبد الرحمن الداخل، وعبد الرحمن الأوسط، اللذان وضعا قواعد وأسس مُلك عريض، ثم جاء أمراء ضعاف، أسسوا لعوامل هدم لمن خلفهم، مثل الحكم بن هشام الذي كان نموذجاً سيئاً للحكام كما سيأتي لاحقاً.

عبد الرحمن بن محمد (الناصر) (300هـ- 912م):

تولى الحكم بعد جده عبد الله في سنة (300هـ-912م)، وتميز بالورع والعناية بشئون الحكم ونشر العدل([7])، وعندما تولى الحكم لم يكن يملك من بلاد الأندلس إلا قرطبة وما حولها من القرى([8])، وكانت الخلافة حقٌ لأعمامه، ولكنهم زهدوا فيها، لما أحاطها من أخطار، وكان

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج5، ص413؛ المقري: نفح الطيب ، ج1، ص339.

(2) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص81.

(3) مجهول: أخبار مجموعة، ص122.

(4) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج16، ص380.

(5) المقري: نفح الطيب ، ج1، ص220.

(6) انظر الحجي: التاريخ الأندلسي، ص277-289.

(7) ابن الخطيب: أعلام الأعلام، ج2، ص26.

(8) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص256.

تولي الإمارة في قرطبة، يعني التعرض لتلك الأخطار والمكاره([1])، ومن أهم أعمال عبد الرحمن الناصر، القضاء على الثورات الداخلية، حيث وجد أرض الأندلس مضطربة بالثائرين، مضطرمة بنيران المتغلبين، فعمد قبل كل شيءٍ إلى إخماد تلك النيران واستنزال أهل العصيان([2])، ونجح في في توحيد الأندلس سياسياً بعد ستة عشر عاماً من النضال الصعب الذي توج بانتصاره على بني حفصون([3]).

وفي زمانه قامت الدولة الفاطمية الشيعية سنة (297هـ- 909م)، وكانت معروفة بعدائها للعباسيين والأمويين، وعيونها ترنو إلى الأندلس، ولكن الناصر ردهم مدحورين([4])، وكان من انجازاته أيضاً أنه واجه الممالك النصرانية وانتصر عليها، وأصبحت تخطب وده ويرسلون له الهدايا، حيث وصل إليه رسول ملك القسطنطينية العظمى رغبةً في مؤالفته، وأعطاه كتاباً مكتوباً بالذهب، وعليه طابع من ذهب وعلى أحد وجهيه صورة المسيح([5]).

يتضح بأن الناصر قد جاء إلى مُلكٍ مشتت، يكاد أن يزول فيه حكم المسلمين، فقمع التمردات الداخلية، وجهز جيشاً قوياً، وقضى على خصومه الخارجين، من الفاطميين، وتوطدت علاقة الممالك النصرانية معه، وخطبت وده، ناهيك عن إبداعاته المدنية والحضارية والتي سنتطرق إليها لاحقاً.

وبعد الناصر جاء الحكم المستنصر سنة (350-366هـ/961-976م)([6])، وكان الناصر قد اعد ابنه الحكم لذلك المنصب، فأعطاه دولة آمنة الحدود مزدهرة بالعمران، مستقرة في معظم جوانبها، فاستمر الحكم راعياً لتلك الدولة، فأكمل مشاريع قد بدأت قبله، وأنشأ غيرها، وقد عُرف بصفات الحمد وخصال البر([7])، وقد كان الحكم الثاني رحمه الله عالماً فقيهاً نساباً مكرماً لرجال العلم([8]). بعد الحكم جاء ابنه هشام سنة (350-366هـ/961-976م)، وكان لا يتجاوز الثانية عشر من عمره([9])، وكان هشام الحكم لا يتمتع بأيٍ من صفات الملك([10])، وكان عنده محمد بن أبي عامر المنصور الذي قضى على خصومه، فانتصر على الأسبان في غزوات عدة، ولقب

---

(1) سالم: تاريخ المسلمين، ص279.

(2) المقري: نفح الطيب، ج1، ص353.

(3) بيضون: الدولة العربية، ص283.

(4) العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص60.

(5) ابن الخطيب: أعلام الأعلام، ج2، ص27.

(6) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص233.

(7) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص299.

(8) المقري: نفح الطيب، ج1، ص396.

(9) ابن خلدون: العبر، ج4، ص147.

(10) ابن الخطيب: أعلام الأعلام، ج2، ص58-59.

نفسه بالمنصور، ودعي له على المنابر، وقد غزا بنفسه سبعة وخمسين غزوة كانت تحمل طابع الهجوم ضد الممالك النصرانية([1])، ولقد تمرس المنصور ببلاد الشرك، ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس، وغادرهم صرعى البقاع، وتركهم بأذل من وتد بقاع([2]).

وبعد وفاة الحاجب المنصور سنة (392هـ- 1002م)([3])، جاء ابنه أبو مروان عبد الملك الذي سار على سنة أبيه في السياسة والغزو إلى أن مات مسموماً أو بذبحة قلبية في قرطبة([4]).

وفي سنة (399هـ-1008م)، تولى عبد الرحمن الأمر بعد أخيه عبد الملك وكان ميالاً إلى الدعة، غير مهتم بالسياسة والجهاد، ومن حبه للملك، طلب من الخليفة (الاموي) هشام بن عبد الملك، بأن يوليه العهد؛ ففعل، مما أثار نقمة وغضب المصريين عليه، وانبعثت العصبية القديمة وكان فيها هلاك عبد الرحمن بن المنصور، والقضاء على الدولة الأموية برمتها، وبداية عهد جديد هو عهد الطوائف([5]).

من الأمور الملاحظة في عهد الخلافة الأموية أنها قد أوسد فيها الأمر إلى غير أهله، وذلك يتضح جلياً عندما أُوكل الأمر إلى هشام بن الحكم الثاني الفتى الغر الذي لا يملك من أمره شيء، فكيف بأمر المؤمنين؟ كما أن الترف بكل أشكاله كان سمة مُميزة لذلك العهد، والذي سنتحدث عنه لاحقاً، وكان عاملاً مهماً من عوامل السقوط للأندلس.

عهد الطوائف (400هـ- 1009م/ 484هـ-1091م):

بعد انتهاء عهد الخلافة، تفرقت الأندلس وعاشت حالة من الصراع والتخاصم، سيطر على كل جزء منها متغلب، من ذوي السلطان السابق، أو زعيم أسرة محلي، كما سيطر البربر على جزءٍ أخر، وانشؤوا إمارات عدة سرعان ما تصارعت مع بعضها؛ لتكون النتيجة قيام دول الطوائف، على أنقاض الدولة الأندلسية، وذلك منذ بدايات القرن الخامس حتى الفتح المرابطي، تلك الفترة التي ميزها الخصومات والحروب الأهلية وكادت بتلك المنازعات أن تسقط الأندلس نهائياً([6]).

وأول ما يطالعنا في تلك الطوائف وملوكها، الوزير أبو الحزم ابن جهور، الذي أقام ملكه في قرطبة، حيث أن القرطبيون أسندوا أمرهم إليه في ذي الحجة في (422هـ- 1031م)، لما رأوا منه من صدق في العزيمة، وغيرة وحمية، وكان ظنهم في مكانه، حيث أعطوا قوس السياسة

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص301.

(2) المقري: نفح الطيب، ج1، ص403.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص301.

(4) ابن الخطيب: أعلام الأعلام، ج2، ص89.

(5)ابن عذارى: البيان الغرب، ج3، ص49-50؛ ابن الخطيب: أعلام الأعلام، ج2، ص97.

(6) عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج2، ص677.

باريها، فاخترع لهم نوعاً من التدبير فحملهم عليه، فاقترن صلاحهم به وأجاد السياسة، فانسدل به الستر على أهل قرطبة([1]).

ومن أهم انجازاته رحمه الله، توطيد الأمن وتدعيم النظام، حتى أصبحت قرطبة ملاذاً آمناً للأمراء المخلوعين والمنفيين إلى أن توفي في صفر سنة (435هـ –1044م)، وفي سنة وفاته تولى ابنه محمد([2])، فسار بسيرة أبيه، فأقر الحكام على ما كانوا على عهد أبيه، وأخذ بسياسة الحزم وأقر الأمن والنظام([3])، وقد أصلح فساد الاقتصاد، فعم الرخاء وازدهرت الأسواق، وتحسنت الأسعار، وغلت البيوت وعاد النماء بعد الكساد([4]).

مملكة إشبيلية:

كان من أهم حكامها بنو عباد، الذين حكموها بعد سقوط بني عامر، في أواخر الخلافة الاموية نهاية القرن الرابع ونهاية القرن الخامس، وكان أعظمهم شأناً إسماعيل بن عباد أبو الوليد، الذي بحكمته جمع أعيان ورؤساء اشبيلية حوله، وكان قد ولاه المنصور بن أبي عامر قضاء اشبيلية، الى أن تمكن من الإسئثار بحكم اشبيلية([5]).

وكان إسماعيل بن عباد وافر العقل سابغ العلم بعيد النظر، مما جعل الكثيرين يلجأون اليه بعد احتدام الفتن في زمن الطوائف([6])، وقد تعاقب على حكم إشبيلية مجموعة من بني عباد وتأرجحت في زمانهم أحوالها الى أن استقرت زمن المعتمد بن عباد الذي استطاع أن يؤسس أعظم مملكة في عهد الطوائف امتدت في قلب النصف الجنوبي من الاندلس ومن غرب ولاية تدمير شرقاً حتى المحيط الاطلنطي([7])، وكان ذهاب دولة بني عباد بعد نكبتهم على يد المرابطين، بسبب تعاون المعتمد بن عباد مع النصارى ضد بن تاشفين سنة (488هـ– 1095م)، وكانت وفاته بأغمات وفيها دفن([8])، وكان قد رثى نفسه بأبيات وأمر أن تكتب على قبره فقال فيها:

قَبرَ الغَريب سَقاكَ الرائِحُ الغادي	حَقّاً ظَفَرتَ بِأَشلاء ابن عَبّادِ
بِالحِلمِ بالعِلمِ بِالنُعمى إِذِ اِتّصلَت	بِالخَصبِ إن أَجدَبوا بالري لِلصادي

(1) ابن بسام: الذخيرة، ج2، ص603؛ القضاعي: الحلة السيراء، ج2، ص31.

(2) المراكشي: المعجب، ج1، ص60؛ القضاعي: الحلة السيراء، ج2، ص33.

(3) ابن بسام: الذخيرة، ج2، ص605.

(4) الحميدي: جذوة المقتبس، ج1، ص28.

(5) ابن عذارى: البيان النغرب، ج3، ص194.

(6) القضاعي: الحلة السيراء، ج2، ص35.

(7)عنان: دولة الإسلام، ج3، ص71.

(8) ابن بسام: الذخيرة، ج2، ص57.

بالطاعِن الضارِب الرامي إذا اِقتَتَلوا بِالمَوتِ أَحمَرَ بالضرغمِ العـــــادي

بالدَهر في نِقَم بِالبَحر في نِعَـــمٍ بِالبَدرِ في ظُلَمٍ بِالصَدرِ في النادي

نَعَم هُوَ الحَقُّ وَافانـــي بِـهِ قَـــدَرٌ مِنَ السَمـــاءِ فَوافانـــي لِميعـــادِ

وَلَم أَكُن قَبلَ ذاكَ النَعشِ أَعلَمُـــهُ أَنَّ الجِبال تَهادى فَـــوقَ أَعـــــوادِ

كَفاكَ فارفُق بِما اِستودِعتَ مِن كَرَمٍ رَوّاكَ كُلُّ قَطوب البَـــرق رَعّـــادِ

يَبكي أَخاهُ الَّذي غَيَّبتَ وابِلَـــهُ تَحتَ الصَفيحِ بِدَمعٍ رائِـح غـــادي

حَتّى يَجودَكَ دَمعُ الطَلّ مُنهَمِراً مِن أَعيُن الزَهـرِ لم تَبخَـل بِإِسعـادِ

وَلا تَزالُ صَـــــلاةُ اللهِ دائِمَـــةً عَلى دَفينِكَ لا تُحصـى بِتعـــدادِ[1]

مملكة طليطلة:

من الممالك المهمة وتقع في قلب الأندلس، وتحدها ممكلة بطليوس من الشمال، وشنتمرية من الشرق، ومن الغرب سرقسطة، ومن الجنوب قرطبة، وموقعها هذا جعل لها خصومة مع طوائف الأندلس التي طمعت بها، وخاصة بني الأفطس حكام بطليوس[2]، وقد حكمها بني ذي النون، وكان أولهم الظافر اسماعيل بن ذي النون، الذي استولى على طليطلة سنة (427هـ- 1036م)، وظل إلى أن وافته المنية سنة (435هـ-1043)، وقد وسع مملكته مستعيناً بكبراء البلد، وشيوخها من أهل العلم، والعقل والدهاء، وكان محبوباً لأهل طليطلة[3].

وجاء بعده ابنه يحيى بن اسماعيل (المأمون) وسار على سنة أبيه، فأقام العدل، وكان من أشهر أعماله الاستيلاء على بلنسيا عام (457هـ-1066)[4]، وكانت فترته مليئة بالمعارك والحروب الداخلية، ودام ملكه ثلاثة وثلاثين سنةً، وتميز حكمه بالترف الشديد، والاستعانة بالنصارى في حروبه، مما شكل ذلك عاملاً من عوامل ذهاب ملكه وسقوط الأندلس[5]، وخلفه حفيده يحيى سنة (764هـ-1075م)، وتلقب بالقادر بالله وكان سيء الرأي قليل الخبرة[6]، وبشكل وبشكل عام كان بني ذي النون من ملوك الطوائف، الذين تناقصت أطراف الأندلس على أيديهم، وكانت سياستهم عامل هدم مهم من عوامل السقوط، ولا شك أن لهم صفات خير يضيق المقام بذكرها.

---

(1) المراكشي: المعجب، ص222؛ ابن الخطيب: أعلام الأعلام، ص164.

(2) عنان: دولة الإسلام، ج3، ص95.

(3) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص161.

(4) ابن بسام: الحلة السيراء، ج2، ص129.

(5) انظر ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص133.

(6) ابن الخطيب: أعلام الأعلام، ص179.

مملكة سرقسطة:

وفي عام (431هـ-1040م)، أقام بنو هود في مملكة سرقسطة، وكان أشهرهم سليمان المستعين بن هود، وكانت أشهر أعماله السياسية والعسكرية في حياته، صراعه مع المأمون بن ذي النون واستعانة كل منهما بالنصارى، حتى كادت الفتنة تقضي عليهم والمسلمين معهما([1])، وفي عهد بني هود وقعت مأساة بربشتر، التي هاجم النورمانديون فيها سرقسطة عام (456هـ - 1064م)، وأبادوا المسلمين فيها، فأقام العدو عليها أربعين يوما، ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوت لقلته، واتصل ذلك بالعدو فشدد القتال عليها وحصر أهلها، ثم دخل المدينة في خمسة آلاف مدرع([2]).

مملكة بطليوس:

وقد حكمها بنو الأفطس، وكان بداية عهدهم حروباً قائمة بينهم وبين بني عباد، وكان النصر فيها سجالاً([3])، ويعتبر عبد الله بن الأفطس مؤسسها ومن قام على توسيعها وإحكام السيطرة عليها إلى أن مات سنة (437هـ-1045م)، وجاء بعده ابنه محمد الملقب بالمظفر، ووقف على رأسها المتوكل بن الأفطس، الذي كان ملكاً عالي القدر مشهور الفضل، مثالاً في الجلالة والفضول، من أهل الرأي والحزم والبلاغة، وكانت مدينة بطليوس في مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم([4])، ظل بني الأفطس في الحكم حتى تغلب المرابطون على الأندلس، فما كان من المتوكل الأفطس، إلا الاستعانة بألفونسو السادس، فمكنه من لشبونا وشنترين وشنترة وذلك ليتقوى على المرابطين، فكان في ذلك نهاية حكمه والقضاء على دولته سنة (488هـ-1059م)([5]). وعلى شاكلة قريناتها كانت مملكة بطليوس بحكامها من بني الأفطس، نموذج من النماذج السيئة في تاريخ الأندلس، وكان عاقبة أمرهم خسراً، بما أقدم عليه المتوكل من التحالف مع ألفونسو السادس ليقضى على دولته وعلى نفسه، أن المتوكل بن الأفطس، ورغم تلك الصفات الحميدة، التي ذكرها عنه التاريخ، إلا أنه لم يتورع أن يحالف النصارى، ولم يمنعه دين ولا عقل ولا علم عن جريمة التحالف مع الأعداء، والتي كان بها ذهاب ملك المسلمين. لقد عاشت الأندلس حالة مريعة تبعث على الأسى زمن دول الطوائف، حيث تصدع بنيان ذلك الصرح الشامخ([6]).

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص377.

(2) ابن حيان: نفح الطيب، ج4، ص449.

(3) انظر ابن بسام: الذخيرة، ج3، ص20.

(4) القضاعي: الحلة السيراء، ج2، ص96.

(5) ابن بسام: الحلة السيراء، ج2، ص102.

(6) الحجي: تاريخ، ص323.

عهد المرابطين (484-520هـ / 1092-1134م)

ثم جاء عهد جديد، أعطى القوة والحيوية للأندلس، وهو عهد المرابطين والذي يمتد من سنة (484هـ- 1092/ 520هـ-1134م)، فبعد الانهيار العام الذي أصاب الأندلس في عهد الطوائف، وجه حكام الأندلس، وفقهاؤها، رسائل إلى المرابطين في المغرب ليقوموا بنصرتهم والدفاع عنهم من بطش النصارى، وقد استجاب المرابطون لتلك الدعوات، وكانوا عند حسن ظن الأندلسيون ودافعوا عنهم دفاعاً كبيراً، فالمرابطون قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين، وهم حماة المسلمين الذابّون والمجاهدون دونهم([1])، وقد حرص أمراء المرابطون على التزام القيم الإسلامية؛ التي قامت عليها دولتهم، وأخذ الناس بالحق والعدل، فاتسم حكمهم بالصدق والولاء للإسلام، وهذا حملهم على نصرة الأندلسيون وتكلفوا بأجله الكثير، وبذلوه برضى وسرور، لإعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله([2]).

أهم أمراء المرابطين:

كان يوسف بن تاشفين([3])(400هـ-1009/ 500هـ-1106م)، كثير العفو، مُقَرِباً للعلماء، سائساً حازماً([4])، وكان حليماً كريماً، يبالغ في اكرام العلماء، ويحب أهل العلم والدين([5])، وكان عند حسن ظن أهل الاندلس، فوجهوا اليه رسائل استغاثة لينصرهم، يبثون شكواهم، ويحركونه الى نصرهم([6]).

وفي سنة (478هـ -1085م) استقبل ملوك الطوائف الطالبين لعونه ومساعدته لصد هجمات النصارى عليهم، فدخل يوسف بن تاشفين الاندلس، فاستقبله الناس استقبال الفاتحين، ونزل على مقربة من الزلاقة التي ستكون أرض معركته القادمة([7]).

---

(1) ابن العربي: الحلل الموشية، ص105.

(2) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص445.

(3) اشتهر يوسف بن تاشفين بميوله نحو أهل العلم فكان يختار رجالا من أهل الفقه والقضاء لتطبيق الإسلام على الناس، كما اهتمَّ ببناء المساجد، وكان له الفضل في توحيد المسلمين بالغرب الإسلامي.

ينتمي يوسف بن تاشفين إلى قبيلة لمتونة وهي إحدى قبائل صنهاجة الموجودة بجبل لمتونة المشهور باسم أدرار بموريتانيا. ولد على الأرجح بصحراء موريتانيا ولما شب ولاه ابن عمه أمير المرابطين أبو بكر بن عمر اللمتوني قيادة الجيش المرابطي أثناء الانتفاضة البرغواطية، فزحف شمالا نحو المغرب الأقصى حيث أخضع الثائرين وبنى مدينة مراكش ثم توسع شرقا إلى أن دان له المغرب الأوسط (الجزائر) والأدنى (تونس)، توفي يوسف بن تاشفين في شهر محرم من عام 500هـ عن عمر يقارب المائة عام .(ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج4، ص24).

(4) الذهبي: سير، ج19، ص253.

(5) ابن الاثير: الكامل، ج9، ص99.

(6) ابن الخطيب: الاحاطة، ج4، ص350.

(7) ابن الاثير: الكامل، ج8، ص447؛ القضاعي: الحلة السيراء، ج2، ص100.

وفي رجب (479هـ-1086م)، كانت معركة الزلاقة التي قاد فيها يوسف المسلمين، مواجهاً الفونسو السادس وبعد معركة عنيفة؛ انتصر فيها المسلمون على النصارى، وكانت قد خاضت الخيل في الدماء وصبر الفريقان صبراً عظيماً([1])، وبعدها بعشرين عام حدثت موقعة إقليش سنة (501هـ-1107م)، والتي تولى فيها جيش المسلمين تميم بن يوسف بن تاشفين وعلى الصليبيين كان سانشو بن الفونسو السادس، الذي سحق في تلك المعركة؛ وقتل من النصارى ثلاثة وعشرون ألفاً من بينهم سانشو([2]).

في نهاية زمن المرابطين اهتم العلماء بفروع الاسلام على حساب أصوله، واتسعت الهوة بينهم وبين جماهير المسلمين وانتشرت الخمور وزيدت الضرائب، وظلم الولاة، فما أمر العلماء بالمعروف وما نهوا عن المنكر، لاعتقادهم بأن تلك الامور يجب ألا يُشغل بها المسلمون([3]).

يلاحظ بأن المرابطين كان لهم دور عظيم في عدم وقوع الأندلس وسقوطها الأخير، ولكن بعض أمرائهم وولاتهم خاصة في عهدهم الأخير، عايشوا وانسجموا مع أبهة الملك ومفاسدهم، فجرى عليهم قضاء الله سبحانه وتعالى، في ذهاب ملكهم وأفول نجمهم، وكان لدور العلماء السلبي دور كبير في ذهاب دولة المرابطين، إلى أن جاءت دولة الموحدين وذلك عام (540 – 620هـ / 1045م-1223م).

دولة الموحدين:

قامت تلك الدولة على أنقاض دولة المرابطين، واتسمت بعدة مميزات أهمها، بلوغ تلك الدولة مبلغاً عظيماً من القوة الحربية والسياسية والحضارية، مما دفع دول إسبانيا النصرانية للتحالف معها، كذلك اتسمت الدولة الموحدية بارتكازها على الإسلام في أصول سياساتها، فمن الإسلام انبثقت تنظيمات الدولة وسياساتها الإدارية وغيرها، وكذلك الإبداع في الجانب العمراني، وبناء القصور المزودة ببساتين تسقى بالنواعير، ونمو الحركة العلمية والعناية بالمؤلفات والمكتبات، وظلت على هذه الحال إلى أن كان الصراع مع بني مرين، وأدى إلى سقوطها كما سنرى([4]).

محمد بن تومرت (473هـ-1080م/ 524هـ- 1130م):

زعم بأنه من نسل علي بن أبي طالب([5])، وكان محمد ذاك بحراً متفجراً من العلم، وعلَماً في الدين([6])، وكان ابن تومرت قد صرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وبايعه

---

(1) الحميري: الروض المعطار، ص290.

(2) ابن أبي الزرع: الروض القرطاس، ص162

(3) المراكشي: المعجب، ص241.

(4) انظر الحجي: ص498-ص501.

(5) الذهبي: سير، ج19، ص253.

(6) ابن خلدون: تاريخ، ج6، ص226.

الناس على ذلك([1])، وبعد وفاة ابن تومرت سنة (524هـ–1130م) جاء عبد المؤمن بن علي، المولود في مدينة تاجرت بالمغرب، وكان أبوه صانع فخار، وقد نشأ على طلب العلم([2])، وكان حازماً، عارفاً بسياسة الرعية، فقيهاً، إستقدم اليه بعض العلماء من الأقطار وبنى مسجد اشبيلية سنة (567هـ–1171م)([3])، وقد قام عبد المؤمن بن علي بعدة معارك أهمها، ضم الأندلس الى دولة الموحدين بعدما قاتل أنصار المرابطين وانتصر عليهم سنة (545هـ – 1150م)([4])، واستطاع أن يضم المرية سنة (552هـ – 1157م)([5]).

أهــم المعـــارك فـــي عهــد الموحديـــن:

معركة الأرك (591هـ– 1195م):

وقعت تلك المعركة الخالدة عند حصن الأرك على أحد فروع نهر وادى آنة، والأرك هي نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس([6])، حيث اجتمع جيش المسلمين الذي بلغ مئتا ألف مسلم يقوده يقوده أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي([7])، وعلى جيوش النصارى كان الفونسو الثامن الذي استعان بمملكتي ليون ونفار وبلغ جيشه مئتان وخمسة وعشرون ألفاً من النصارى([8])، ودارت الدائرة على الفرنج، فقتل منهم مائة وستة وأربعون الفاً، وأسر ثلاثون الفاً([9]).

وفي آخر عهد الموحدين دارت معركة العقاب سنة (609هـ–1212م)، وفيها اشتبك الناصر لدين الله الموحدي في سهل العقاب، حيث هاجم الأذفونش المسلمين وهم على غير أهبة؛ فانهزموا وقتل من الموحدين خلق كثير([10])، ومن أسباب تلك الهزيمة مخادعة النصارى للمسلمين بإشهار الصلح والعمل ضده، حتى خالطوا المسلمين على غفلة، وأخذوهم أخذاً كبيرا([11]) وكانت السبب في هلاك الأندلس، حيث ادت الى خرابها ودارت الدائرة فيها على المسلمين([12]). وكانت

---

(1) ابن الاثير: الكامل، ج9، ص196.
(2) ابن خلدون: تاريخ، ج6، ص126.
(3) الزركلي: الاعلام، ج8، ص241.
(4) ابن الخطيب: أعلام الاعلام، ص265.
(5) ابن الاثير: الكامل، ج9، ص416.
(6) ابو خليل: الارك، ص54.
(7) الذهبي: سير، ج21، ص319.
(8) ابن الاثير: الكامل، ج10، ص237.
(9) المقري: نفح الطيب، ج1، ص443.
(10) المراكشي: المعجب، ج1 ، ص321.
(11) المقري: نفح الطيب، ج4، ص383.
(12) ابن عذارى: البيان المغرب، ص240؛ ابن الابار: التكملة، ج1، ص102.

وقعة العقاب من أعظم الهزائم التي لحقت بالمسلمين بالاندلس، وذلك لما ترتب عليها من خسائر فادحة، بعد خسارة تلك المعركة، ناهيك عمن قتل في معركة العقاب من الأعيان وأكابر العلماء([1]).

وأخيراً تناقصت الأندلس من أطرافها وتساقطت ممالكها واحدة إثر الأخرى، ووقع على الأندلس عظيم البلاء، إلى أن لاذوا بالفرار إلى مملكة غرناطة، آخر ممالك الأندلس، والتي فيها سيكون موئل المسلمين الأخير، وأخر عهود الإسلام في الأندلس.

مملكة غرناطة:

ظلت مملكة غرناطة قائمة، إلى أن تولى أمرها علي بن سعد بن محمد بن الأحمر الملقب بـ(الغالب بالله)، وهو المعروف في التاريخ الأسباني بالملك الصغير([2])، وقد اشتبك علي بن سعد (الغالب بالله) مع أخيه أبي عبد الله محمد (الزغل)، وعلى عادة ملوك الطوائف تصارع الأخوان، ثم استقويا بمملكة قشتالة وأرغون، وقامت الحرب بينهما إلى أن اتفقا على الصلح لتقسيم غرناطة بين الغالب بالله ومحمد الزغل([3])، وبعد ذلك الانقسام، أصاب غرناطة سيل عظيم، فبدأ ملك الأمير بالتقهقر والانتكاس، فاشتغل الأمير باللذات وانهمك بالشهوات، ولهى بالنساء المطربات، وأضاع الجند، حتى باعوا ثيابهم وخيلهم وآلات حربهم وأكلوا أثمانها، وقتل كثيراً من أهل الرأي، وأثقل المغارم، ونهب الأموال، ثم تزوج على زوجته وابنة عمه إمرأة رومية ليكتمل ذلك المشهد المأساوي([4]).

كان هذا حال أخر ملوك غرناطة، فهو في غيه سادر، لا يعبأ لأمر المسلمين، ولا لأمر الجهاد، ولا لوحدة البلاد، في اللحظة التي كان النصارى يتحفزوا للانقضاض على دولة الإسلام، بعد ذلك الزواج المشئوم بين فرناندو الخامس ملك أرغون، وإيزابيلا وريثة عرش قشتاله، وذلك عام (874هـ-1469م)، وبذلك تكون الدولتان قد أنهتا صراعاً قديما بينهما، وما هي إلا سنوات بسيطة حتى توحدتا في مملكة واحدة، هي مملكة إسبانيا، وكانت هذه بداية نهاية غرناطة([5]).

هناك أكثر من حلقة ناقصةً أو غامضةً أو مفقودة في فتح الأندلس، وما من شك في ذلك، لأن أحداثها خلال الفتح كثيرة، وبطولاتها نادرة، كأخواتها في أحداث الفتوحات الاسلامية الأخرى، زيادةً على عدم وضوح عدد من أحداث فتح المدن وتفاصيلها، فإنه لم تتوفر أخبار

---

(1) الحجي: التاريخ الاندلسي، ص494.

(2) عنان: دولة الاسلام، ج7، ص288.

(3) عنان: دولة الإسلام، ج7، ص194.

(4) مجهول: نبذة العهد، ص45.

(5) عنان: دولة الإسلام، ج7، ص194.

الجنود إلا ما ندر([1])، ولا شك أن فتح الأندلس معجزة في حد ذاته ولا يصدقه المرء وهو يتتبع أخبار ذلك الفتح الذي تم بتلك الدقة، علماً أن الفاتحين كانوا في معظمهم الأكثر بربراً، لم يكن لهم دراية مسبقة في النظام ولا الجيوش ولا المعاهدات، ولكن الحق أن الاسلام قد خطى بمعتنقيه خلال القرن الأول بضعة قرون إلى الأمام([2]).

---

(1) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص123.

(2) مؤنس: فجر الأندلس، ص107.

المبحث الرابع:

سقــوط الأندلس

تقلبت الأندلس بين مرحلتين متباينتين، ففي منتصف القرن الرابع الهجري وحتى أواخر ذلك القرن بلغت ذروة القوة في ظل رجال عظام كالناصر والمستنصر والحاجب المنصور، ثم بدأت تنحدر فجأة للاضطراب، والحرب الأهلية أواخر القرن الخامس الهجري ثم الأفول، وتحولت من خلافة قوية إلى دويلات متناحرة، أدت إلى طرد المسلمين من الأندلس، وكان سقوطها نتيجة طبيعية للعوامل السياسية والاجتماعية التي توالت في الحقب السابقة، والتي ظهر فيها دولة الإمارة والخلافة وصراعهما معاً، أي إلى بداية الدولة الأموية، حيث حرص زعماء بني أمية، ومنذ عبد الرحمن الداخل أن يعمل الواحد منهم بكل وسعه للاستئثار بالسلطة، وإخماد النزعة القبلية وتحطيم الزعامات والرياسات المحلية والعربية والقضاء عليها، وبلغ الصراع بين السلطة المركزية والبيوتات العربية المتسلقة ذروته في أواخر القرن الثالث الهجري، أي في عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن (275هـ - 300هـ)([1]).

ووصف ابن عذاري حالة الخلافة والحكم زمن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الحكم بعد وفاة أخوه المنذر قائلاً: أنه في (15 صفر 275هـ)، آلت إليه الخلافة وقد تحيفها النكث، ومزقها الشقاق، وحل عراها النفاق، والفتنة مستولية، والدجنة متكاثفة، والقلوب مختلفة، وعصى الجماعة متصدعة، والباطل قد أعلن، والشر قد اشتهر([2])، "وقد تمالا على أهل الإيمان حزب الشيطان، وصار الناس من ذلك في ظلماء ليل داج، لا إشراق لصباحه، ولا أُفول لنجومه، وتألب على أهل الإسلام أهل الشرك، ومن ضاهاهم من أهل الفتنة، الذين جردوا سيوفهم على أهل الإسلام، فصار أهل الإسلام بين قتيل ومحروب ومحصور، يعيش مجهودا، ويموت هزلا، قد انقطع الحرث، وكاد ينقطع النسل. فناضل الأمير بجهده، وحمى بجده، وجاهد عدو الله وعدوه. وانقطع الجهاد إلى دار الحرب، وصارت بلاد الإسلام بالأندلس هي الثغر المخوف، فكان قتال المنافقين وأشباههم أوكد بالسنة، وألزم بالضرورة"([3]).

عندما نقرأ ذلك الوصف لا نجد في أنفسنا حرج في أن نُسقط ذلك الوصف الذي كُتب في نهاية القرن الثالث للهجرة على زمن سقوط مدن الأندلس وذلك في عهد ملوك الطوائف.

---

(1) زغروت: من ذخائر التراث الإسلامي، ص426.

(2) البيان المغرب، ج1، ص191-192.

(3) البيان المغرب، ج1، ص191-192.

سقوط أهم المدن الأندلسية:

بعد موت المأمون بقرطبة، جاء حفيده القادر بن ذي النون، وكان من أفسد الأمراء خُلقاً وأسوأهم رأياً، وأتبع نفسه هواها، ومن أشنع ما فعله قتله لوزيرة القوي ابن الحديدي اثر وشاية وكان ذلك في ذي الحجة (468هـ-1075م)([1]).

كان نَفْيُ أدفونش (الفونسو السادس بن فردلند) إلى طليطلة نقمة عليها، وسببا للتعجيل بسقوط المدينة، وأشار إلى ذلك ابن الخطيب بقوله: وسكناه بطليطلة وإطلاعه على عوراتها هو الذي أوجب تملك النصارى بها، بل إنه فضلا عن انتفاعه – حين إقامته في طليطلة– من معرفة دروبها وخططها، تذكر بعض الروايات (أن الفونسو استمع ذات يوم، –وهو متظاهر بالنوم – إلى حديث المأمون مع وزرائه، في كيفية الدفاع عن طليطلة، واحتمال مهاجمة النصارى لها، واستيلائهم عليها، وكيف يمكن ذلك وبأي وسيلة، وقد أجاب بعضهم أن النصارى لا يستطيعون الاستيلاء على مدينة بمثل هذه الحصانة، إلا إذا أنفقوا سبعة أعوام على الأقل، في تخريب أحوازها وانتساف مؤنها)([2]).

وأخذ الأذفونش طليطلة من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين وكان أخذه لها في منتصف محرم سنة (478هـ-1085م)([3]).

وقد دخل الفونسو طليطلة بعد اعطائه الأمان لأهلها، وضمان حرياتهم، وعلى عادة النصارى في ذلك الزمان، لم يفِ ألفونسو بما تعهد به للمسلمين، بل قام بتغيير المسجد في ربيع أول 478هـ- 1085م([4]). وفي سقوط طليطلة نُظمت قصائد شعرية منها:

لِثُكْلِكَ كيفَ تَبْتَسِمُ الثُّغُورُ	سروراً بعدما سُبِيَتْ ثُغُورُ
لقد قُصِمَتْ ظهورٌ حين قالوا	أميرُ الكافرين له ظُهورُ
طليطُلَةٌ أباحَ الكفرُ منها	حِماها، إنَّ ذا نبأٌ كبيرُ
مَساجِدُها كنائسُ، أَيُّ قلبٍ	على هذا يَقِرُّ ولا يَطِيرُ
فيا أسفاهُ يا أسفاهُ حزناً	يُكَرَّرُ ما تَكَرَّرَتْ الدُّهُورُ
يطولُ عليَّ ليلي، رُبَّ خَطْبٍ	يَطُولُ لهَولِهِ الليلُ القَصيرُ
وقيلَ تجمَّعوا لفراقِ شملٍ	طُلَيْطُلَةٌ تملَّكها الكَفُورُ
ولا تَجْنَحْ إلى سِلمٍ وحاربْ	عسى أن يُجْبَرَ العظمُ الكَسيرُ

---

(1) ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص150؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص197.

(2) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص198.

(3) المقري: نفح الطيب، ج4، ص352.

(4) ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص168.

ونرجو أن يُتيحَ اللهُ نصراً   عليهم، إنَّـهُ نِعْمَ النصيرُ ([1])

نذكر هنا مجموعة من المدن التي سيطر عليها الفرنج وهي مدينة قرطبة، سقطت يوم السبت (23 شوال 633هـ–1235م)، ومدينة بلنسية سقطت صلحاً يوم الثلاثاء (17 صفر 636هـ–1238م)، ومدينة إشبيلية مستهل (رمضان 646هـ–1248م)([2]).

هي من أطيب البلدان وأكثرها ثماراً وبساتيناً، وبها معدن الملح الذي لا يوجد مثله في مكان، استولى عليها النصارى صلحاً من أيدي المسلمين سنة (512هـ–1118م)([3])، بعد حصارها تسعة أشهر، وقد خرج اليها الأفرنج في خمسين ألف راكب([4])، وذلك بعد أن تولى الحاجب عماد الدولة أبو مروان عبد الملك بن أحمد، وكان قد شرط عليه أهل سرقسطة ألا يستخدم الروم، ولا يلابسهم، فنقض عهدهم بعد أيام يسيرة؛ وذلك لخوفه من المرابطين الذين مال الناس اليهم، وتحصن الحاجب عماد الدولة بحصن روطة واستدعى أهل سرقسطة محمد بن الحاج اللمتوني والي بلنسية، فمكنوه من المدينة سنة (503هـ–1109م)، وبعد قصص طويلة تغلب الروم عليها([5]).

سقطت جزيرة ميورقة (627هـ– 1230م)، بيد جيوش أرجون، وملكها جايمش بن بطره بن جايمش، وأمعنوا في أهلها سفكاً رافضين الصلح([6])، ولقد كان سقوطها حدثاً صعباً ومؤلماً لذلك سُميت في التاريخ (الحادثة العظمى من قِبل الروم)أو (الحادثة الشنعاء)([7])، وكان من شأنها شأنها أن تحرك الطاغية (جايمش) إلى ميورقة عازماً عليها، فنزل بأسطوله (626هـ–1231م)، فأراها القتال وشدة الحصار، والقتل والسبي، ثم أخذ واليها ابن يحيى وعذبه أشد العذاب حتى مات، واستولى الشرك على الجزيرة في عام (627هـ–1229م)([8])، ولما رأي ابن سيري أن العدو العدو قد استولى على البلد خرج الى البادية، ويوم الجمعة الحادي عشر من صفر قاتلوا قتالاً شديداً، ولما كان يوم الأحد أُخذ البلد وأُخذ منه أربعة وعشرون ألفاً قتلوا على دم واحد، وعذب الوالي وبعد خمسة وأربعون يوماً مات من التعذيب([9]).

---

(1) المقري: نفح الطيب، ج4، ص483.

(2) النويري: نهاية الأرب، ج24، ص212.

(3) المقري: نفح الطيب، ج4، ص472؛ ابن الآبار: التكملة،ج1، ص39.

(4) الحميري: الروض المعطار،ج1، ص317؛ الحميري: صفة جزيرة الأندلس، ج1، ص98.

(5) القضاعي: الحلة السيراء، ج2، ص248.

(6) ابن عذارى: المغرب، ج2، ص466؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص383.

(7) ابن الآبَّار: التكلمة، ج2، ص624.

(8) ابن عذارى: المغرب، ج2، ص467؛ الحميري: الروض المعطار، ص19.

(9) المقري: نفح الطيب، ج4، ص470.

قرطبة حاضرة الأندلس الكبرى، وعاصمة الغرب الإسلامي، التي أفاضت خلال القرون على من وما حولها بركة ونور، خلال ما يزيد على خمسة قرون، وكانت مثوى للفضل والمعرفة، ومرتوى للطلبة والعلماء، وموطناً من مواطن النجدة والفروسية، ومنتجعاً للقادمين إليها، كما كانت ثغر جهاد ورباط دعوة([1])، ولم تزل قرطبة في الزيادة منذ الفتح الإسلامي إلى سنة أربعمائة فانحطت، واستولى عليها الخراب بكثرة الفتن إلى أن كانت الطامة الكبرى عليها بأخذ العدو لها 13 شوال سنة (633هـ-1236م)([2]).

استغاث ابن هود بابن الأحمر، ولكن الأخير كان منشغلاً بحربه، فسقطت قرطبة ولم يجد أهلها بُدًّا من الإذعان والتسليم والخروج من قُرْطُبَة.

ولقد جاهدت قرطبة جهاداً طويلاً، وبذلت جهود عظيمة ضد جيوش قشتالة بقيادة فِرّانده بن ألفنش، ولكنها اضطرت للتسليم، وكان بعض الغلاة ممن صحب ملك قشتاله من الأحبار والأشراف يرون رفض التسليم، واقتحام المدينة، وقتل كل أهلها المسلمين، ولكن ملك قشتالة ومعه فريق آخر من مستشاريه؛ كان يرى أن هذا الإجراء قد يدفع أهل المدينة إلى اليأس، وتخريب المدينة ومسجدها الجامع، وتحطيم سائر ذخائرها وثرواتها([3])، وحُولّ مسجد قرطبة الجامع إلى كنيسة([4]). ويعتبر سقوط بلنسية من أكثر المشاهد الموجعة للقلب، علماً أن كل سقوط مدن الأندلس كان يدمي القلب. ففي سنة (631هـ -1233م)، أصدر البابا جريجوري الثاني مرسومه بإصباغ الصفة الصليبية على الحروب التي ستشن من أجل إسقاط بلنسية([5])

لقد سقطت بلنسية بعدما حاصرها جاقم البرشلوني من (5 رمضان سنة 635هـ-1237م/ 17 صفر سنة 636هـ-1238م)، وفي ذلك اليوم خرج أمير بلنسية زيان بن مدافع الجذامي من المدينة، معه أهل بيته ووجوه الجند، وكان قد اتفق مع جاقم على تسليم البلد سلماً، وينتقل بأهله وأمواله، وبعد العقد بدأ زياد بن مدافع (أبو جميل) بإخراج ضعفاء الناس، قاصدين نواحي دانية من جهة البحر والبر، وفي 27 من صفر خرج زياد بن مدافع وأهله، وطائفة صغيرة كانت معه، ليستولي الروم بذلك على بلنسية([6])، لقد كان حصار بلنسية شديداًحيث عدمت الأقوات، وكثر الهلاك من الجوع حتى استسلمت لملك أرغون في صفر سنة (636هـ-1239م)([7]).

---

(1) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص472.

(2) المقري: نفح الطيب، ج1، ص458؛ القضاعي: الحلة السيراء، ج1، ص44.

(3) عنان: عهد المرابطين والموحدين، ج2، ص424.

(4) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص472.

(5) عنان: عهد المرابطين والموحدين، ج2، ص424.

(6) القضاعي: الحلة السيراء، ج2، ص127.

(7) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص388.

وغادر بلنسية كثير من أهلها المسلمين، واحتل النصارى دورهم وأحيائهم، وفي محنة بلنسية يقول الشاعر المعاصر أبو إسحاق ابن خفاجة:

عاثت بساحتك العــدا يــا دارُ ومحا محاسنك البِلَى و النارُ

فإذا تردّد في جنابــك ناظـــر طال اعتبارٌ فيكِ و استعبارُ

أرض تقاذفت الخطوبُ بأهلها وتمخّضت بخرابها الأقدارُ

كتبتْ يدُ الحَدَثان في عَرَصاتها لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ ([1])

ثم استسلمت مرسية صلحاً لجايمش ملك أرغون سنة (664هـ-1266م)، حيث دخلها بجيشه ولم يرعى في المسلمين عهدا ولا أدنى حد لإنسانية، وقد تركها أهلها بعدما أخذوا الأمان وخرجوا للرشاقة، فسكنوها عشرة أعوام، إلى أن كان من أمرهم ما كان، حيث أخرجوهم في سنة (673هـ-1275م)، وغدروهم في الطريق أجمعين، بموضع يُعرف بروكال، فسبوا النساء والأطفال، وقتلوا جميع الرجال، وقد كانوا أخرجوهم بالأمان دون سلاح، فتحكموا فيهم كيف شاؤوا بالسيوف والرماح([2]).

وكذلك تجرع أهل إشبيلية كثيرا من الأذى ونالهم الأسى، وأشد ما عانوه رحيلهم عنها، يجللهم النكد، ويفريهم فراق البلد، وعدد المسلمين الذين تركوا اشبيلية يقدر بأربع مئة ألف([3]) انتشروا في مدن الأندلس، في شهر رمضان من العام نفسه، قد تجرع أهلها كأس الحمام، من كثرة المجاعة وعدم الطعام، فسلموا لهم المدينة وخرج منها الخاص والعام([4])، وبعد جهاد طويل وحصار استمر سنة ونصف من (ربيع أول 645هـ-1247م)، حتى آخر سنة (646هـ-1248م) اضطرت المدينة للتسليم بشروط منها: رحيل أهلها المسلمين عنها([5]).

ذهبت إشبيلية ذات التاريخ المجيد، والفن والعمران وموطن العلماء والشجعان، صاحبة الشرف الكريم([6]) عروساً في حُلتها، أسيرة لطخت بالدماء، تندب حاميها الطعين، وتزفر من آلامها وهي أرملة ولود؛ وهكذا سقطت في يد ملوك أسبانيا الشمالية ومن ساعدهم من الصليبيين عدد من قواعد الأندلس([7]).

---

(1) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص100؛ الحميري: الروض المعطار، ج1، ص97.

(2) ابن عذارى: بيان المغرب، ج3، ص438.

(3) عنان: عهد المرابطين، ج2، ص486.

(4) ابن عذارى: بيان المغرب، ج3، ص385.

(5) ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص383.

(6) الحميري: الروض المعطار، ج19، ص101.

(7) ابن خلدون: العبر، ج4، ص368.

سقوط غرناطة (897هـ- 1491م) والحصار:

عندما نزل ملك قشتالة بغرناطة بنى بها صوراً كبيراً سماها شنتفي، وأخذ يهدم القرى ويستعين بأنقاضها في البناء، وكان في تلك الفترة يقاتل المسلمين ويقاتلهم قتالاً شديداً، وقد حارب ملك الروم القرى المحيطة بغرناطة، وأخذها جميعاً الا قرية الفخار، واستعمل الحيلة مرة، والقتال الشديد مرات، وذلك ليسيطر عليها فلم يستطع، وقتل من الروم الكثير، حيث أن المسلمين دافعوا عنها باستماتة خوفاً من وقوعها، فتكون سبباً في اخلاء قرى الجبل، وبقتال المسلمين ذلك قصر عنها العدو لكثرة قتلاه([1])، ولم تزل الحرب متصلة بين المسلمين والنصارى كل يوم، في معظم البلاد التي على غرناطة، وفي كل ملحمة من تلك الملاحم يُثخَن كثير من الفرسان المسلمين بالجراحات ويستشهد آخرون، ويقتل من النصارى أضعاف ذلك، والمسلمون فوق ذلك صابرون محتسبون واثقون، وظلت الحرب متصلة بين الطرفين سبعة أشهر حتى فنيت خيل المسلمين بالقتل، ورجالهم بالاستشهاد([2]).

وفي تلك المدة رحل كثير من الناس إلى بلاد البشرة، لما أصابهم من الجوع والخوف، ومن بقي من الفرسان والأعيان أبلغوا أميرهم محمد بن علي بأنهم قد راسلوا أهل المغرب، ليمدوهم بالجند وينصروهم بالجند ، فلم يستجيبوا لهم، وطلبوا من أميرهم أن يطلب الأمان، وكان مما قالوا للأمير محمد بن علي: بعثنا لإخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب، فلم يأتنا أحد منهم، لنصرتنا وإغاثتنا، وعدونا يزداد قوة، ونحن نزداد ضعفاً، والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا مدد لنا، فإن تكلمنا معه الآن قبل منا وأعطانا كل ما نطلب منه، وإن بقينا حتى يدخل فصل الربيع تجتمع عليه جيوشه، ولا نأمن نحن على أنفسنا من الغلبة ولا على بلدنا منه([3]).

اتفاق التسليم:

وفي ربيع الأول من سنة (897هـ-1492م)، استولى النصارى على الحمراء، ودخلوها بعد أن أخذوا من أهل غرناطة خمسمائة من الأعيان رهناً خوف الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، وإقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدا، وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي، ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم، وأن يَفتك جميع

---

(1) مجهول: نبذة العهد، ص118-119، المقري: نفح الطيب، ج4، ص472.

(2) الناصري: الاستقصا، ج4، ص104؛ مجهول: نبذة العهد، ص119-120.

(3) المقري: نفح الطيب، ج4، ص525؛ مجهول: نبذة العهد، ص120-122.

من أُسر في غرناطة من حيث كانوا([1])، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع، وان لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله، ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام أقر عليه، ولا يعاتب من قتل نصرانياً أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور ولا ينظر على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدا من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنا في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ويُترکون من المغارم سنين معلومة، وان يوافق على كل الشروط صاحب روما([2]). وكان الاستيلاء على مدينة غرناطة في (محرم 897هـ- 1491م)([3])، وقد وقعت معاهدة تسليم غرناطة بين حاكمها المتخاذل أبو عبد الله محمد وملك قشتالة في (21 محرم 897هـ- 25 تشرين الثاني 1491م)([4]).

ويلاحظ بأن المدن الأندلسية سابقة الذكر، ما هي إلا نموذجاً لباقي مدن الأندلس قاطبة، قد سقطت تباعاً وإنفرط عقدها وتناثرت لآلِئُها، دون أن يمد أحدٌ لها يد العون لأن حكامها كانوا بين موالٍ للروم الإفرنج، وبين مشتبك مع أخيه المسلم، والكل غارق في حمأٍ لا يرضى الله عنها، إلى أن سقطت الأندلس، وخرجت بشهودها الحضاري وإبداعها الإنساني، من نور الإسلام إلى عتمة الفرنجة، الذين قاموا بتدمير كل معالم الحضارة، وأمارات المدنية، التي بناها المسلمون على مدار ثمانية قرون.

---

(1) الناصري: الاستقصاء، ج41، ص104.

(2) المقري: نفح الطيب، ج4، ص526؛ الناصري: الاستقصاء، ج41، ص104.

(3) المقري: نفح الطيب، ج6، ص22.

(4) مجهول: نبذة العهد، ص39.

الفصل الأول:

الانحـراف عـن الشريعـة

المبحث الأول: شيوع المنكرات.

المبحث الثانـي: الموالاة لغير المسلمين.

المبحث الثالث: علاقة الحكام بالعلماء.

المبحث الرابع: تولية غير المسلمين.

المبحث الأول

شيوع المنكرات

إن المتتبع للحضارات عبر التاريخ، يلاحظ بأن أحد أسباب سقوطها واندثارها، شيوع المنكرات، وانتشار الرذائل، فمهما تبلغ قوة الدولة، وقوة ملوكها وجيوشها، ومهما تمتد عبر الزمان، إلا أنها ستؤول إلى الخراب إذا ما خالفت سنة الله عز وجل، ويذكر الله عز وجل في كتابه قصة عاد، وثمود، وفرعون، كنماذج نستدل بها للتدليل على ما نقول، حيث قال تعالى " ألم تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العِماد التي لم يُخْلَقْ مِثْلُها في البِلادِ وثَمودَ الذينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالوادِ وفِرْعَونَ ذِي الأَوْتادِ الذين طَغَوْا في البِلادِ فأَكْثَرُوا فيها الفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَاب إنّ رَبَّكَ لَبالمِرْصَادِ"([1])، فهذه الآيات من أصدق ما يقال حول دمار الحضارات، إذا ما انتشر فيها الفساد، وعمها الظلم، فإن عذاب الله واقع بهم.

فإذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات، وانتحال الرذائل سلوك طرقها، فتفقد الفضائل السياسية منهم، وما تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل بهم سواهم([2])، وقول ابن خلدون السابق ينسجم مع قول الله تعالى: (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم)([3]).

وليست الأمة الإسلامية بمنأى عن هذه السنن الكونية، فمنذ نزول الرسالة على رسول الله ﷺ والدولة الإسلامية تأخذ بأسباب القيام فتقوم ثم تحيد عنها فيحدث الضعف ثم السقوط([4]).

وذكر بن حيان سبباً مهماً لسقوط الأندلس فقال: "خبثت ضمائرهم، فاحتوى عليها الجهل واقتطعهم الزيف، وأركستهم الذنوب، وفصمهم العيوب، فليسوا في سبيل الرشد بأتقياء ولا على معاني الغي بأقوياء([5]).

وتلك السنن الكونية التي يتحدث عنها علماء الاجتماع في صعود وهبوط الأمم ذكرها الله في كتابه العزيز قائلا:" **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**"([6])، معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمرا قدريا، وقالوا: معناه: أنه سخرهم إلى

---

(1) الفجر: أية 6-14.

(2) ابن خلدون: مقدمة بن خلدون، ج1، ص144

(3) سورة محمد: أية 38.

(4) السرجاني: قصة الأندلس، ج2، ص716.

(5) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص189.

(6) سورة الاسراء: أية 16.

فعل الفواحش فاستحقوا العذاب. وقيل: معناه: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة([1]).

شرب الخمر:

وأول ما يطالعنا في شيوع المنكرات في الأندلس انتشار الخمر التي فيها قال سبحانه وتعالى: "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ**"([2])، فقد غزت المجتمع الأندلسي على مستوى الخاصة، ممثلة بالأمراء والقضاة والأعيان، وعلى مستوى العامة أيضا، فقد أصبحت الخمر سمة للمجتمع الأندلسي في بعض عصوره خاصة بعد أفول نجم الدولة الأموية منها وحضور عهد الدويلات، وأصبح الشعراء الذين يمثلون لسان المجتمع ومرآته يتغنون بها، ويتنافسون في نظم القصائد وصفا لها، ناسين أو متناسين قول الله الآنف.

لقد كان انتشار الخمر وشربها أحد أسباب وقعة الربض بقرطبة، وذلك سنة (198هـ-814م)، وسببها أن الحكم بن هشام الأموي كثير التشاغل بالشرب واللهو، فصار الناس يتعرضون لجنده بالسب والأذى، وكانوا ينادونه عند انقضاء الآذان الصلاة يا مخمور الصلاة([3]).

يرى الباحث أن ما سبق ذكره حمل دلالة خطيرة، تمثلت بالوقت المبكر الذي كان فيه الخمر منتشرا في الأندلس، حيث لم يمض على قيامها قرن وبضع سنين، ثم إن الخمر انتشرت في قرطبة وهي حاضرة الأندلس وقصبتها، كما أن شاربها كان الحكم بن هشام (رأس الدولة) آنذاك، ولكن بارقة الأمل كمنت في العامة الذين أعابوا على الأمير شربه ولهوه، وبفضلهم حفظت الدولة واستمرت، وكان يقود أولئك العامة الفقهاء بطبيعة الحال والعلماء، وهذا يدلل على أن الخمر لم يكن منتشراً بشكل كبير، في ذلك الزمان.

وفي ذكر خاصة القوم ومعاقرتهم للخمر، نقف عند محمد بن سعيد المعروف بابن السليم، وكان عاملاً للخليفة عبد الرحمن الناصر، فأخذ السليم مالاً كثيرا لا يحق له، فقال الناصر :"وددت أن أشق رأس من غل مالا كثيرا دوننا، فعلم بن السليم بأنه المقصود، فبرر للناصر ما أخذه، ثم أمعن في الشرب طلبا للسكر هرباً من خوفه، فقال له الناصر: "خفف عليك يا محمد، فلا سبيل إليك، فلما سكر بن السليم وقذف ما في جوفه، أقبل الناصر (الخليفة) وأخذ برأسه يمسكه، ويقول له تأنى بنفسك واستفرغ ما في معدتك، فما تمالك بن السليم إلا أن خرَ إلى قدمي الناصر يقبلهما([4]).

---

(1) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج3، ص33.

(2) المائدة: أية 90.

(3) المغربي، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج5، ص413؛ النويري: نهاية الأرب، ج23، ص217.

(4)ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص240.

يتضح أن خليفة المؤمنين الناصر والقائم بأمر الله بحق، يرى أحد خاصته ينتهك حرمة الله جهاراً، كان الأولى أن يؤدبه بدلاً من أن يدلله، ولربما كان سكوت ولاة الأمر عن الخمر قد شجع العامة والخاصة عليه، وكان مجلس عبد الملك بن منصور بن أبي عامر المتوفى (399هـ- 912م)، يُشرب فيه الخمر، ويُعاب على من لا يشرب حيث كان عيسى وزيراً لعبد الملك ولا يحضر مجلس شراب عبد الملك إلا في الندرة، أو الدعوة، فاستعفاه من ذلك لضعف شربه([1])، وفي مجلس المأمون بن ذي النون الذي حكم طليطلة من (435هـ-467هـ)، إكراماً لضيوفه وزواره من الأمراء ورجال دولته، الذين يحضرون للتنعم بلهوه والاستماع للأغاني في مجلسه، كان يحضر لهم الخمر، مبالغةً في تأنيسهم([2]).

والأصعب من شرب الأمراء للخمر في مجالسهم سكوت ومشاركة بعض الزهاد لهم في مجالس لهوهم، حيث كان أبو الحسن جعفر بن إبراهيم الحاج اللورقي، قد بذل الجهد في التحلي بالزهد، فأعطي له كأس خمر فأنشد أبو الحسن مرتجلا:

ومهفهفٍ مزج الفتور بشـــــدة	وأقــام بيـــن تبــذلٍ وتمنـــع
يثنيه من فعل المُدامة والصبــا	سكران: سكـــر طبيعةٍ وتصنع
والله لو لا أن يقال هوى الهوى	منه بفضـــل عزيمـــةٍ وتمنـع
لأخذت في تلك السبيل بمأخذي	فيما مضى ونزعت فيها منزعي([3])

إن النص السابق يظهر بوضوح رضا ذلك المتزهد، عن ذلك المجلس الفاجر، والذي يُشرب فيه الخمر، بل وإنه كما في أخر بيتين يظهر محبته بأن يرجع للخمر؛ ولكنه يخشى الناس ولا يخشى الله عز وجل، ولا شك أن تلك حالة نجد أمثالها كثيراً، ولكننا لن نعدم أن نجد زهاد ربانيين، وعلماء يأمرون بالمعروف كما سيمر معنا، والذين بهم استمر المسلمون ينعمون بالأندلس، واستمرت الأندلس تنعم بالإسلام.

وقد انتشر ذكر الخمر على لسان الشعراء، وكان لأولئك الشعراء دور في نشر الخمر، من خلال قصائدهم المادحة له، ومن خلال هيامهم به في ما ينضمون، فقد كان محمد بن عبد العزيز العتبي من نبهاء الشعراء في دولة الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة (263هـ-877م)، وكان مخصوصاً بالقاسم بن الأمير محمد بن عبد الرحمن، ومن حكاياته أن القاسم بن الأمير محمد (المعروف بابن غزلان)، ناوله قدحاً كبيراً من الخمر ليشربه، فقام الشاعر واقفاً وصب القدح في حلقه من غير أن يباشر شفة الكأس، فأمر القاسم بملئ الكأس دنانير ومنحها له([4]).

---

(1) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص125.

(2) ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص135.

(3) الازدي: بدائع البادئة، ج1، ص97؛ المقري: نفح الطيب، ج3، ص258.

(4) الكتاني: التشبيهات، ج1، ص303.

فأنشد الشاعر العتبي:

إذا نفخ النسيم فقم وباكر رياض النهر والإنداء

تهمي ولا تشرب بنات الكرم إلا على روض ندن وبنات كرم([1]).

يُلاحظ بأن ابن الأمير كان من خاصته شاعراً سكيراً، يعاقر الخمر بأمرٍ من ابن الخليفة، ويشجعه عليها، ويعطيه على شربها الدنانير.

ثم يأتي شاعرٌ آخرٌ هو الأديب الطبيب أبو الأصبغ عبد العزيز البطليوسي الملقب بالقلندر، وصف بأنه معاقر للمُدام، ومن شعره:

جرت مني الخمر مجرى دمي فجل حياتي من سكرها

ومهما دجت ظلمات الهموم فتمزيقها بسنا بدرها

وكان يقول: أنا أولى الناس بألا أترك الخمر، لأني طبيب أحبها عن علم بمقدار منفعتها، فخرج يوماً سكران، فلقيه قاضٍ قبيح الصورة فأمر بأخذه، فقال للقاضي: بفضل من ولاك على المسلمين رغم وجهك القبيح تفض عليَّ واتركني، فتركه القاضي ودرأ عنه الحد([2]).

ثم يأتي المعتضد بن عباد أمير إشبيلية وشاعرها (440- 499هـ= 1049-1106م) الذي قال في الخمر:

اشرب على وجه الصباح وانظر إلى نور الأقاح

واعلم بأنك جاهل ما لم تقل بالإصطباح

فالدهر شيئ بارد إن لم تسخنه براح([3])

كما قال أبو الحسن علي بن عطية البلنسي المعروف بابن الزقاق، واشتهر بمدح الأكابر وجود النظم:

وحبب إلي يوم السبت عندي إنه ينادمني فيه الذي أنا أحببت

ومن أعجب الأشياء أني مسلم حنيف ولكن خير أيام السبت

ثم قال في موضع آخر:

أديراها على الزهر الندي فحكم الصبح في الظلماء ماض

وكأس الراح تنظر عن حباب ينوب لنا عن الحدق المراضي([4])

وقال أيضا:

سقتني بيمناها وفيها لم أزل يجاذبني من ذاك أو هذه سكر

---

(1) المغربي: المغرب، ج1، ص134.

(2) السيوطي: المغرب في حلى المغرب، ج1، ص369، المقري: نفح الطيب، ج3، ص452.

(3) ابن بسام: الذخيرة، ج3، ص30.

(4) الأصبهاني: خريدة القصر، ج15، ص565.

ترشفت فاها إذ ترشفت كأسها   فلا والهوى لم أدري أيهما الخمر ([1])

تلك طائفة من شعراء الأندلس كانوا في عصور مختلفة، تظهر بوضوح الإقبال على تلك المعصية، التي تعد أم الخبائث، وما يصاحبها من فجور، تلك المعصية ميزت إلى حد ما أزماناً في الأندلس.

أسلفنا القول بأن الخاصة من أهل الأندلس من الخلفاء والأمراء والشعراء وعليّة القوم كانوا يعاقرون الخمر، ويعطون عليها العطايا، ولذلك قلدهم العامة، حيث ذكر المقري واصفاً أهل إشبيلية فقال بعد أن ذكر محاسنها، التي حباها الله بها عمن سواها، من اعتدال هواء وحسن مباني وزينة: "حتى قالت العامة لو طلب لبن الطير في إشبيلية وجد، ثم يصف ضفة نهرها الأعظم بأنه لا يخلو من مسرّة، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر، لا ناهي عن ذلك ولا منتقد، ما لم يؤدي السكر إلى شرٍ وعربدة"([2]).

يرى الباحث أن لسان الحال –عند المقري– يغني عن المقال، حيث وصل الأمر إلى أن يُشرب الخمر على ضفاف النهر الأعظم دون أن يتمعر له وجوه القوم.

وكان للخمر حانات خاصة، أشار إليها الغزال المتوفى (250هـ– 864م)، من خلال أشعاره المسمى بالخمريات، كانت تلك الحانات للسكر والتسامر، وفيها قال الغزال:

وكنت إذا ما الشرب أكدت سماؤهم   تأبطت زقي واحتضنت عنائي

ولما أتيت الحـــــان نبهـت أهلــه   فهب خفيف الروح نحو ندائي

قليـــل هجـــوع الليـــل إلا تعلــةً   على وجل مني ومن نظرائي([3])

ولشدة انتشار الخمر وشربها بين العامة، حاول بعض علماء الأندلس وفقهائها منعها، فعملوا على محاربتها، من خلال التوجه إلى المستنصر المتوفى (366هـ– 976م)، حيث كرّهوا له شرب الخمر([4])، واستجاب الحكم المستنصر لدعوة الفقهاء، وأمر بإراقتها في كل الأندلس، وتشدد في ذلك، حتى بدت له فكرة استئصال شجرة العنب من الأندلس، ولكنه لم يفعل([5]).

وهذا يدلل على أن شرب الخمر رغم انتشاره، بين بعض الناس، إلا أنه كان مُستنكراً، ووجد من يحاربه، سواء من الفقهاء، أو من الحكام الأمناء على الأمة.

---

(1) الكتبي: فوات الوفيات، ج2، ص110.

(2) المقري: نفح الطيب، ج3، ص213، ابن حزم والشقندي: فضائل الأندلس، ج1، ص51.

(3) الحميدي: جذوة المقتبس، ص201.

(4) ابن حزم: فضائل الأندلس، ص53.

(5) النويري: نهاية الأرب، ج23، ص234.

وفي التدليل على انتشار الخمر بين العامة قام بن جهور المتوفى سنة (462هـ- 1070م)، وهو من ملوك الطوائف، بمحاربة الخمر وعزم على إهراقها، فأمر بكسر جرار الخمر، فمدحه بن زيدون المتوفى (463هـ- 1071م)، فقال:

أباح حمى الخمر الخبيثة حائطاً   حمى الدين من أن يستباح له حد

فوق باستئصالها المصر منةً   يكاد يؤدي شكرها الحجر الصلد

كما مدحه عبد الرحمن بن سعيد المصغر فقال:

كسرت لجبر الدين أوعية الخمر   فأحرزت خصل السبق في الكسر والجبر

عمدت إلى الشر الذي جمعوا له   ففرقت منه فاسترحنا من الشر([1])

ولكن الغريب في الأمر أن الشاعر بن زيدون والذي مدح بن جهور لمحاربته للخمر، كان يغشى المجالس التي فيها شرب الخمر، بل وكان يشرب الخمر مع ولادَه بنت محمد المستكفي، وقد وقع بينهما موجدة، منعهما من الإستمتاع بالسكر واللهو، فقال بن زيدون بذلك: "فبتنا على العتاب في غير اصطحاب، ودم المدام مسفوك، ومأخذ اللهو متروك"([2]).

يلاحظ بأن انتشار الخمر في مختلف العصور التي مرت بها الأندلس، كان من عوامل سقوطها لأسباب عديدة أهمها:

1- إن شرب الخمر معصية لله، ولا ينصر الله العصاة ولا يؤيدهم، بل يسلط عليهم أسباب الزوال والدمار.
2- إن الخمر تعبث بالعقل وتفسده، وتجعل من أصحابها أناس لاهين، لا يحسنون شيئاً من أمورهم، ولا يدبرون أمراً، إذا كانوا ولاة أمر، ولا يثبتون في ميادين الجهاد، إذا كانوا جنوداً.
3- والخمر كما هي معروفة في ديننا أم الخبائث، فإذا سكر المرء يمكن أن يفعل كل الكبائر والموبقات.

ولا بد من الإشارة إلى أن التاريخ الأندلسي كان حافلاً بالذين رفضوا تلك الظاهرة وحاربوها، سواء من العلماء أو الأمراء أو عامة الناس، ورغم ذلك استمر الخمر عبر سنين حكم المسلمين للأندلس، إلى أن كان عاملاً من عوامل سقوطها.

عشق الغلمان

كانت فاحشة عشق الغلمان والتغزل بهم ظاهرة في الأندلس، وقد ساعد على شيوعها وانتشارها طبيعة الحياة اللاهية للأندلسيين، وكثرة أسواق النخاسة التي تباع فيها الجواري

(1) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص389.

(2) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص431.

والغلمان، وأيضا خاض خاصة القوم في مثل هذا الفحش، غير عابئين بالحفاظ على هيبتهم، فأقدموا على ذلك الغزل الشاذ بالغلمان([1])، وقد أشار ابن بسام إلى قضية الغلمان في المجتمع الأندلسي وعشقهم، وإن الناس فيها على طريقين، منهم المادح الراغب في الغلمان، ومنهم الذام لهم، وتفننوا في ذلك نثراً ونظماً([2]).

وكانت تلك الفاحشة قد ألمت ببعض الخلفاء، حيث كان الخليفة الأموي محمد بن هشام بن عبد الجبار (المهدي) والمتوفى (400هـ–1010م) يعشق غلاماً، وقد أهدى اليه الغلام قضيباً من آس فقال المهدي فيه شعراً:

أهديت شبه قوامك المياس	غصنا رضيبا ناعماً من آس([3])
وكأنما يحكيك في حركاته	وكأنما تحكيه في الأنفاس([4])

وكان أبو العلاء بن زهر ([5]) أحد الشعراء الذين يمثلون نموذجا لعشاق الغلمان فقال:

محي أثر النهار فأضحـــــى	بدر تم وكان شمس نهار
كان يعشي العيون ناراً إلى أن	أشغل الله خده بالعــــذار ([6]).

وقال متغزلاً:

يا من كلفت به و ذلت عزتي	لغرامه وهو العزيز القاهـــر
رمت التصبر عندما ألقى الجفا	ويقول ذاك الحسن مالك ناصر
ما الجاه إلا جاه من ملك القوى	وأطاعه قلب عزيـز قـــادر ([7])

وكذلك أبو الصلت أمية بن عبد العزيز ([8])، الذي مزق أستار الحياء من الله وهو يتغزل ماجناً في غلام، وكان بجانبه في المسجد فما راعى حرمةً في مسجدٍ ولا وقاراً لدينٍ فقال:

صلى إلى جنبي من لم يزل	يصلى به قلبي نار الجحيم

---

(1) نوفل: شعر الأطباء في الأندلس، ص15.

(2) الذخيرة، ج1، ص144.

(3) الآس شجر ورقه العطر الواحدة بالهاء والآس شيء من العسل تقول أصبنا آسا من العسل (الفراهيدي: العين، ج7، ص331).

(4) المقري: نفح الطيب، ج1، ص577.

(5) هو أبو العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد بن مروان مشهور بالحذق والمعرفة في صناعة الطب وإطلاعه على دقائقها، وكانت له نوادر في مداواته المرضى ومعرفته لأحوالهم، وما يجدونه من الآلام من غير أن يسألهم، بل عندما يجس نبضهم (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج1، ص517).

(6) المقري: نفح الطيب، ج3، ص468.

(7) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج1، ص551.

(8) أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت، كان أوحد زمانه، متبحرا في العلوم، يحسن إنشاء المنثور والمنظوم، نساباً في علم الأوائل، وسكن ثغر الإسكندرية توفي سنة 526هـ (الاصبهاني: خريدة العصر، ج16، ص223).

ثم تغزل بغلام اسمه جوشن وهو من الوافدين إلى الأندلس، فقال شغوفا به:

حيرت صبري جوشنا لما رمت نحوي بأسهمها لوحظ جوشن

ولقــد رميـــت بأسهــم لكنني لم أقتل من سهام الأعين([1])

وواصل ذلك المستهتر بالفضيلة تغزله بغلامٍ له فقال فيه:

ما بال ذا الورد بخديـــــك قد أينع للقطف ولم يقطـف

وما لفيك العذب لم يلتثـــم وريقك المعسول لم يرشـــف

يا موقد بالهجر في أضلعي ناراً بغير الوصل ما تنطفي

إن لم يكن وصل فعدني به رضيت بالوعد وإن لم تفي([2])

ولربما الأخطر في تلك الآفة، ما ذكر عن عالم من أجل العلماء في تاريخنا، وهو الإمام ابن حزم المتوفى (456هـ-1064م)، إذ يروى عنه أنه كان يوماً بسكة الحطابين مع صديقهِ أبو عمر في مدينة إشبيلية، فلقيهما شابٌ جميل، فأبدى ابن حزم إعجابه بجماله، فقال صاحبه: "يا ابن حزم لم نرَ سوى الوجه، وما تحت الثياب غير ذلك"([3]).

ويلاحظ أن عشق الغلمان الذي انتشر في بلاد الأندلس كان بين كثير من شرائح المجتمع، فنراه في الخلفاء، وبعض الفقهاء وكثيرٍ من الشعراء، وكثيرٍ من العامةِ أيضاً، ولكن آخر تلك الفئات هي فئة العلماء والفقهاء؛ لأنهم يمثلون أماناً للأمة، وجداراً يحفظ أخلاقها، فإذا ما فسدوا فسدت الأمة ومن فيها.

التنافس على الجواري:

لم يكن اقتناء الجواري في الإسلام أمرا منكراً، بل له فيه أصل، وسمي باسم ملك اليمين، حيث قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾([4])، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ...﴾([5])، ولكن الأمر تجاوز حدوده في الأندلس ليصبح للجواري شأن عظيم وخطر جليل، وليصل الأمر ببعضهن إلى محاولة اغتيال الأمراء، ناهيك عن دورهن في الإلهاء عن كثير من الأمور العظيمة، التي ينبغي أن يُصرف إليها الجهد، وأول ما يطالعنا الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام (الأوسط) (277هـ- 890م)، الذي كان مشتهراً بكثير من الخصال الحميدة التي تليق بأمير للمؤمنين، وكان له عدة جواري

---

(1) الأصفهاني: خريدة القصر، ج13، ص357، ابن أبي السلط: ديوان الحكم، ج1، ص939.

(2) الأصفهاني: خريدة القصر، ج13، ص239.

(3) المقري: نفح الطيب، ج2، ص83.

(4) سورة المؤمنون: أية 5-6.

(5) سورة النساء: أية 3.

أحظاهن عنده "طروب"، وكان مغرما بها، فهجرته في غرفتها، فأمر ببناء الباب بأكياس من الدراهم استرضاء لها، فلما فتحت الباب تساقطت الدراهم فأخذتها، وكانت نحوا من عشرين ألفاً، ثم أمر لها بعقد قيمته عشرة آلاف دينار، فأعظم بعض وزرائه الأمر، فقال الأمير عبد الرحمن إن لابسه أنفس منه خطراً وأرفع قدراً([1]).

وليت تلك الجارية حفظت الود لذاك الخليفة، الذي خصها بما لا يخص غيرها به، بل حاولت اغتياله، وذلك بعدما أرادت جعل ابنها وليا للعهد، ففشلت في إقناع الأمير بذلك، فتآمرت مع نصر قائد الحرس، والمتصرف في شئون البلاد يومها، على قتل الأمير وولده محمد، ليخلو لها الجو، فأعد نصر سماً زعافاً وقدمه شراباً للأمير، وتنبه الأمير عبد الرحمن لذلك، وعلم بالمكيدة من خلال الطبيب الذي أعطى نصراً السم، وكان ذلك الطبيب عراقي يُعرف بالحراني، فما كان من عبد الرحمن إلا أن طلب من نصر أن يشرب الشراب قبله، فشربه وهلك، ونجا الخليفة عبد الرحمن (الأوسط)، ورغم اطلاع الأمير على خيوط المؤامرة التي حاكتها طروب مع نصر إلا أنه لم يعنفها أو يحاسبها وذلك لهيامه بها([2]).

ولشغفه بالنساء فقد أكثر من الجواري في قصره، وكانت عنده جارية أحبها تسمى "مدثرة"، وثالثة اسمها "الشفاء"، وله أخرى اسمها "القلم"، كانت أديبة حسنة الخط حافظة للأخبار، وكان مولعاً بسماع الأغاني مؤثرا له على جميع لذاته([3]).

وكذلك كان القاضي بن عباد([4]) على تجرده في إحكام التدبير لسلطانه ذا كلف بالنساء، فاستوسع في اتخاذهن وخلط في أجناسهن، وانتهى إلى ما لم يبلغه أحد من نظرائه، وقيل أنه خلف من صنوف الجواري سبعين جارية، ففشى نسل بن عباد لتوسعه في النكاح، وكان له من الذكور عشرين ومثلهم من الإناث([5]).

---

(1) ابن عذاري: بيان المغرب، ج13، ص179.

(2) المقري: نفح الطيب، ج1، ص350.

(3) ابن الاثير: الكامل، ج6، ص117.

(4) القاضي أبو الوليد إسماعيل بن عبَّاد بن عمر، تولَّى مناصب مهمة للخليفة الحكم المستنصر بالله، وكذلك تولَّى للمنصور بن أبي عامر وتولَّى القضاء في إشبيلية، وعُرِفَ بحسن سيرته، وقد مدحه المؤرخ ابن حيان القرطبي، ووصفه بالدهاء وكثرة العلم ووفرة العقل، وتوفي عام 410 هـ (النباهي: تاريخ قضاة الاندلس، ج1، ص94؛ الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 387-388).

(5) ابن بسام: الذخيرة، ج3، ص29.

ولنا وقفة أخرى مع الأمراء والجواري فهذا حال المعتمد بن عباد([1]) صاحب إشبيلية الذي هام حبا بالرميكية التي كانت سريته، وكان شراها من رميك بن حجاج فأفرط في الميل إليها وغلبت عليه، وسماها اعتماد، واختار لنفسه لقبا يناسب اسمها وهو المعتمد، وتوفيت قبل المعتمد بأغمات([2])، وبعد وفاتها لم يرقا للمعتمد عبره أو دمعه، ولا فارقته حسرة، حتى قضى نحبه بعدها بأيام([3]).

وكان من شأنه مع سريته الرميكية أنه خلى بها يوماً في مجلس أُنس والجو حار، فتمنت عليه غيما ومطراً، فأمر بمجامر العنبر والعود والند، حتى انعقد الدخان كالضباب ثم أمر برش صحن المجلس بمياه الورد من أعلاه، فحصل المطر الذي تمنته جاريته زوجته([4]).

ثم انشد بها شعراً وبدأ كل بيت منها بحرف من اسمها فقال:

أغائبة الشخص عن ناظري	وحاضرة في صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون	ودمع الشؤون وقدر السهاد
تملكت مني صعب المرام	وصادفت من سهل القياد
مرادي أعياك في كل حين	فياليت أني أعطى مرادي
أقيمي على العهد في بيننا	ولا تستحيلي لطول البعاد
دسست اسمك الحلو في طيه	وألفت فيك حروف اعتماد([5]).

ومن الأمور العجيبة ما ذكره التاريخ عن الحرب، التي استعرت بين المظفر والمعتضد سنة (442هـ-1050م)، فبعد أن دوخ المعتضد بن المظفر في حرب داخلية، أهلك حرث ونسل المسلمين، أرسل بن المظفر رسله إلى قرطبة، لشراء وصائف ملهيات من الجواري يأنس بهن، وذلك لينفي الشماتة عن نفسه بعد هزيمته، فشرى له رسوله صبيتين ملهيتين بقرطبة، ولم يستطع الوصول للمظفر لكثرة جيش المعتضد، فاستعرت الحرب من جديد؛ وذلك لأن المعتضد أراد اجتذاب جارية عبد الرحيم الوزير في قرطبة بعد وفاته، وقد علم أن تلك الجارية حاذقة في صنعتها، فقلده المظفر وشابهه في إظهار الفراغ وطلب الملهيات، فتطاول ذانك الأميران في

(1) هو أبو القاسم محمد الملقب بالمعتمد بن أبي عمرو عباد الملقب بالمعتضد بن إسماعيل بن محمد، وولد المعتمد بمدينة باجة سنة 431هـ، وولي سنة إحدى وستين بإشبيلية وخلع سنة أربع وثمانين وتوفي بأغمات سنة ثمان وثمانين(الاصبهاني: خريدة القصر، ج14، ص25).

(2) النويري: نهاية الإرب، ج1، ص140.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج4، ص428.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج4، ص482

(5) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص61.

الغي، وتباريا في القطيعة حتى أفنيا كثيراً من المسلمين، إلى أن أصلح بينهما بن جهور أمير قرطبة في ربيع أول سنة (443هـ-1051م)([1]).

وكان مجاهد المنتزى من غلمان ابن أبي عامر (327 هـ-938 م/ 392 هـ-1002م)([2])، تولى دانية الجزائر الشرقية، وتميز بأنه فتى أمراء دهره، وأديب ملوك عصره، وكان عالماً بالقرآن، ورغم انشغاله بالحرب إلا أنه زاد في علمه، وكان زاهداً في الشعر منكراً على منشديه، فاقصر الشعراء عن مدحه، والعجيب أن مجاهداً رغم بره وتقواه ألا أنه كان خليعاً فاتكاً؛ لا يُساتر من لهوٍ ولا لذة، ولا يستفيق من شرب وبطالة، ولا يأنس بشيء من الجد والحقيقة، وتلك اكثر أحواله التخليط في أمره من ناسك معتكف، إلى فاجرٍ خليع([3]).

يرى الباحث بأن مجاهد المنتزى يُعتبر قاصمة ظهرٍ في دولة الأندلس، لعدة أسباب أهمها، أن فجوره الشخصي كان يؤثر على سير الجهاد وأمور الدولة التي كان فيها، وكذلك موقف الدولة ورجالها منه موقف الصامتين، فلا يحاسبه أو يعاتبه أحد على ما يفعل، ولسان الحال يقول إذا كان خاصة القوم على هذه الحال فكيف سيكون المآل.

وفي إهدار المال على الجواري فعل ملك شنتمريه، هذيل بن خلف بن لب بن رزين البربري المتوفي (436هـ- 1044م)، من أكثر الملوك همة في اقتناء الجواري، فشرى جارية الطيب أبي عبد الله الكناني بثلاثة ألاف دينار، وشرى كثيراً من الجواري الحسان المشهورات بالتعري، وطلبهن من كل جهة([4])، وكان أبناء الملوك كآبائهم مع الجواري، حيث أحيوا قصص غرامٍ مع الجواري، وفي إحداها روى القاضي يونس بن عبد الله المتوفى (419هـ- 1028م)، قصة مفادها أن فتى من أبناء الملوك أحب جاريةً وأحبته، فتراسلا، وكان رسول هواهما فتىً من أترابه، وعندما عرضت الجارية للبيع أراد ابن الملوك شراءها، فسبقه رسوله إليها، وفي إحدى الأيام دخل اليها، وهي تفتش في أحد أدراجها، فأخرج كتاباً من الذي يهواها، وكان مضمخاً بالطيب، محفوظاً مكرماً فقال لها: من أين هذا يا فاسقة؟ قالت: أنت سقته إلي، فقال: لعله محدث بعد ذلك الحين، فقالت: ما هو إلا من قديم تلك التي تعرف، قال: فكأنما ألقمته حجر، فسقط في يده وسكت([5]).

---

(1) ابن بسام: الذخيرة، ج3، ص36.

(2) الملك المنصور ، حاجب الممالك الأندلسية ، أبو عامر ، محمد بن عبد الله بن أبي عامر محمد بن وليد القحطاني المعافري القرطبي، القائم بأعباء دولة الخليفة المرواني المؤيد بالله هشام بن الحكم أمير الأندلس (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ص16).

(3) ابن بسام: الذخيرة ، ج5، ص24.

(4) ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص308.

(5) ابن حزم: طوق الحمامة، ص214.

يلاحظ مما سبق بأن حال الملوك المسلمين في الأندلس يلفت النظر، بهيامهم وعشقهم للجواري، ومنحهم الأموال العظيمة من أجلهن، ومما لا شك فيه بأن تلك الأموال التي أهدرت عليهن، كانت تمثل سقطةً من سقطات الأندلس، هذا من الناحيةِ الاقتصادية، وأما من الناحية الأخلاقية، فمقام الملوك والخلفاء أجلّ وأكبر من أن يُتبعوا نفوسهم هواها، ويلهثوا خلف الجواري الغانيات، اللاتي ستصرفهم لا محالة عن شؤون الدولة، وتصريف أمورها، والسؤال الذي يطرح نفسه إذا كانت سلطة الجواري ونفوذهن قد بلغت هذا المبلغ في عِليّة القوم من الملوك والأمراء والقادة، فما بال حال عامة أهل الأندلس؟!.

وفي فساد نساء النخبة الحاكمة، يأتي ذكر ولاّدة، بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر عبد الرحمن بن محمد المرواني (366هـ-976م / 416هـ-1025م)، فقد كانت أديبة شاعرة، تخالط الشعراء، وتساجل الأدباء وتفوق البدعاء، وكانت حسنة المنظر والمخبر، ولها مجلس في قرطبة، يتهالك الشعراء والكتاب إليه، وذلك لحلاوة عشرتها، ولسهولة حجابها، وقد قال فيها القائلون همزاً ولمزاً لقلة مبالاتها، ومجاهرتها للذاتها، فهي التي كتبت على ثوبها:

أنــا والله أصلــح للمعالـــي	وأمشي مشيتي أتيــه تيهــا
وأمكن عاشقي من صحن خدي	وأعطي قبلتي من يشتهيها([1]).

ناهيك عن مراسلاتها إلى ذي الوزارتين أبي الوليد أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن زيدون المخزومي القرطبي، والتي بعثت فيها قائلة:

ترقب إذا جن الظـــلام زيارتي	فإنـــي قد رأيــت الليــل أكــتم للســر
وبي منك ما لو كان بالبدر ما	بدى وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر([2]).

ومما سبق ذكره يتضح بأن شيوع المنكرات، قد أصاب الملوك والأمراء والشعراء، والعامة بعمومها، وكذلك الخاصة، فشرب الخمر وعشق الغلمان، والتنافس على الجواري كلها أمور كانت مدمرة لحضارة الأندلس وهذا أمرٌ في منتهى العدل، فلا يمكن أن تقوم قائمة لمجتمع يرتع فيه الفساد، ويقل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتتهتك فيه أستار الفضيلة، ويصدق على حال الأندلس قوله سبحانه وتعالى: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)([3]).

---

(1) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص24.

(2) الكلبي: المطرب، ج1، ص2.

(3) سورة القصص: أية 58.

المبحث الثاني

الموالاة لغير المسلمين

قبل الحديث عن صور وأشكال موالاة حكام الأندلس للنصارى، وكيف شكّل ذلك معولاً من معاول الهدم الحضاري للأندلس، لابد أن نقف عند قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)**([1])، قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية العظيمة: "إن الولاية تبني على الوفاق والوئام والصلة، وليس أولئك -النصارى- بأهل الولاية للمسلمين لبعد ما بين الأخلاق الدينية ولإضمارهم الكيد للمسلمين، وجرد النهي هنا عن التعليل والتوجيه اكتفاء بما تقدم،والسبب الداعي لعدم موالاتهم هو اختلاف الدين، والنفرة الناشئة عن تكذيبهم رسالة محمد ﷺ وقوله تعالي: **(وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)**([2])، أن كل من يتولاهم يصير واحداً منهم، يعني أن ولايتهم دخول في ملتهم، وقال ابن عطية: من تولاهم بأفعاله من العضد ونحوه دون معتقدهم ولا إخلال بالإيمان فهو في المقت والمذمة الواقعة عليهم، واتفق علماء أهل السنة على أن ما دون الرضى بالكفر، وممالاتهم عليه من الولاية لا يوجب الخروج من الرقعة الإسلامية، ولكنه ضلال عظيم([3]).

لقد بلغت موالاة النصارى والتحالف معهم والثقة بهم، مبلغاً عظيماً في تاريخ الاندلس، إلى أن اضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء، والحب والبغض في الله، بل كادت تلك المعاني أن تندثر، وعندما تقوم أمة الإسلام بهذا الفعل المخالف لأمر الله فإن سخطه ونقمته سبحانه ستحل على الأمة **(لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيءْ)**([4])، بل ضعف منهم الولاء والبراء حتى استعمل بعض حكام المسلمين نصارى ويهود يصرّفون أمور دول الإسلام([5]).

لقد كان للإفرنج سلطة قوية قريبة من الأندلس، يتخوفون من الدولة النامية، خاصة بعد أن رأوا الحاكم الجديد عبد الرحمن الداخل(113هـ-731م/ 172هـ-788م) يقضي على كل الجيوب، ويُظهر الأندلس كقوة متماسكة، علماً بأن سياسة الإفرنج نحو الأندلس غير سليمة قبل عبد الرحمن الداخل، ولا تترك أي فرصة لإضعاف الأندلس إلا واستغلتها، ثم حرضت العصاة داخل الأندلس إما بتأييدهم أو بمدهم بوسائل التمرد([6]).

---

(1) سورة المائدة: آية 5.

(2) سورة المائدة: آية 5.

(3) تفسير التحرير، ج6، ص230.

(4) سورة آل عمران: آية 228.

(5) الصلابي: الجوهر اليقين، ص81.

(6) حجي: التاريخ الأندلسي، ص219.

الاستعانة بشارلمان (151هـ- 768م/ 199هـ/ 814م):

قد يظن البعض بأن الاستعانة تأتي بين طرفين متعادلين، وأنه لا بأس بها في معايير السياسة، ولكن فيما يتعلق بالوضع في الأندلس فالوضع مختلف، حيث كانت الاستعانة من أمراء وملوك ضعاف، يتقوى بعضهم ضد بعض، مما مثلت تلك الاستعانة شكلاً من أشكال الموالاة والتبعية بين القوى والضعيف.

ففي عام (158هـ-775م)، أرسل عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) قائده ثعلبة بن عبيد الجذامي لتأديب بعض الثوار (المتمردين)، ولكنه هُزم([1])، تلك الهزيمة شجعت بعض المتمردين على رأسهم سليمان بن يقظان الأعرابي والي برشلونة، وحليفه الحسين بن يحيى الأنصاري والي سرقسطة، ليثوروا على عبد الرحمن الداخل مستغلين تلك الهزيمة التي زادت من حماسهم([2])، ولمعرفة أولئك المتمردين بقوة عبد الرحمن الداخل وبأسه، فقد استعانوا بألد أعداء الإسلام الملك شارلمان الكارولنجي (151هـ- 768م/ 199هـ/ 814م)، لينصرهم على حاكم المسلمين في الأندلس([3]).

وكان شارمان قد استدعى سليمان بن يقظان الأعرابي الكلبي والي سرقسطة والحسين بن يحيى الأنصاري([4])، وقد ذهب سليمان ومعه وفد، ولكن لا يعرف كم عددهم وما هي اسماؤهم، ولم يُعرف من قاد أو شارك في الوفد الذاهب لدعوة شارلمان لمهاجمة الأندلس([5]).

وكان أن خرج سليمان بن يقظان الكلبي مع قارلة (شارلمان) ملك الإفرنج من سنة (125هـ - 742-814م)، إلى بلاد المسلمين من الأندلس، بعد أن لقيه بالطريق فسار معه إلى سرقسطة، فسبقه إليها الحسين بن يحيى الأنصاري، وامتنع بها فاتهم شارلمان سليمان بالغدر؛ فقبض عليه، وأخذه معه إلى بلاده، فلما ابتعد عن بلاد المسلمين واطمأن؛ هجم عليه مطروح وعيشون أبنا سليمان في أصحابهما، فاستنقضا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة، واتفقوا على خلاف عبد الرحمن([6]).

مما سبق يتضح بأن العلاقة بين بعض حكام الأندلس وبين أعداء الاسلام كانت باكرة جداً، حيث حصلت زمن عبد الرحمن الداخل (مؤسس الدولة الأول في الأندلس) وتلك العلاقة ستؤسس لهذا المنهج الذي لا يرضاه الله لعباده، ولا تقبله المروءة، ولا تقبله شريعة الإسلام.

---

(1) مجهول: أخبار مجموعة، ص84.

(2) الفقي: تاريخ المغرب والأندلس، ص74.

(3) نوار: نظرات في تاريخ المغرب والأندلس، ص161.

(4) المقري: نفح الطيب، ج3، ص48.

(5) حجي: التاريخ الأندلسي، ص223.

(6) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص213.

ثورة طليطلة (238هـ-852م):

لم يقتصر التحالف مع الفرنجة وأعداء الإسلام على بعض الولاة والأمراء، بل تعداه ليشمل بعض المدن بأكملها تقريباً، فقد حصل تمرد عام في طليطلة وذلك سنة (238هـ-852م)، في زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (238هـ-852م/273هـ-886م)، فاستعان أهل طليطلة بأُردون بن أذفونش صاحب جِلّيقية؛ فأمدهم بجمع عظيم من النصارى، فلما عرف الأمير محمد بذلك أعمل الحيلة والكيد، واستشعر العزم، فعبأ الجيوش وكمن الكمائن، والتقى الجمعان، فخرجت الكمائن من ناحية وادي سليط، وتواترت الخيل حتى غشيت الأعداء وأصبحت كظل الجبال، فانهزم أهل طليطلة وحلفاؤهم من النصارى، فقتل معظمهم وأبيد جمعهم، وكان قتلاهم نحواً من عشرين ألفاً([1]).

يرى الباحث واستناداً إلى آية الموالاة الكريمة في بداية المبحث بأن طلب النصرة من قِبل أهل طليطلة في تمردهم من النصارى، هي صورة واضحة من صور الموالاة، والتي دونها تسيل الدماء وتزهق الأرواح، ولربما أن أخطر ما في هذا المشهد أن تلك الموالاة كانت من عامة أهل طليطلة ومن معظمهم، رغم أنها لم تتكرر كثيراً في تاريخ الأندلس، إلا أنها تعتبر انتكاسة دينية وسياسية تتضافر مع أشكال الموالاة للنصارى وكان فيها خراب الأندلس وضياعها.

الاستعانة بالأذفونش بن أردون (255هـ-869م/297هـ-910م):

ومن أشكال الموالاة السافرة بين الأمراء في الأندلس والفرنجة ما فعله عبد الرحمن بن مروان الجليقي الذي لجأ الى أذفونش بن أردون سنة (262هـ-876م)، ووجد الجليقي عنده الترحيب والإهتمام، واستعمله ليضعف قوة الأندلس ويشجع المتمردين أمثاله، وقد اشتبك الجليقي مع إحدى صوائف المسلمين المتجهة إلى الشمال والتي كان يقودها المنذر بن الامير محمد، وكان قد تجمع مع المنذر 700 فارس، وبعد قتال شديد تمكن المسلمون من المشركين بالقتل والجراح، ولكن ابن مروان الجليقي طلب النجدة من أذفونش الثالث، فأمده بالجند فحمل الجليقي بجند أذفونش؛ فهلك من تلك الرابطة الكثير([2])، وفي عام (263هـ-877م)، أرسل الأمير ابنه المنذر مرة أخرى لقتال ابن مروان، ففر ابن مروان، ولجأ إلى ألفونسو الثالث، كما أرسل له الأمير في عام (272هـ-886م)، حملة أخرى لقتاله، بقيادة ابنه عبد الله ووزيره هاشم بن عبد العزيز([3]).

ومن المتحالفين مع النصارى، المنذر بن يحيى التجيبي الذي حكم سنة (408هـ- 1017م)، وبقى في حكمه حتى (420هـ - 1029م)، وأثناء حكمه هادن النصارى،

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص94؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص350.

(2) ابن حيان: المقتبس، ج2، ص384؛ ابن الأثير: الكامل، ج6، ص273.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص105.

ليأمن غارتهم وعواقب هجماتهم على الأندلس، فوطد علاقته مع ملوكهم وأمرائهم، خاصة أمير برشلونة وملك نافار سان شو (الكبير)، وألفونسو الخامس ملك ليون، وبالغ في علاقته معهم لدرجة أنه أقام حفلاً في قصره، احتفالاً بمصاهرةٍ بين سان شو وريمون، وحضره أهل الملتين من فقهاء المسلمين وقساوسة النصارى، فاتهمه الناس بالخيانة([1]).

وقد رد إمام الأندلس ابن حزم على أمثال تلك المبررات التي اتكأ عليها أولئك الأمراء فقال: "فهذا أمرٌ قد امتَحن اللهُ بهِ، نسأل الله السلامة، وهي فتنة أهلكت الأديان، إلا من وقى الله تعالى، وكان كل حاكم في الأندلس في زماننا محارب لله ورسوله، وساعي في الأرض بفساد، كل غرضهم أن يدوم أمرهم ونهيهم"، وكان رأي ابن حزم هذا عبارة عن فتوى صدع بها ضد ملوك الطوائف عندما سئُل عنها([2]).

يرى الباحث بأن المبررات التي سيقت في تحالف المنذر مع الملوك والأمراء النصارى، والمتمثلة بأمن شرهم، غير مقبولة شرعاً ولا عرفاً، للآية الكريمة التي ذكرناها في مطلع مبحثنا، ثم إن الظاهر من الرواية بأن العلاقة التي قامت بين المنذر وحلفائه تعدت تلك المبررات، لدرجة أن حوّل بلاط أمير المسلمين، إلى مكان تُقام فيه أفراح حلفاءه، وكان الأولى به أن يتحالف مع الأمراء المسلمين في تلك الحقبة السوداء من تاريخ الأندلس، ليأمن شر النصارى، والأدهى من ذلك أن هذا السقوط لم يكن على مستوى الأمير، بل شهد عليه فقهاء المسلمين شهادة زورٍ على هذا الأمر، الذي لا يرضاه الله، وهذا يدل على أن الأمير وطائفة من العلماء قد سقطوا في وهدةِ التحالف مع النصارى.

وفي معارك المأمون بن ذي النون (431هـ-1039م/468هـ-1074م) مع سليمان المستعين بن هود صاحب سرقسطة، بعث سليمان بن هود جيشاً ولى عليه ابنه أحمد، ودخل وادي الحجارة من أعمال طليطلة التابعة لأبن ذي النون سنة (436هـ -1044م)، فأسرع اليه المأمون بن ذي النون ودارت بينه وبين أحمد بن هود معارك طاحنة فر على إثرها المأمون وتبعه أحمد بجيشه وحاصره في مدينة طلبيرة الواقعة غرب طليطلة، ثم جاء الخبر من سليمان بن هود الى ابن احمد بأن يرجع عن طلبيرة ويفك الحصار؛ فنجا المأمون من موت محقق، وبعد تلك الهزيمة المنكرة وهلاك معظم جيش ابن ذي النون، استعان بالنصارى فلجأ الى فرناندو الاول ملك قشتالة، مقابل أن يدفع له الجزية فاستجاب فرناندو لطلبه، وأمده بالجيوش التي اندحر امامها سليمان بن هود([3])، فرد بن هود بأن استعان هو الأخر بالنصارى على المأمون، وبعث فرناندو

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص175؛ ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص180.

(2) عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج3، ص238

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص277.

ملك قشتالة بالهداية والتحف، فاستجاب فرناندو له، وبعث بسراياه فعاثت فساداً وتخريباً في طليطلة حتى وصلت إلى وادي الحجارة من جديد([1]).

بعدما أصبح ابن عباد –أمير إشبيلية– أقوى أمراء الأَنْدَلُس، تخوَّف المأمون بن ذو النون أمير طُلَيْطِلَة من قُوَّة ابن عباد أمير إشبيلية، فحاول التحالف مع زوج ابنته عبد الملك المظفر حاكم بلنسية فرفض ذلك، فما كان من المأمون إلا أن تحول إلى أعداء المسلمين، فعقد حلفًا مع فرديناند الأول صاحب قشتالة، وهجمت القوات المشتركة المتحالفة (قوات المأمون وفرديناند الأول) على بلنسية، فسقطت ولاية بلنسية كلُّها في يد المأمون في سنة (457هـ– 1065م)، عاد بعدها إلى طُلَيْطِلَة ليجهز قواته لقتال ابن عباد، وحال بينه وبين ما أراد وفاة فرديناند الأول([2]).

اعتاد المؤرخون أن يتكلموا عن سقوط المدن الإسلامية إذا احتلها أعداء الإسلام، وهنا يرى الباحث بأنه لا بد من استعمال كلمة "سقوط بلنسية" وذلك رغم سيطرة أمير مسلم عليها، وهو المأمون، ولكن سيطرته تلك كانت بعد تحالفه مع أعداء الإسلام، ورأس الكفار آنذاك فرديناند الأول ملك قشتالة.

وفي ذات السياق قام المعتمد ابن عباد([3])، فأرسل وزيره ابن عمار إلى عاصمة قشتالة يومئذٍ، وتحالف مع ألفونسو، وتعهَّد ملك قشتالة بمعاونة أمير إشبيلية بالجند والمرتزقة ضد جميع المُسْلِمين، ويتعهَّدُ ابن عباد مقابل ذلك أن يدفع إلى ملك قشتالة جزية كبيرة، وتعهَّدَ بألا يتعرض لألفونسو في افتتاح طُلَيْطِلَة، وهكذا ضحى ابن عباد بمعقل المسلمين إسبانيا المسلمة، لكي يفوز ببسط سيادته على الإمارات التي لم تخضع له بعد، وهى إمارات غرناطة وبطليوس وسرقسطة([4]). وكذلك كان هناك تحالفات بين بن الأفطس والفرنج، حيث راسل المتوكل بن الأفطس سنة (460هـ – 1067م)([5])، (الفونسو السادس) وأعطاه كل من شنترين وشنتره لشبونه، مقابل أن يعينه ضد المرابطين، مما زهد الناس به فانحرفوا عنه، وراسلوا سير بن أبي بكر قائد المرابطين سنة (488هـ – 1059م)، فدخل ابن أبي بكر بطليوس فاعتصم المتوكل ومن معه بقلعتها، ولم يستطع الفونسوا نصرة المتوكل بن الأفطس، وبعد أن دخل (المرابطون) بطليوس قبضوا على المتوكل ابن الافطس وولديه، وذهبوا بهم إلى إشبيليه، ثم أمروا المتوكل أن يجهز

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص282.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص311؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص266.

(3) وولد المعتمد بمدينة باجة سنة 431هـ، وولي سنة إحدى وستين بإشبيلية وخلع سنة أربع وثمانين وتوفي بأغمات سنة ثمان وثمانين، الأصبهاني: جريدة القصر وجريدة العصر، ج 14، ص 25.

(4) مجهول: الحلل الموشية، ص55.

(5) المتوكل: هو عمر بن المنصور يحيي بن الأفطس، كان مشهوراً بالفضل، من أهل الرأي، وكانت مدينة بطليوس في مدته دار أدب وشعر وعلم، ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص96.

نفسه للموت، فقدم ولداه أولاً فقُتلا، ثم قام بعدهما يصلي ركعتين فطعنوه بالرماح، واختلط كلامه في صلاته ففاضت روحه وغربت شمسه([1])، وكان قتلهم يوم الأضحى سنة (489هـ-1060م)، بسبب محالفتهم للطاغية ألفونسو السادس، ووعده لهم، أن يملكهم مدينة بطليوس([2])، وفي طريق موالاة النصارى تقدم المنصور ابن المتوكل ابن الأفطس، بالسير على خطى أبيه، فبعدما علم بما حل بأبيه وأخويه صار إلى ملك قشتالة وأقام عنده وقيل أنه تنصر([3]).

يلاحظ أن سلطان بني الافطس قد أفل نجمه ولكن بصفحة سوداء، سجلت في التاريخ لتكون عبرة للاجيال، خاصة وأنا رأينا أن مآل ابن الأفطس كان الخسران لنفسه ولأولاده، فقد توزع أبناؤه ما بين قتيل لمحالفتهم للنصارى، وبين تارك لدين الإسلام متنصراً، كل ذلك من أجل متاع زائل صب في النهاية في خدمة أعداء المسلمين وتدمير دولة الإسلام في الاندلس.

تحالف عماد الدولة بن هود مع النصارى:

ولى المستعين بن هود ابنه عماد الدولة ليكون من بعده، فلما مات المستعين وخلفه ابنه عماد الدولة، بايعه أهل سرقسطه بشرط ألا يستعمل الروم، ولا يحالفهم، ولكن عماد الدولة سرعان ما استعان بالنصارى، لاستشعاره ميل الناس الى الملثمين (المرابطين)، ثم أقام بحصن روطه، فغضب الناس وبعثوا الى المرابطين الذين استجابوا لندائهم بعد أن أفتى الفقهاء بذلك فدخلها المرابطون سنة (503هـ-1120م)، لتطوى صفحة بني هود في سرقسطه([4])، وكان قد أجاز الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين سنة (493هـ-1110م)، واقتحم معظم عامة الأندلس من أيدي ملوك الطوائف ولم يبق منها إلا سرقسطة في يد المستعين بن هود معتصماً بالنصارى([5]).

يرى الباحث بأن بارقات الأمل، والحس الديني عند بعض أهل الأندلس وبعض الفقهاء لم يكن ميتاً، وهو أمر طبيعي قد رأيناه من خلال اشتراط أهل سرقسطة على عماد الدين ألا يحالف أو يستعمل النصارى، وهذا هو الأصل عند من سكنت نخوة الإسلام قلبه، وكذلك نرى ما يقر العين عند بعض الفقهاء الذين أفتوا بأن تتحرك كتائب المرابطين (الملثمين)، لمواجه النصارى.

---

(1) الكلبي: المطرب، ص 26، ابن الآبار: الحلة، ج2، ص102؛ الإحاطة في أخبار غرناطة، ج4، ص46.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ج6، ص250.

(3) ابن الخطيب: أعمال الأعمال، ص186.

(4) الاصطخري: المسالك والممالك،ج1، ص17؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص163.

(5) ابن خلدون: المقدمة، ج6، ص250.

ولم يكن عبد الله بن بلقين (471هـ-1079م) ([1])، والي غرناطة بأحسن حال من بعض المتحالفين مع النصارى، حيث أرسل وزيره سماجة الصنهاجي، إلى ملك قشتالة الفونسو السادس، واستعان به على المعتمد بن عباد مقابل أن يدفع جزية مقدارها عشرين ألف دينار لألفونسو، فوافق ملك قشتالة على ذلك، وخرج عبد الله بن بلقين ومعه جند غرناطة ومن حالفهم من جند النصارى القشتاليين، وهجم على إشبيلية، وأفسد فيها واسترد حصن قبره الواقع في الجنوب الغربي لجيان([2])، وفي الحرب التي كانت بين شعيب بن هلالة ضد ابن هود سنة (625هـ-1228م)، في بلبله، صالح ابن هود الأذفونش على محاصرة بلبله، ومعاونته على أن يعطيه قرطبة (حاضرة الإسلام والأندلس)، واتفقا على ذلك، ومن عظيم ولاء ابن هود وخيانته، أنه قد وضع الخطة للأدفونش حتى يدخل قرطبة، فقال للأدفونش: لا يصح أن يدخل الفرنج على البديهة بل تُهمَل أمرها وتخليها من الحرس؛ ثم وجِه أنت الفرنج ليتعلقوا بأسوارها بالليل ويغدروا بها، ففعلوا ذلك، ثم وجه ابن هود الى واليه بقرطبة فأعلمه بذلك؛ فجاء الفرنج فوجدوها خاليةً فوضعوا السلالم واستولوا على السور([3])، ثم دخل الفرنج -على أثر تلك الخُطة المحكمة التي وضعها ابن هود الموالي للإفرنج- وانتشروا وهرب الناس إلى البلد، وقتل خلق من الشيوخ والولدان والنساء، ونُهب للناس ما لا يحصى، وانحصرت المدينة بالخلق، وحاصرهم الفرنجة شهوراً، وانعدم أهلها الأقوات، ومات خلق كثير جوعاً، إلى أن اتفقوا مع الأدفونش على أن يسلموا المدينة، ويخرجوا بأمتعتهم كلها ففعل، وكان ذلك في سنة (634هـ-1237)([4]).

ويلاحظ أنه بعد دخول المرابطين وأفول نجم بني هود إنتهت المعارك بين من يفترض أنهم إخوة في العقيدة، ولكنهم نسوا ذلك وحالفوا أعداؤهم من النصارى ليكون الخاسر الأول المسلمون عموماً في دولة الإسلام (الأندلس)، ثم أولئك الأمراء العابثون بأمة من أعرق الأمم ومن دين من أعظم الأديان ومن حضارة إنسانية كانت الأروع وأرقى على مدار التاريخ، ليذهب من يريد الاعتبار إلى صفحات التاريخ فيجدها قد اسودت من مآسي ومخازي أولئك الأمراء دون أن يرحمهم أو يحابيهم التاريخ أبدا وصدق الله العظيم القائل في كتابة : "**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**"([5]).

---

(1) بعد وفاة باديس بن حبوس عام 465 هـ، اتفق شيوخ صنهاجة على تولية حفيده عبد الله بن بلقين، وكان عند توليه الحكم صبياً، فتولى تدبير شئون دولته وزيره سماجة الذي كان من شيوخ صنهاجة (عنان: دولة الإسلام، ج2، ص142).

(2) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص234.

(3) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص36-37.

(4) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج23، ص21-22.

(5) سورة يوسف: أية 111.

كما ويلاحظ بأن ذكر تلك التحالفات والموالاة التي قامت بين مجموعة الأمراء والملوك المسلمين من جهة، مع أمراء الفرنجة، واقتصرت على ما سبق ذكره، لأنها تعتبر نماذج من أهم التحالفات التي قامت في دولة الأندلس، مع التأكيد على أن المقام لا يتسع في هذا البحث لذكر كل التحالفات التي قامت بين أمراء المسلمين وأعدائهم.

المبحث الثالث

علاقة الحكام بالعلماء

لا شك بأن الحديث عن علماء الإسلام بشكل عام حديث ذو شجون، لأنهم وعلى مدار تاريخهم كانوا إما عونا للحاكم والسلطان على الخير، وإما بطانة سوء، وفي هذا المقام تكلم ابن حيان الأندلسي كلاماً واضحاً لا غبش عليه، ولا مراء فيه نقله عنه المقري فقال: "ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا صنفين هم كالملح فيهم، الأمراء والفقهاء، فبصلاحهم يصلحون –أي الناس– وبفسادهم يفسدون"([1]).

وعلماء الأندلس مثلهم مثل باقي علماء الإسلام، منهم العلماء الربانيون، الذين وقفوا في وجه الحكام فأمروهم ونهوهم، ولم يخافوا في الله لومه لائم، ومنهم من آثر السلامة فسكت، فما كان له لا أمر ولا نهي، وهناك طائفة ثالثة كانت محابية ومداهنة، تبيع دينها بعرض من الدنيا، وعندما نتكلم عن سقوط الأندلس، نرى بأن أحد العوامل المهمة في ذلك السقوط، عدم استجابة الأمراء والحكام لأهل الصلاح من العلماء، لدرجة أن بعض أولئك العلماء استشهدوا على أيدي بعض الحكام، وهذا ما سنتحدث عنه لاحقاً بإذن الله تعالى، وقبل الحديث عن موضوعنا سنتناول بعض أحاديث النبي ﷺ، فيما يخص الفقهاء ودورهم، وهو حديث معصوم من السماء، حيث قال ﷺ: "إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ يَكْذِبُونَ وَيَظْلِمُونَ ، فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ ، فَصَدَّقَهُمْ بِكِذْبِهِمْ ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ ، وَلَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَيَّ الْحَوْضَ ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَيُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ ، وَهُوَ وَارِدٌ عَلَيَّ الْحَوْضَ"([2]).

وعن ابن عباس، رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: "من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلاطين افتتن([3]).

عن حديث أبي هريرة إن في جهنم وادياً تستعيذ جهنم منه في كل يوم سبعين مرة أعده الله للقراء المرائين بأعمالهم وإن أبغض الخلق إلى الله عالم السلطان، وفي حديث اذا رأيت العالم يخالط السلطان مخالطة كثيرة فاعلم بأنه لص([4]).

تلك كانت مجموعة أحاديث يسيرة، من أقوال النبي ﷺ في الحديث عن العلماء والتحذير من علاقتهم بالسلطان، وهناك الكثير من التوجيهات النبوية الشريفة التي لا يتسع المقام لذكرها،

---

(1) المقري: نفح الطيب، ج4، ص453.

(2) السيوطي: ما رواه الأساطين، ص30؛ السيوطي: جامع الأحاديث، ج6، ص289.

(3) ابن حنبل: مسند، ج1، ص357، حديث رقم (3362)؛ الترمذي: سنن، ج4، ص523، حديث رقم (2256).

(4) الزمخشري: ربيع الأبرار، ج1، ص324.

والشاهد في الأمر أن النبي ﷺ قد وجه العلماء لضبط علاقتهم مع الحكام، حتى يكونوا ظهير خير لهم وبطانة حق معهم، لأن بالعالم والحاكم يستقيم أمر الأمة.

وفي هذا الصدد لابد من ذكر العلاقة بين الحاكم والعالم في صدر دولة الإسلام في الأندلس، وذكر الحكام واستجابتهم للعلماء في بعض عهود الأندلس المتأخرة.

حيث أنه وفي عهد أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر كان العالم والفقيه القاضي منذر بن سعيد رحمهم الله، وكان بينهما أمرٌ ونهي، فعندما بنى الناصر مدينة (الزهراء)، واستفرغ جهده في زخرفتها وتنميقها وإتقان قصورها، وكان من انهماكه بذلك أن تخلَّف مرة عن شهود الجمعة في المسجد الجامع بـ قرطبة، والمفروض أن يشهدها في المسجد الجامع لا في غيره بحكم ولايته، فلمّا حضر لصلاة الجمعة بعد افتتاح "الزهراء"، وكان القاضي المنذر بن سعيد يخطب في المسجد، فبدأ خطبته بقوله تعالى: (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)([1]).

ومضى الفقيه المنذر في تلك الطريقة مذكراً، وواعظاً وملقياً القول البليغ في النفوس والقلوب، وما زال بالقوم حتى أخذ منهم الخشوع كل مأخذ، وضَجَّ المسجد على رحبه بالبكاء، وأخذ الخليفة من تلك الكلمات الإيمانية الصادقة بأوفر نصيب، فبكى وندم على ما حصل من التفريط، وكانت كل كلمة بالنسبة إليه سلاحًا ماضيًا يعمل عمله، متخطيًا كل الحواجز والاعتبارات، غير أن الخليفة – على كل تأثره – غضب بعض الشيء على المنذر، وشكا ذلك لولده الحكم وقال: "والله لقد تعمَّدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري، فأسرف عليَّ، وأفرط في تقريعي([2])، ولم يحسن السياسة في وعظي"، ثُمَّ أقسم ألاّ يصلي خلفه صلاة الجمعة، فجعل يصلي وراء أحمد بن مطرف، صاحب الصلاة بـ قرطبة، ويجانب الصلاة في الزهراء؛ عند ذلك قال له ابنه الحكم: "ما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك إذا كرهته"؟ وهنا تبدَّت الأصالة وغلب الدين، إذ قال الخليفة للحكم بعد أن زجره: "أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه – لا أُمَّ لك – يُعزَل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون، وإني لأستحيي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه، ولكن أحرجني فأقسمت، ولوَدِدْتُ أن أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي، بل يصلِّي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى، فما أظننا نعتاض عنه أبداً"([3]).

---

(1) سورة الشعراء: أية 128 – 135.

(2) ابن الفرضي: تاريخ قضاة الأندلس، ج1، ص70؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص571.

(3) ابن الفرضي: تاريخ قضاة الأندلس، ج1، ص70؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص571.

يرى الباحث أن هذه صورة مشرقة من الصور الذي خلدها التاريخ، فالعالم لم يمارِ أمير المؤمنين وينافقه بل قال قوله الحق التي تناقلتها الأجيال عبر التاريخ، وكذلك يُسجل لأمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر بأن فيه خلق من أخلاق أصحاب رسول الله والمتمثل بأنه إذا ذُكر تذكر، ولم يقتصر الأمر بأنه استمع بأذن واعية وقلب خاشع لنصيحة العالم الرباني المنذر بن سعيد بل وطبق ما طلبه أو اقتنع فيه من ذلك القاضي كذلك نلاحظ بعضاً من المداهنين الذين كانوا في مجلس أمير المؤمنين وأثنوا على فعله خيراً تقرباً وتزلفاً، ولكنه لم يعبأ بقولهم، وفي انتكاسة من انتكاسات الأندلس نجد الحكام الذين لم يستمعوا إلى نصائح الفقهاء بل وزاد الأمر على ذلك.

نمر على بعض تلك المواقف لبعض العلماء والفقهاء تذكيراً بهم وبأقوالهم، فها هو حافظ المغرب الامام العلم ابن عبد البر الأندلسي (368-463هـ)، يتلمس قضايا الواقع السياسي والاجتماعي، مفصلاً الدواء للداء الذي قد عم الأندلس، فقال: "الإستبداد مذموم عند جماعة الحكماء، والمشورة محمودة عند غاية العلماء، ولا أعلم أحداً رضى الإستبداد وحمده، إلا رجل واحد مفتون، مخادع لمن يطلب عنده لذته فيرقب غرته، أو رجلٌ فاتك يحاول حين الغفلة، ويرتصد الفرصة، وكلا الرّجلين فاسقٌ مائق"([1]).

يلاحظ بأن ذلك القول من بن عبد البر، يحمل في طياته دعوة إلى أن يقوم الناس ليصلحوا ذلك الفساد، بعد ما أظهره واضحاً جلياً، وهذه ستكون ميزة لمعظم العلماء والفقهاء، حيث يقوموا بإظهار الفساد وتبيينه، للخاصة والعامة، ثم يدعوهم من خلال تشخيص الواقع إلى تغييره، ولكن جزءاً من الناس والحكام لم يلتزموا ولم يقوموا بما يريده الفقهاء، وذلك الأمر تضافر مع عوامل السقوط الأخرى، وأدى إلى إنهاء الإسلام في الأندلس.

قام العالم الفقيه ابن حيان (377هـ-987م/469هـ-1076م)(2)، الذي يعتبر من العلماء الربانيين، الذين وقفوا في وجه الحكام الجائرين في الأندلس، ولم يقتصر وقوفه عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأولئك الحكام، بل أيضاً شمل الناس بنصحه معتبراً أن الحكام والرعية سبباً في خراب الأندلس، فقال كاشفاً أسباب الوهن: "طرق الناعي بقرطبتنا، فلم يفارق أهلها عاداتهم، من قلة خوفهم بالله، والإغترار بالأمل، والاعتماد على أمراء الفرقة الهمل، الذين يصدونهم عن سواء السبيل ويلبسون عليهم وضوح الدليل"([3]).

---

(1) بهجة المجالس وأنس الجالس، ج1، ص99.

(2) عاش ابن حَيَّان القرطبي في الفترة ما بين (377هـ-987م/469هـ-1076م) فشهد الدولة العامرية، ثم عصر الفتنة، وسقوط الخلافة الأُمَوية، وقيام دول الطوائف، وتفاقم الخطر النصراني، واندلاع النزاعات العرقية والطائفية (الذهبي: سير اعلام النبلاء، ج18، ص371-372).

(3) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص180.

إن ذلك التوصيف الذي وصفه بن حيان، لهو في ذاته دعوة صارخة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن القوم ما سمعوا، وما وعوا، وما انزجروا، وظل شأن الناس والحكام مع بن حيان وإخوانه العلماء على تلك الحالة، فكانت النتيجة السقوط الحتمي للأندلس، لعدم الاستماع إلى نصائح أولئك العلماء.

كما جعل بن حيان سبب الضياع للأندلس، تهاون الناس والأمراء في الأخذ بتعاليم الإسلام والإسراف في جنب الله فقال: "خبثت ضمائرهم، فاحتوى عليهم الجهل، وأركستهم الذنوب، ووصمتهم العيوب، فليسوا في سبيل الرشد بأتقياء، ولا على معاني الغي بأقوياء، لجهلهم عللوا نفسوهم بالباطل، وغرتهم أنفسهم فابتعدوا عن طاعة خالقهم، ورفضوا وصية نبيهم ﷺ، فتركوا الجهاد وسد الثغور، حتى جاء العدو إلى ديارهم، وقطع كل يوم طرفاً منها، وأباد أمة من حولها، وكان المسلمون ساكتون، لا ينصرون إخوانهم، ولا يدفعون عن ديارهم، ولا يدعون لهم في مساجدهم، ولا يواسي أحدهم منكوب، كأنهم ليسوا من أهل دينهم([1]).

يرى الباحث بأن تلك الحالة التي وصل إليها الناس ما كان ينفعها دعاة الداعين، ولا وعظ الواعظين، وإن كانت حال المسلمين تلك قد وصلت إلى عدم الامتثال إلى أمر الله ورسوله، فكيف سينقادون للعلماء والفقهاء، وهذا ما يدلل على قلة شأن أولئك العلماء عند الناس مما ساهم في سقوط الاندلس.

وكذلك قام العالم الفقيه أبو الوليد الباجي (403-474هـ)(2)، الذي قدم من المشرق إلى الأندلس، فوجد ملوك الطوائف أحزاباً متفرقة، فمشى بينهم بالصلح وهم يجلونه في الظاهر ويستقلونه في الباطن، ويستبردون نزعته ولم يفد شيئاً، وكان لما رجع إلى الأندلس فشا علمه وتهيأت الدنيا له، وعظم جاهه وأجزلت له الصلات، فمات عن مال وافر، وترسل للملوك وولي القضاء بعدة مواضع([3]).

وهنا تكمن المشكلة ويلاحظ ما يليه ملوك الطوائف من أهمية للعلماء والفقهاء، فهم يظهرون الإجلال والاحترام لذلك الفقيه الكبير أبو الوليد، ولكن ذلك الإجلال ما هو إلا ظاهرياً أما في حقيقة الأمر فهم يستثقلونه، ويتمنون ذهابه بغير رجعة، ولا يجد حرجاً في ألا يستجيبوا لقوله ووعظه وأمره.

سمت بالباجي تقواه وهمته لذلك الواجب، فقام بدعوته منذ وقت مبكر، زار أكثر من مملكة للطوائف، يقيم في كل منها بالمدة ليست بالقليلة، ثم زاد نشاطه بعد حادثة بربشتر

---

(1) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص189.

(2) أبو الوليد الباجي فقيه كبير معروف له مصنفات كثيرة، طاف في المشرق الإسلامي ثلاثة عشر عاماً (من عام 440-426 هـ) فرجع للأندلس بعلم جم حصله مع الفقر والتعفف (المقري: نفح الطيب، ج2، ص69-71).

(3) المقري: نفح الطيب، ج2، ص77.

سنة (456هـ-1064م)، وما من شك من أن تلك الحادثة أثارت الغيارى من الناس، ونبهتهم أكثر إلى الخطر الكامن وراء تلك الأحداث فحركتهم([1]).

لقد كانت نتيجة النزاعات أن حدثت مأساة بربشتر، والتي جعلت من أبو الوليد وغيره من الفقهاء دعاة لا يكلوا، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن لم يكن هناك صدىً لأمرهم ونهيهم.

وكان أبو الوليد رحمه الله يمشي بين ملوك الأندلس، حتى يصل من قطع العلاقات بينهم، فكان دوره كمؤمن آل فرعون، ولكنه لم يلاقي أذاناً تسمع ولا قلوباً تعقل.

بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب وأجزل حظه في التأنس والتقريب، ولكن في حقيقة أمورهم عكس ذلك، وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأمورهم وأعلنه بتدبيرهم ولكنه كان يرجوا حال تثوب ومذنب يتوب"([2]).

يرى الباحث بأن الفقيه الباجي لم يقصر في إبداء النصح والقيام بواجبه كفقيه وعالم، كما هو موضح في النصوص آنفة الذكر، ولكن قوله كان نفخ في رماد، وصراخ في واد، فما استفاد أمراء الأندلس منه ومن أمثاله فكانت عاقبة أمرهم خسرانا، وهكذا نرى التعامل السلبي من قبل بعض الحكام والأمراء مع بعض العلماء عاملاً مهما من عوامل سقوط الأندلس.

كما كان هناك الفقيه أبو عبد الله محمد بن عامر البزلياني (ت 443-1051م)، الذي يعتبر أحد شيوخ الكتاب وجهابذة أهل الآداب،([3])، وقام بدوره في الإصلاح بين الحكام، فأرسل رسالته ناصحاً إلى حاكمي شاطبة وبلنسية، مظفر ومبارك العامريين، يحاول رأب الصدع واصلاح ما فسد بينهما فكتب: "ولم يخف عليكما ما في صلاح ذات البين من الفوز بخير الدارين، وأمن العباد وخصب البلاد، وإعزاز الدين وإذلال القاسطين، وتوهين المشركين وقوة العضد ووفور العدد، وستر العورات وحفظ الحرمات، والإنتهاء إلى حدود الله والإزدجار بزجره، والتأدب بأدبه والإئتمار بأمره ، وقال ﷺ "لا تقاطعوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، وعلى طاعته أعواناً، وقد علمتم أنه لم يهلك من هلك من الأمم الماضية والقرون الخالية إلا بتقاطعهم، وتحاسدهم وتدابرهم وتخاذلهم"([4]).

يعتبر العالم الفقيه ابن حزم الأندلسي (456هـ-1064)، من الفقهاء الذين لم يحابوا في الحق، ولم يداهنوا الملوك، ولم يخفِ فتواه، ولم يأخذ بالتقية، خوفاً ورهبةً، بل صدح بالحق، وكان أن سُئل في أمرٍ من أمور تلك الزمان فأجاب رحمه الله: "أما ما سألتم عنه من أمر هذه الفتنة،

---

(1) حجي: التاريخ الأندلسي، ص340.

(2) ابن بسام: الذخيرة، ج2، ص63.

(3) المغربي: المغرب، ج12، ص444-445.

(4) ابن بسام: الذخيرة، ج2، ص638.

وملابسة الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض، فهذا أمرٌ إمتحنا به، نسأل الله السلامة، وهي فتنة سوءٍ أهلكت الأديان، إلا من وقى الله تعالى، وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا، أولهم عن آخرهم، مُحاربٌ لله تعالى ورسوله وساعٍ في الأرض بفساد؛ فهم يشنون الغارات على أموال المسلمين من الرعية، ويبيحوا لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها، ضاربون الجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله"، وبعد ذلك التوصيف الواضح والبين، والذي لا مداهنة فيه ولا تزلف، يأمر بن حزم السائلين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلم يستطع من العامة فعليه بالتغيير بقلبه([1]).

يلاحظ من النص السابق، بأنه حمل جملة من المفاهيم التي لا يعبر عنها إلا ألو العزم من الفقهاء، فقد وصف الحكام بأنهم فاسدون محاربون لله، أكّالون أموال المسلمين بغير حق، موالين للكفار، ثم دحض فتوى الفقهاء التي تبيح للحكام تلك الأمور، موضحاً بأنهم ما أرادوا الإسلام؛ بل أرادوا البقاء في الملك، ثم وجه الناس بألا ينخدعوا بعلماء السلاطين، الذين يُظهروا بأنهم أهل تقوى وهم غير ذلك، وهنا يظهر لنا بوضوح بأن عدم استجابة الحكام في زمان بن حزم له، كان عاملاً من عوامل السقوط أيضاً، وهذا يشبه ما سبقه من العلماء ومن موقف الحكام، والناس معهم، في عدم الالتزام والتقيد بأوامر أولئك الفقهاء.

وكان العالم الفقيه الحسن بن الجد([2])، ممن نصح واجتهد في النصيحة، وآثر الباحث أن يذكر شيئاً من نصحه ووعظه منظوماً، للدلالة على ان العلماء لم يتركوا وسيلةً إلا اتبعوها، بدءاً بآيات القرآن مروراً بأحاديث النبي ﷺ وقوفاً عند الشعر والنثر، وكان مما قال الحسن ابن الجد:

أَرَى المُلُوكَ أَصَابَتْهُمْ بِأَنْدَلُسٍ دَوَائِرُ السُّوءِ لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ

نَامُوا وَأَسْرَى لَهُمْ تَحْتَ الدُّجَى قَدَرٌ هَوَى بِأَنْجُمِهِمْ خَسْفاً فَمَا شَعَرُوا

وَكَيْفَ يَشْعُرُ مَنْ في كَفِّهِ قَدَحٌ يحْدُو بِهِ مُلْهَيَاهُ النَّايُ وَالوَتَرُ

صُمَّتْ مَسَامِعَهُ عنْ غَيْرِ نَغْمَتِهِ مِمَّاَ تمُرُّ بِهِ الآيَاتُ وَالسُّوَرُ

---

(1) ابن حزم: رسالة التلخيص لوجوه التلخيص، ج3، ص173.

(2) هو الحافظ، الفقيه، الخطيب، ثم الإشبيلي المالكي ولد سنة 496هـ وسمع بقرطبة أبا محمد بن عتاب ، وأبا بحر بن العاص، وأبا الوليد بن رشد في سنة 515هـ. وسمع "صحيح مسلم من أبي القاسم الهوزني وكان كبير الشأن، انتهت إليه رئاسة الحفظ في الفتيا، وقدم للشورى من سنة إحدى وعشرين، وعظم جاهه، ونال دنيا عريضة، ولم يكن يدري فن الحديث، لكنه عالي الإسناد فيه . وكان أحد الفصحاء البلغاء، امتحن في كائنة لبلة، وقيد وسجن. وكان فقيه عصره تخرج به أئمة، مات في شوال سنة 586هـ . الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج3، ص178.

تَلْقَاهُ كَالفَحْلِ مَعْبُودًا بِمَجْلِسِهِ   لَهُ خُوَارٌ وَلَكِنْ حَشْوُهُ خَوَرُ ([1]).

ويلاحظ من ترجمة ابن الجد –رحمه الله– أنه قد واجهه أصنافاً من العذاب، كان من ضمنها السجن بدل أن يستمع إليه الحكام، ويأخذوا برأيه، فكيف بدولة أن تقوم وهي تحقر وتعذب علماءها وفضلاءها، وهنا نذكر ما بدأنا به من قصة العالم المنذر بن سعيد عندما وعظ الحاكم العادل (الناصر) رحمهم الله، وكيف كان تعامل الناصر مع المنذر، وكيف كان التعامل مع الفقيه الحسن بن جد، وهذا يظهر لنا بأنه كان في الأندلس حكامٌ وقافون عند قول العلماء، مستجيبون لهم، مما حفظ الأندلس من السقوط.

ثم بين خطورة الإستعانة بالفرنجة وعظيم وزر ذلك فقال: "والذين يحملون من أوزارهم تسليط النصارى على المسلمين، يقتلون ويأسرون، فالأموال مستهلكة، والحرمات منتهكة، والدماء مهراقة، والكفر عالٍ على الإيمان، فقد علمت بأنكم تستقوا بالنصارى على المسلمين"([2]).

إن تلك النصوص السابقة التي بعثها الفقيه البزلياني، للإصلاح بين الحكام، ولإظهار الحال التي آلت إليه البلاد، لم تجدِ معهم نفعاً، لأن عادة أولئك الحكام أن يصموا آذانهم وقلوبهم عن قول أولي الأحلام والنهى، ويسمعوا إلى نداء نفوسهم الأمارة بالسوء، مما أفقد الأندلس العمل بقول الناصح الأمين، ولتصبح أثراً بعد عين.

يُعتبر أبو الحفص الهوزني (392هـ–102م/460هـ–1068م)، من العلماء المجيدين في الأندلس، وكان من أوضحهم بياناً وأقواهم في الحق لساناً، وكان حُسن خاتمته أن نال الشهادة في سبيل الله على يد المعتمد بن عباد أمير إشبيلية، وكان قد أرسل رسالة إلى بن عباد، يصف بها حال البلاد فقال فيها: بأن حال البلد يشيب لها الوليد، ويتغير لها وجه الأرض، وفيها تبقى النساء أيامى والأطفال يتامى، وقد خيف على عمود الإسلام من الإنقضاض، وختمها وكأن الجمع في رقدة أهل الكهف، أو على وعد صادق مع الصرف، وإن هذا الأمر له ما بعده، ثم قال فيها:

أعباد ضاق الذرع واتسع الخرق   ولا غرب للدنيا إذا لـم يكـن شـرق

ودونك قولاً طال وهو مقصرٌ   وللعيـن معنـىً لا يعبـره النطـق

إليك انتهت آمالنا فارم ما دهى   بعزمك يدمغ هامة الباطل الحق([3])

وبعد أن نبه أبو حفص الهوزني ابن عباد إلى الخطر المحدق بالمسلمين، وبين له أن الخلاص لا يتم إلا بالتخلي عن الذات، وجعل الجهاد هو الهاجس الدائم للمسلمين هناك عامتهم

(1) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص256–257.

(2) ابن بسام: الذخيرة، ج2، ص638.

(3) النويري: نهاية الإرب: ج6، ص165–166؛ القلقشندي: صبح الاعشى، ج12، ص226 .

وخاصتهم، فما كان من بن عباد بعد ما تلقى تلك الرسالة، إلا أن استدعى الهوزني إلى إشبيلية، ثم قتله سنة 460 هـ([1]).

وكان أبو عبد الله المالقي (ت/ صفر-750هـ-1349م)، عالما فقيها زاهداً، لازم الدين والتواضع([2])، وقد تولى القضاء بغرناطة سنة (737هـ-1337م)، فصدع بالحق، وقاتل من أجله، فتصادم مع تيارٍ من الناس كثير، ولكنه لم يتراجع، فناله من ذلك من المشقة والكيد العظيم ما نال مثله، حتى كان لا يمشي إلى الصلاة ليلاً، ولا يطمئن على حاله، وجرت له في ذلك حكايات طويلة([3]).

يلاحظ بأن الفقيه المالقي واحد من أولئك الذين تعرضوا للأذى نتيجة جهرهم بالحق، ورغم أنه كان متولياً لقضاء غرناطة، إلا أنه قد خاف على نفسه من كيد الكائدين، فما اطمئن من الخروج ليلاً للصلاة، تلك الحالة التي كان عليها ذلك الفقيه، تنبئ عن ذلك الحال الذي آل إليه الفقهاء في ذلك الزمان.

ويرى الدكتور حمد بن صالح السحيباني، بأن العلماء كان لهم تقدير كبير عند ملوك الطوائف، ولقد أنعم الله على مسلمي الأندلس بأن قيض لهم علماء ناصحين، رفعوا الراية وحاولوا نشر العلم بين الناس، مستفيدين مما أتيح لهم من فرص، كان أهمها الحرية في طرح ما يريدون، وسهولة التنقل بين بلدان الطوائف دون مضايقة، ويضيف نقلاً عن عبد الرحمن الحجي من كتابه التاريخ الأندلسي: بأنه أولى ملوك الطوائف العلم والعلماء اهتماماً كبيراً، حتى غدت قصور الكثير منهم منتديات علمية، ويستأنس بقول المقري في كتابه نفح الطيب أن الملوك في الطوائف كانوا في حالة من التباهي العظيم، لوجود العلماء عندهم، فيقال من باب التباهي العالم الفلاني عند الملك الفلاني، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني، وليس منهم إلا من بذل وسعه في المكارم([4]).

يرى الباحث بأن التاريخ الأندلسي قد زخر بالعلماء والفقهاء، وكانوا على أحوال متنوعة، فمنهم العلماء الربانيون، الذي ما أخذتهم في الله لومة لائم، والذين امتد وجودهم منذ بدء التاريخ الأندلسي إلى منتهاه، وكانوا منارات علمٍ وهداية، يَرشُد بها الأندلسيون، أولئك العلماء الذين حافظوا على الأندلس من خلال ما قدموه من نصح للعامة والخاصة، وكان هناك أيضاً بعض العلماء الذين التصقوا بالحكام، من أجل مصالح دنيوية، وقد تحدث عنهم بن حزم محذراً الناس

---

(1) ابن بشكوال: الصلة ج1، ص204.

(2) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج5، ص80.

(3) المقري: نفح الطيب، ج5، ص386..

(4) عصر الازدهار العلمي في الأندلس- دراسة تحليلية لأهم عوامل الازدهار العلمي في عصر ملوك الطوائف-، ص193-195.

منهم، ويمكن القول بأن الدور المجيد الذي قام به علماء الأندلس، لا يخفى على باحث في التاريخ الأندلسي، وهذا أمر طبيعي، فالعلماء ورثة الأنبياء، ولكن المشكلة الكبرى كانت في عدم استجابة الكثير من الحكام وعامة الناس لأولئك العلماء، وقد مر معنا أن بعضاً من أولئك العلماء قد قتلوا وهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ومنهم من أحاط به الخوف، فلم يستطع أن يخرج للصلاة في الليل، ومنهم من أحُرقت كتبه، كما سنرى في فصول لاحقة، وهذا كله كان له بالغ الأثر على حياة المسلمين في الأندلس وعلى تاريخها برمته.

المبحث الرابع

تولية غير المسلمين

يعد اليهود مُركباً أساساً من مركبات المجتمع الأندلسي، وكان لهم حضور مهم في معظم مجالات الحياة، فمنهم التجار والصناع والشعراء والأطباء، ونتيجة لطبيعة الدين الإسلامي الذي يحفظ التنوع العرقي والديني تمتع اليهود بكل ما سبق. إن اليهود في العهد الإسلامي انتشروا في جميع ميادين الحياة، من الصناعة والزراعة والمال، واتبعوا عادات العرب ولبسوا أزياءهم كالعمامة والأثواب الحريرية الفضفاضة، وتحدثوا بلغتهم وركبوا العربات التي تجرها الخيول، حتى غدا من العسير على الإنسان أن يميز بين من هو يهودي أو مسلم من أهل الأندلس، مما يُشير إلى متانة العلاقة بين الجانبين([1]).

وقد سادت علاقة الانسجام والتسامح بين السكان المسلمين واليهود، وسُمح لليهود بتملك الأرض، والتجارة، كما شاركوا في الحياة الثقافية في عصر الخلافة والعصور اللاحقة لهم([2])، كما توزع اليهود على مدن الأندلس المهمة، ومنها قرطبة، حيث كان يقع الحي اليهودي في قرطبة في الجهة الجنوبية الغربية منها، قريباً من قصر الخلفاء والجامع الكبير([3])، وكذلك في غرناطة التي فتحها المسلمون سنة (92هـ =711م)، "فألفوا بها يهوداً ضموهم إلى قصبة غرناطة"، وتعاملوا معهم وفق الأحكام الشرعية الخاصة بأهل الذمة، فنعم اليهود في غرناطة، كما في غيرها من مدن الأندلس بالتسامح والعدل والرخاء، وانتشرت أخبار ذلك التسامح بين اليهودِ في كل مكان، فأخذوا يتدفقون إلى مدن الأندلس عبر مضيق جبل طارق، وكان لغرناطة نصيب وافر من هؤلاء المهاجرين([4]).

وفي إشبيلية، وبعد أن فتحها موسى بن نصير أسكن بها اليهود، وما يدل على كثرتهم فيها، أنه وفي عهد الأمير عبد الرحمن الداخل (138 – 172هـ=788 – 796 م)، جسروا على فتح أحد أبوابها ليتمكن جند الأمير من دخول المدينة وقمع الثائرين، "ودخلت الخيل على باب قرمونة، وفتحه لهم اليهود، فوضعوا أيديهم في قتل المولَّدين"([5]).

وأما في سرقسطة فقد عاشت طائفة يهودية كبيرة، وسكن معظم أفرادها في الحي اليهودي، الواقع في الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة، بين سور المدينة في الجنوب وشارع

---

(1) ديورانت: قصة الحضارة، ج2، مج4، ص290.

(2) كحيلة: القطوف الدواني، ص73.

(3) كحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس، ص46–47.

(4) ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص101.

(5) العذري: ترصيع الأخبار، ص102.

مايور في الشمال، وكانت حدوده في الغرب هي شارع جيمي الأول، و كان الحي اليهودي في سرقسطة كبيراً، حيث بلغت مساحته نحو ربع مساحة المدينة([1]).

وفي برشلونة القديمة والتي ما تزالُ ذات شوارع ضيّقة ومظلمة، وقصورٌ محصَّنة ذات ساحات صغيرة، وكانت المقبرة اليهودية تقع في جنوب المدينة، على منحدرات الجبل، الذي ما يزال إلى الآن يُدعى جبل اليهود، وهناك العديد من شواهد القبور التي تحملُ كتابات من أواخر القرون الوسطى، وقد أزيلت الشواهد الأخرى من الجبل بعد طرد اليهود من المدينة، وتمَّ استخدام الحجارةِ في بناءِ بناياتٍ جديدة، ويؤكّد ذلك الاكتشاف أنَّ الطائفة اليهوديــة قــد تواجــدت فــي برشلونة خلال الحكم الإسلامي لها([2]).

يتضح مما سبق بأن تلك المدن التي سكنها اليهود هي من أهم المدن الأندلسية، وهذا لا يعني أن وجودهم قد اقتصر على تلك المدن، بل شمل معظم مدن الأندلس، وقد آثر الباحث أن يذكر تلك المدن المهمة، كشواهد على الوجود اليهودي في الأندلس، وأيضاً يلاحظ بأن مؤرخي الأندلس قد أسهموا في ذكر طبيعة الوجود اليهودي، والذي تميز بعمومه بكثرة اليهود في تلك المدن، ولا شك أن وجود طائفة اليهود التي تميزت بأنها لا عهد لها ولا أمان، في حواضر الأندلس، كان سبباً مباشراً أو غير مباشر في سقوط الأندلس، وذلك لفساد تلك الطائفة اليهودية، وتغيير ولائهم في بعض الأوقات، ليتحولوا ضد المسلمين بعد أن كانوا رعاياهم ومنسجمون معهم، ولبعض الأدوار التخريبية التي قام بها اليهود، في بعض حقب التاريخ الأندلسي، بعدما تم توليتهم لبعض المناصب الحساسة.

الإعتماد على اليهود في الأندلس:

أولاً: حسداي بن شبروط([3]):

اعتمد بعض الخلفاء الأمويين في الأندلس على اليهود، في تأدية أعمال ومهمات لصالح الدولة، ومن ذلك قيام الخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) (300هـ/912م) بتقريب يهودي اسمه حسداي بن شبروط، وقد بدأ ابن شبروط عمله في بلاط الخليفة طبيباً في حدود سنة (329هـ/940م) ([4]).

---

(1) الخالدي: اليهود تحت حكم المسلمين، ص97.

(2) الخالدي: اليهود تحت حكم المسلمين، ص101-102.

(3) هو حسداي الإسرائيلي، ذو حظوة عند عبد الرحمن الناصر له باع في الترجمة ، وكان له باع في ترجمة ما جُهل من أسماء العقاقير المذكور في كتاب ديقوريدس إلى العربية كما أنه خدم من بعد الناصر ابنه الحكم ونال عنده نهاية الحظوة (ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء، ص494-498)

(4) ابن جلجل، سليمان الأندلسي: طبقات الأطباء والحكماء، ص23.

ثم وضعه الخليفة الناصر على رأس الإدارة المالية للدولة، وهي في ما يبدو الإدارة التي تعرف الآن بالجمارك، حيث تحدث عن منصبه في إحدى رسائله إلى ملك الخزر كمسؤول عن الدخل الصادر عن التجارة الأجنبية، وكان هذا المنصب مهماً لأن الأموال التي تُجبى من السفن القادمة إلى الأندلس والمغادرة منها، كانت تشكل مصدراً رئيساً لخزينة الدولة، وبالرغم من أهمية العمل الذي كان يؤديه ابن شبروط، إلا أن الناصر لم يمنحه لقب وزير أو أي لقب رسمي، والسبب في ذلك أنَّ الناصر أراد أن يستفيد من مواهب حسداي، ولا سيما من كونه ملِمَّاً بلغات أجنبية مختلفة، من دون أن يجعل في حكومته وزيراً يهودياً أو موظفاً رسمياً كبيراً يشوّه سمعتها الحسنة، ويعرّضها لانتقادات جمهور المسلمين وفقهائهم([1])، ولثقة عبد الرحمن الناصر به فقد كلفه ببعض المهام الدبلوماسية؛ حيث أرسله إلى نفارة لعلاج حاكمها شانجة حفيد طوطة، وكانت أمه تحكم نفارة بالإنابة، فطلب حسداي من شانجة أن يتنازل عن عشر قلاع مقابل علاجه، فوعده شانجة بإعطائه الحصون بمجرد أن يحكم([2]).

يلاحظ بأن الوجود اليهودي في ذلك العمل المهم، الذي أوكله الخليفة إلى حسداي لم يؤثر على المسلمين، ولا على قوة الدولة الإسلامية في الأندلس، وذلك لوجود خليفة قوي، كما أنه لم يطلق يد ذلك اليهودي فيما أوكله به.

ومن الأعمال المهمة التي قام بها حسداي عقده صلحاً مع صاحب برشلونة سنة (328هـ-940م)، على الشروط التي ارتضاها الناصر لدين الله، وأرسل حسداي إلى برشلونة لتقريرها مع شنيير، صاحبها، واتفق أن جاء إبراهيم بن عبد الرحمن الباجي، على مدينة برشلونة، يوم الجمعة، لعشر خلون من شوال غازياً، فعرَّفهم حسداي بما عقده من سلم مع صاحبها، فرحل الأسطول عن مرسى من يومه. ودعا حسداي عظماء برشلونة إلى طاعة الناصر لدين الله وسلمه، فأجابه جماعة من ملوكهم، منهم أُنْجُة، أحد عظمائهم، كما قامت ملكة الفرنج بنت بريل بما قام به أنجة، فأرسل للناصر برناط الإسرائيلي ومعه هدايا فقبلها الناصر لدين الله، وكافأها بأنفس مما بعثت، ثم قدم حسداي بن إسحاق على الناصر لدين الله من برشلونة في عقب ذي القعدة منها سنة (328هـ-940م)، بعد أن أحكم ذلك كله([3]).

الملاحظ بأن الخليفة الناصر رحمه الله لم يمنح بن شبروط لقب وزير خوفاً على سمعة حكمه من أن يشوه كما في النص الآنف، وهذا يُظهر حرص الخليفة على ألا يُحكّم غير المسلمين في رقابهم وأموالهم، ولكن ما غفل عنه الناصر أنه قد أوكل مهمة حساسة إلى ذلك اليهودي وهي جمع المال وبعض السفارات الخارجية، ولا نعتقد بأن الأندلس في زمانه قد خليت

---

(1) عبد المجيد: اليهود في الأندلس، ص23؛ الموسوعة العبرية، م 26، ص283

(2) دوزي، رينهرت: المسلمون في الأندلس، ج2، ص52-53.

(3) ابن حيان: المقتبس، جـ5، ص454-455.

من رجل بكفاءة بن شبروط لحمل تلك المهمة، ولربما كان توسيد هذا الأمر إلى اليهودي إضافة لمهارته؛ نوعاً من التسامح الديني الذي آمن به عبد الرحمن الناصر، ولكن الخطير في الأمر بأنه قد فتح باب تولية اليهود لمناصب رفيعة في الدولة، تلك المناصب التي ما تولاها اليهود، حتى أصبحوا متحكمين بالمسلمين، وعند الحروب مع الفرنجة لم يكونوا أمناء على تلك المناصب، مما كان سبباً في خراب جزءٍ من اقتصاد الأندلس، والذي سيؤدي فيما بعد إلى سقوطها، بعدما تتضافر عوامل السقوط مجتمعة مع العامل الإقتصادي، ولا شك بأن تولية اليهود زعزع الثقة بين الحكام والمحكومين، في بعض عهود الأندلس.

ثانياً: إسماعيل بن نغدلة (ابن نغدلة)([1]):

أُعجب وزير حبوس أبي العباس بن العريف بكفاءة بن نغدلة الأدبية؛ وعرض عليه أن يعمل مساعداً في خدمة أمير غرناطة، فوافق ابن نغدلة ورحل إلى غرناطة، فعينه الوزير جابياً لأموال الدولة، ولنجاحه كسب ثقة الوزير أبو العباس، وأصبح بإمكانه أن يعين موظفين معه ليساعدوه في مهمته، وقد حقق إسماعيل نجاحاً في جباية الأموال، وكسب ثقة الوزير، وجنى ابن نغدلة أموالاً كثيرة من تلك الوظيفة، لكنه كسب معها كره كثير من يهود غرناطة، الذين وجدوه متسلطاً، يأخذ منهم فوق ما يطيقون في سبيل أن يظهر قدراته للمسؤولين، ولكي يبقي لنفسه جزءاً من تلك الأموال([2]).

وبعد أن توفي الوزير أبو العباس عيّن حبوس ولده الأكبر مكانه، ولم يكن الولد كأبيه. فاستغل إسماعيل ذلك وصار يقابل حبوس نيابة عنه، ويُظهر بدهاء خبرته، إلى أن أصدر حبوس أمراً بتعيين إسماعيل وزيراً للمالية، فشغل هذا المنصب في أوائل العقد الثالث من القرن الحادي عشر الميلادي، وبذلك أصبح إسماعيل بن نغدلة أول يهودي في الأندلس يتقلد منصب الوزارة([3]).

ولم يقتصر كرهه عند اليهود فقط بل وعند المسلمين، فقد كتب كتاباً يرد فيه على الفقيه ابن حزم، وجاهر بالكلام في الطعن على ملة الإسلام، فما دفعه أحد، ولا رد عليه مسلم، واكتفوا بتغيير ذلك المنكر بقلوبهم، وكان المنصب الذي حازه قد أغاظ الأحرار، وكرهه عامة اليهود، وتظلم من جوره وكان قد أذل أعلام اليهود بعد أن أساء للمسلمين([4])، ولم يكن مكروهاً عند اليهود

---

(1) حاخام يهودي يُسمى عندهم صاموئيل بن جوزيف هاليفي (ديورانت: قصة الحضارة، ج2، مج4، ص290). ص290).

(2) الخالدي: اليهود تحت حكم المسلمين، ص150.

(3) الأمير عبد الله: التبيان، ص30-31.

(4) ابن بسام: الذخيرة، ج2، ص766-767.

اليهود فقط لذلك السبب بل ولأنه كان سبباً في نكبة يهود غرناطة على يد الصنهاجيين بسبب استهزائه بالقرآن الكريم([1]).

ومن أشكال استهزائه أنه أقسم أن ينظم جميع القرآن حتى يُتغنى بها، ومن شعره

نقشــت فــي الخــد ســطرا	من كتاب الله موزون
لــن تنــالوا البــر حتــى	تنفقوا مما تحبون ([2])

لم يرق ذلك الأمر لكثير من الناس، وخاصة العلماء كأبي إسحاق بن مسعود، الذي اشتهر في غرناطة اسمه وشاع علمه وارتسم بالصلاح وكان ينكر على ملكها كونه استوزر ابن نغدلة اليهودي وعلى أهل غرناطة انقيادهم له فسعى في نفيه إلى إلبيرة فقال شعره المشهور

ألا قل لصنهاجة أجمعيــن	بــدور الزمان وأســد العرين
لقــد زل ســيدكم زلــة	أقر بهــا أعيـن الشامتيــن
تخيــر كاتبــه كــافرا	ولو شاء كان من المسلميــن
فعــز اليهــود بــه وانتخــوا	وكــانوا مــن العتــرة الأرذلــين

فاشتهر هذا الشعر وثارت صنهاجة على اليهود فقتلوه وعظم قدر أبي إسحاق([3]).

يلاحظ بأن ابن حبوس والذي يعتبر من ملوك الطوائف –أي زمن الانحدار الأندلسي– قد أعطى وبشكل واضح لقب وزارة المالية لليهودي بن نغدلة كأول وزير في الأندلس، رغم معرفته وعلمه باستهزاء ذلك اليهودي بالقرآن الكريم، واحتجاج الفقهاء وعلى رأسهم أبي إسحاق على توليته؛ إلا أنه لم يستمع إلا إلى شيطانه، بل ويلاحظ بأن بن نغدلة كان نذير شؤوم على اليهود أنفسهم، حيث أدى فعله المشين إلى مذبحة في حقهم.

ثالثاً: يوسف بن إسماعيل بن نغدلة (459-383 هـ= 933-1066م)

وبعد وفاة إسماعيل بن نغدلة، كان قد جهز ولده ليقوم مقامه، فحمله على مطالعة الكتب، وجمع إليه المعلمين والأدباء من كل ناحية، يعلمونه ويدارسونه، ورشحه في أول حياته ليكون كاتباً لإبن بلكين، لينوب عنه، وذلك تمهيداً لاستخلافه، فلما مات اسماعيل في ذلك الوقت، قربه باديس إليه، وجعله مكان أبيه، بعدما أظهر السرور له([4]).

وما هي إلا أيام حتى أصبح يوسف من أكابر دولة بن باديس، وكان لا يعرف ذل الذمة، ولا قذر اليهودية، فأخذ في الاجتهاد في الأحوال، وجمع المال، واستخراج الأموال، واستعمال

---

(1) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص114.

(2) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص114.

(3) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص132.

(4) ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص243.

اليهود على الأعمال، فزادت منزلته عند أميره، وكانت لذلك اليهودي عيون على الأمير في قصره، من نساءٍ وفتيانٍ، يشملهم بالإحسان، فلا يكاد باديس يتنفس، إلا وهو يعلم ذلك([1]).

نسي يوسف بن إسماعيل بأنه يهودي في ديار الاسلام، وأنه ذمي يدفع الجزية عن يد وهو صاغر، فأصبح يتشبه بأميره المسلم، حتى قال من رآه يساير صحابه بساحة قرطبة، في بعض المرات التي جاء إليها، فرآه مع باديس، فلم يفرق بين الرئيس والمرؤوس، فأنشد تشابهت المناكب والرؤوس([2]).

إن الأندلس دولة إسلامية، قائمة على قواعد الشريعة، وعلى الكتاب والسنة، فكيف لها أن تستقيم وتستمر، وفيها من يحقر كتاب الله وشريعته، فلا شك أن ذلك كان موجب لغضب الله سبحانه وتعالى، ونذيراً بأن الهلاك والثبور، سيكون لتلك الدولة لا محالة، وهذا ما كان في نهاية المطاف.

يوسف اليهودي يقتل ابن باديس:

وكان لباديس ولد اسمه بلكين، له خاصة من المسلمين يخدمونه، وكان مبغضاً في اليهودي، فبلغ ابن النغدله أنه تكلم في ذلك لأبيه، فبلغ منه كل مبلغ، فدبر الحيلة، فذكروا أنه دخل عليه يوماً فقبل الأرض بين يديه، فقال له الغلام: ولم ذلك، فقال: يرغب العبد أن تدخل داره مع من أحببت من عبيدك ورجالك، فدخل إليه بعد ذلك، فقدم له ولرجاله طعاماً وشراباً، ثم جعل السم في الكأس لابن باديس، فرام القيء فلم يقدر عليه، فحمل إلى قصره وقضى نحبه في يومه، وبلغ الخبر إلى أبيه ولم يعلم السبب، فقرر اليهودي عنده أن أصحابه وبعض جواريه سموه. فقتل باديس جواري ولده، وفتيانه ومن بني عمه جماعة كبيرة، وخافه سائرهم ففروا عنه، وكانت وفاته سنة ست وخمسين وأربعمائة، وبعده قتل اليهودي في سنة تسع وخمسين([3]).

يمكن اعتبار توليه يوسف بن إسماعيل ابن نغدله اليهودي علامة فارقة في توليه غير المسلمين لعظائم المهام، وعلامة أيضاً لمدى الانحطاط الذي وصل إليه بعض حكام الأندلس لتولية غير المسلمين في إدارة شؤونهم، وكان من عاقبه ذلك الأمر أن يمكن اليهودي يوسف بني قومه من بعض المرافق المهمة في وزارته، ثم اطلاعه على أدق تفاصيل حياة الخليفة ابن باديس، ونقل تلك التفاصيل لليهود، وخطورة إطّلاعه تلك مكنته في نهاية المطاف أن ينفذ جريمته الشنعاء بقتل بلكين ابن باديس، وما ذلك إلا لأن بلكين أظهر بغضه للوزير المتنفذ، وكانت النهاية

---

(1) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص243.

(2) ابن بسام: الذخيرة، ج2، ص767.

(3) ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص240.

المريعة، والدالة على مدى سيطرة يوسف اليهودي على مقاليد الأمور، وهذا بلا شك داعي من دواعي السقوط.

رابعاً: حسداي بن يوسف بن حسداي:

كان أبو الفضل حسداي يوسف بن حسداي من أشهر رجالات اليهود في سرقسطة، إذ عمل وزيراً وكاتباً في دولة المقتدر بن هود (438-447هـ=1046-1081م)([1])، وكان مجيداً في في الشعر والأدب، وبلغ الغاية في البلاغة، وقيل أنه انتهى به الأمر إلى الإسلام لتعلقه بجارية مسلمة أهداها سيدها إليه([2])، وحول تلك الجارية قال الشنتريني: "أن جارية ذهبت بلبه، وغلبته على قلبه، فجن بها جنونه، وخلع إليها دينه، وعلم بذلك صاحبها، فزفها إليه ووضع زمامها بين يديه، فتجافى عن وصلها، أنفةً من أن يظنّ الناس أن إسلامه كان من أجلها، فحسن ذكره، وخفي على كثير من الناس أمره"([3]).

يلاحظ بأن هذه الرواية توضح بأن إسلام ذلك الوزير اليهودي لم يكن قناعة بالإسلام ولكن إتباع لهواه في عشق الجارية، وما يؤكد هذا الرأي أبيات شعر قالها ابن عتبة الإشبيلي، حيث كان من أمره أن ذهب إلى مصر فسُئل عن حاله بعد أن رحل إليها من سرقسطة التي كان أبو الفضل حسداي بن يوسف يشغل فيها منصب الوزير للمقتدر بن هود:

أصبحت في مصر	أرقص في دولة القرود
واضيعة العمر في أخيرٍ	مع النصارى أو اليهود
بالجدِّ رزق الأنام فيهم	لا بذوات ولا جدود
أودُّ من لؤمهم رجوعاً	للغرب في دولة ابن هود(4)

وكانت بعض العائلات اليهودية الإشبيلية الثرية مقربة من حكام إشبيلية، وحصل بعض أبنائها على وظائف حكومية، مثل عائلة كامنيل التي ظلت قريبة من السلطة لمدة طويلة. وعائلة ابن مهاجر التي ينتمي إليها أبو إسحاق إبراهيم بن مير بن مهاجر، الذي شغل منصباً مهماً في حكومة إشبيلية، ومنح لقب الوزير إضافة إلى ألقاب رنانة أخرى([5]).

ويُجمل مشهد تولي اليهود المأساوي لأمور المسلمين في الأندلس، ما قاله ابن حزم الأندلسي رحمه الله: "أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا، أولها عن أخرها، محارب لله تعالى ورسوله، وساع في الأرض بفساد؛ للذي ترونه من شنهم الغارات على أموال

---

(1) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص457.

(2) المقري: نفح الطيب، ج3، ص401.

(3) الذخيرة: ج3، م1، ص458؛ المقري: نفح الطيب، ج3، ص293-294، 401.

(4) المقري، نفح الطيب، ج2، ص663-664.

(5) الخالدي: اليهود تحت حكم المسلمين، ص183.

المسلمين من الرعية، التي تكون في ملك من عاداهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها، ضاربون والجزية على رقاب المسلمين، مسلِطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدام نفاذ أمرهم ونهيهم"(1).

ووصف ابن كردبوس تلك الحالة فذكر بأن المسلمون كانوا ضعفاء أمام بعضهم البعض، فاستقووا بالروم، مقابل الأموال التي يعطونها لملك الروم، حتى يمدهم بالفرسان، فيما يوسف بن النغدلة مسرور بتلك الفتنة، مساعد عليها، وأمراء المسلمون منشغلون بشرب الخمور وإقتناء الجاريات، وركوب المعاصي، وكل واحد منهم يتنافس في شراء الذخائر الملكية القادمة من الشرق، ويرسلها إلى ملك الروم تقرباً إليه(2).

إنَّ تولية يهود على رقاب المسلمين في بعض دويلات الطوائف، لا يمكن أن يُعدّ تسامحاً، بل هو انحراف عن شريعة الإسلام التي نهت المسلمين عن موالاة اليهود والاستعانة بهم. قال تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)(3)، وقول الرسول ﷺ: "لا تأمنوهم إذ خونهم الله"(4)، وقوله للأنصار الذين قالوا له يوم أحد: ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟ "لا حاجة لنا فيهم"(5).

وقد لاحظنا ما جناه مسلمو الأندلس في بعض دويلات عصر الطوائف من وراء هذا الانحراف. لقد أُهينوا وأُهين دينهم، وصاروا محكومين لليهود مع أنهم يعيشون في دار الإسلام وتحت حكمه، وصار بعض الضعفاء والجبناء من المسلمين مضطرين لنفاق اليهود ورؤسائهم.

---

(1) ابن حزم: رسالة التلخيص، ج3، ص173.

(2) الاكتفاء، ص77.

(3) سورة المائدة، آية: 51.

(4) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص32.

(5) مالك وآخرون، المدونة، م2، ج3، ص40-41.

الفصل الثاني:
العوامل الاجتماعية والاقتصادية

المبحث الأول: النزاع بين عناصر المجتمع الأندلسي.

المبحث الثاني: الترف.

المبحث الثالث: الضرائب ودفع الجزية للنصارى.

المبحث الأول:

النزاع بين عناصر المجتمع الأندلسي

لم يكن مستغرباً أن يجمع الإسلام تحت رايته في الأندلس إثنيات عرقية مختلفة، تمثلت في العرب والبربر والمولدين وغيرهم، إذ أن الأصل هو توحيد كل قوى الإسلام تحت رايته، حيث أن الدين الحنيف لم يفاضل بين الناس إلا بالتقوى فقد قال الله عز وجل: **(وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)**([1])، فلاَ فرقَ بيْنَ عربِيٍّ وأعجمِيٍّ ولاَ بيْنَ أبيضَ ولاَ أسودَ إلاَّ بالتَّقْوَى والعملِ الصَّالِحِ، فقال رسول الله ﷺ: "إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحد على أحد"([2])، وقد طبق المسلمون الأوائل هذه المبادئ عملياً فقد وصف الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلال الحبشي بالسيد، في وقت كان فيه بلال رضي الله عنه عبداً حبشياً لا يُعبأ له، وذلك عندما أعتق أبو بكر الصديق بلالاً؛ حيث قال عمر: بلال سيدنا وأعتقه سيدنا – يقصد أنا أبا بكر أعتق بلالاً –([3]).

وتتعدد شواهد التاريخ عند الحديث عن وحدة الأجناس تحت راية الإسلام، ومن هذه الشواهد أن أبا ذر عيّر بلالاً نفسه بوصفه بابن السوداء، فما أن ذهب بلال إلى النبي صلى الله عليه وسلم شاكياً أبا ذر الذي حط من شأنه، حتى قال رسول الله ﷺ: يا أبا ذر إن فيك جاهلية، قال قلت يا رسول الله: أَعَلى سني هذه من الكبر، فقال: إنك امرؤ فيك جاهلية، إنهم إخوانكم جعلهم الله فتية لكم تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من ثيابه ولا يكلفه ما يغلبه فإن فعل فليعنه عليه([4]) فما كان من أبي ذر ألا أن وضع رأسه على التراب مصراً على أن يطأ بلال وجهه بقدميه، حتى يكفر عن خطيئته، فعفا عنه بلال.

ولتأصيل روح المساواة بين المسلمين فإن النبي ﷺ قد نسب سلمان الفارسي إلى آل بيته الكرام، وذلك عندما تفاخر القوم بأنسابهم وآبائهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: سلمان منا آل البيت([5])، ويعتقد الباحث بأن هذه الشواهد تعطي صورة لا تقبل شكاً أو تأويلاً في أن الإسلام لم يميز بين الأجناس ولم يفاضل بينها بحسب الأنساب، بل إنه جعل المعيار المرجِّح للتفضيل هو تقوى الله عز وجل، والواضح أن الحيدة عن مبادئ الإسلام وتعاليمه تؤدي إلى ظهور النعرات

---

(1) سورة الحجرات: آية 13.

(2) ابو داوود: سنن، ج4، ص274، حديث رقم (4895).

(3) ابن حنبل: فضائل الصحابة، ج1، ص237؛ ابن تيميه: منهاج السنة النبوية، ج7، ص187.

(4) الصنعاني: مصنف عبد الرزاق، ج 9، ص446- 447، حديث رقم: 17965؛ ابن حنبل: مسند، ج5، ص161، حديث رقم (21469).

(5) الحاكم: المستدرك، ج3، ص598؛ الهيثمي: المجمع، ج9، ص118.

الطائفية؛ التي تنعكس سلباً على توحد المسلمين وقوتهم، وهو ما سيناقشه الباحث من خلال العناوين التالية.

وبالنسبة للمجتمع الإسلامي في الجزيرة الأندلسية بعد الفتح فقد كان يتألف من عناصر عدة، هي العرب والبربر والمولدين، وكانت البطون العربية المشتركة في فتح الاندلس تتمتع بروح قبلية متأصلة، وبرغم تأكيد الإسلام على المساواة إلا أنها لم تتحرر من تلك الروح القبلية، والتي كانت سبباً للشقاق والتنابذ، والحرب الأهلية بينهم، تلك الحرب التي استعرت بين المُضرية واليمنية، وبين الشاميين والبلديين (أهل الأندلس)([1]).

بداية الصراع العرقي وأسبابه:

أشار عنان إلى أن العرب كانوا أقلية في مجتمع الأندلس، ومثلوا الطبقة الراقية الغنية في البلاد، حيث استأثروا بمعظم غنائم الفتح؛ وقد استولت تلك الأقلية العربية حيناً من الزمن على أزِمّة الحكم، مسيطرين على معظم البقاع الخصبة في شبه الجزيرة الأندلسية، وقد استقرت تلك الطبقة في المدن الكبرى ولا سيما قرطبة، وتركت العمل في ضياعها الشاسعة للموالي والبربر([2])، ولا يستبعد الباحث وجود أنانية في النفس البشرية تدفعها للاستئثار بالمنفعة، وهو ما حصل لبعض العرب في الأندلس من استئثار بالسلطة؛ مما أثار نفوس الموالي والبربر وأشعرهم بالظلم، وبالرغم من ذلك فإن الباحث يرى بأن وصف عنان بالتعميم ينطوي على مبالغة شديدة في وصف أنانية العرب الفاتحين، ولعل ما يفند هذا الأمر هو أن القيادة العربية للفاتحين اعتمدت في جيشها على العنصر البربري كعنصر أساسي وهو الذي أسهم بشكل فعال في تسريع الفتح.

ويبدو من أسباب الخلاف أيضا بين العرب والبربر أن القوم ساروا على المبدأ الذي يرى بأن لكل يد ما أخذت، ولذلك فقد تعاقب حكام الأندلس؛ قوم في إثر قوم، فغلب قوم على آخرين، فعندما دخل البربر والأفارقة تمكنوا من السيطرة على كثير من القرى دون قسمة، ثم دخل الشاميون في طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيري؛ فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عما كان بأيديهم، كما فعل البربر، ولا فرق([3])، والناظر إلى هذه الأحداث يعلم تماماً بأن تنازع المسلمين في الأندلس على الدنيا قد أثّر تأثيراً سلبياً على قوة المسلمين فيها، وحملهم على استباحة حقوق الآخرين، وهو ما يعده الباحث من أخطر الآفات على الكيان الإسلامي المستوطن لأرض الأندلس والمجاور للنصارى من الإسبان.

---

(1) عنان: دولة الإسلام، ج1، ص203.

(2) عنان: دولة الإسلام، ج1، ص204.

(3) ابن حزم: رسالة التلخيص، ج3، ص175-176.

ولاية الهيثم بن عبيد الكلابي (الكناني) 106هـ - 107هـ:

كان عربياً متعصباً لقومه وقبيلته([1])، وقد ولاه الأندلس بشر بن صفوان أمير أفريقية زمن هشام([2]) ثم وليها الهيثم بن عبيد الكناني فقدمها في المحرم سنة إحدى عشرة ومائة فأقام واليا عليها عشرة أشهر وأياماً ثم توفي في ذي الحجة([3]).

ونظراً لشعور البربر في بعض مناطق الأندلس بالغبن فقد أعلنوا العصيان في جليقية واستورقه لوجود أكثرية بربرية فقتلوا العرب وطردوهم من البلاد، وفي سرقسطة كانت الغلبة للعرب، واستعان عبد الملك بن قطن ببلج بن بشر وأصحابه الشاميين المحاصرين في سبته لإخماد الثورة البربرية التي كادت أن تعصف به([4])، ووقعت معركة بين بلج بن بشر والجيش البربري بالقرب من شذونه 113هـ، صمد فيها بلج وجيشه وانتصر فيها العرب، ثم لحق بقرطبة فقاتل مع عبد الملك بن قطن([5]).

وما أن بدأت الحرب بين عرب الشام ضد بربر الأندلس حتى أبادوهم وأصابوا أمتعتهم ودوابهم فاكتسى أصحاب بلج من بعد عري، وشبعوا من بعد الجوع، وأصابوا الغنائم وانتعشوا، ثم نهضوا مع عبد الملك إلى قرطبة وساروا جميعاً إلى طليطلة، فلقيهم هناك معظم البربر فكانت هزيمة عظيمة بوادي سليط من أحواز طليطلة، وزحف عبد الملك وبلج بعرب الأندلس، وزحف البربر باجمعهم فهزمهم العرب وقتلوا منهم آلافاً([6]).

ويرى الباحث بأن الخاسر الوحيد من معارك المسلمين مع بعضهم البعض هو الوجود الإسلامي في الأندلس، حيث أن هذه المعارك قد لفتت أنظار المسلمين عن العدو الحقيقي لهم والمتمثل في نصارى الأندلس من الأسبان.

الفتنة بين عرب الأندلس وعرب الشام:

كان بلج بن بشر قد أعطى بعض الرهائن لعبد الملك بن قطن حتى يضمن عودته إلى سبتة بعد الانتهاء من ثورة البربر ، وكان من الرهائن رجلٌ غساني مات من العطش بين ابن قطن وبلج، فثارت اليمنية وطالبوا بلجاً أن يسلمهم ابن قطن ليقتلوه مقابل الرجل الغساني، وكان ابن قطن يومها قد بلغ التسعين، وقد شارك في يوم الحره وفر منها لأفريقيا، وكان أن هجموا عليه بداره بقرطبة فأخرجوه كأنه فرخ نعامة من الكبر؛ وهم ينادونه أفلت من سيوفنا يوم الحرة فطلبتنا

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج4، ص377؛ ابن عذاري: البيان، ج2، ص27؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص319.

(2) الحميدي: جذوة المقتبس، ج6، ص319.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج5، ص120.

(4) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص30.

(5) مجهول: أخبار مجموعة، ص44.

(6) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص31.

بثأرنا في الدواب والجلود، ثم أردت أخراجنا إلى القتل، ثم قتلوه وصلبوه، وبعد قتل ابن قطن ثار عرب الأندلس واتحد ابنا قطن أمية وقطن مع البربر ضد عرب الشام، وانضم إليهم عامل ابن قطن على أربونه عبد الرحمن بن علقمه وعبد الرحمن بن حبيب، والتقى الجيشان وهزم عرب الشام وقتل بلج([1]) ويعتقد الباحث بأن تجرؤ المسلمين على دماء بعضهم يزيد الفتنة اشتعالاً، ولا يسمح للمصلحين منهم بأن يعالجوا الخلل الاجتماعي الناجم عن مثل هذه الأفعال، وهكذا نرى بأن الطاقة الكامنة في نفوس المسلمين لم توجه في الاتجاه الصحيح، بل إنها صُرفت في صراعات داخلية عميقة، كان الخاسر الأكبر فيها هم المسلمون أنفسهم.

أبو الخطار الكتابي الكلبي والصميل بن حاتم المضري (128-125هـ):

تولى أبو الخطار الإمارة عام 125هـ، بأمر من حنظلة والي أفريقيا زمن هشام بن عبد الملك، ووصل إلى قرطبة ومعه كتاب حنظله وتسلم السلطة من ثعلبة بن سلامة العاملي وما إن وصل قرطبة حتى أطلق سراح الأسرى الذين أراد ثعلبة قتلهم وبيعهم واذلالهم ففرح الناس وسموا معسكره بمعسكر العافية، لإظهاره التسامح من اللحظة الأولى وأحل السلام وصارت الكلمة جامعة([2])، وكان من إذلال ثعلبة بن سلامة العاملي أن قتل عرب الأندلس وسبى ذراريهم ونزل بالقرب من قرطبة يبيع السبي، ومعه ما يزيد على عشرة آلاف نفس، فزاد في استحقارهم بأن كان يفتح المزاد بالنقص، حتى باع أحد رجال عرب قرطبة بكلب([3]).

حاول ابو الخطار أن يعيد الأمن والسكينة إلى الناس فأظهر التسامح والعدل، فأحبه الناس واجتمع عليه أهل الشام وعرب الأندلس ثم فرق الجند على مدن عدة، بعد أن كانوا كلهم في قرطبة، فوزعهم على البيرة واشبيلية وشذونه وجيام، وأبقى البلديين – أهل الأندلس- على أرزاقهم وأرضهم ففرحوا بذلك وفرح جند الشام لأنهم وجدوا أنفسهم في بلاد تشبه بلادهم فاستقر بهم المقام وتحسنت أحوالهم([4])

ورغم ما أظهره ابن الخطار من إحسان كان فيه السلامة والطمأنينة إلا أنه أساء إلى زعيم مضري وهو (الصميل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن)، وكان شجاعاً سخياً فالتف حوله المضرية والناقمين على أبي الخطار من اليمنية كجذام ولخم، فلما أهانه بعث الصميل إلى خيار قومه شاكياً فثاروا له، وتوجهوا إلى ثوابة بن سلامة الجذامي اليمني، وذهبوا لقرطبة فواجههم أبو الخطار فهزم وأسر، ثم أعلن اختيار (ثوابة) اليمني أميراً على الأندلس سنة 128هـ - 745م،

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص31.

(2) مجهول: أخبار مجموعة، ص24.

(3) المقري: نفح الطيب، ج1، ص237-238.

(4) ابن الآبار: الحلة السيراء، ج1، ص63.

فوافق على ذلك والي إفريقية عبد الرحمن بن حبيب الفهري، فضبط ثوابة الأندلس وعاونه الصميل فاجتمع عليه أهل الأندلس([1]).

ويرى الباحث بان النزاع العنصري الذي قام بين العرب والبربر، وبين عرب الشام وعرب الأندلس، كان صراعاً دموياً، لم يراعِ روابط الإسلام ولا روابط الدم، ولا روابط الانتماء إلي ارض واحدة هي الأندلس، وكما يلاحظ بأن ذلك الصراع كان في بدايات الوجود الإسلامي في الأندلس، مما يدلل علي أن النزاع العنصري كان باكراً في الأندلس، وكانت جذوره من تلك الفترة، والتي بالتأكيد ستكون سبباً جوهرياً لتفكك وضعف الحكم الإسلامي، وعلى المدى البعيد أودت الصراعات العنصرية بالوجود الإسلامي في الأندلس، وهناك أيضاً آثار ظهرت في المدى المنظور على أهل الأندلس وكان منها الجوع والجدب وغيرها.

آثار الحرب الداخلية

في سنة 131هـ - 749م، أمحلت الأندلس وتمادى المحل واستمر سنة أو سنتين، ثم سقي الناس سنة 133هـ-751م، وسبب المجاعة أن البربر هجروا المناطق الشمالية التي كانوا يسكنونها بعد ثورة 142هـ-760م، وكذلك يرجع سبب المحل إلى الفتنة التي اشتعلت نارها بين المضريّة واليمنية، ولم ينجُ من تلك المجاعة إلا سرقسطة، لوفرة مزارعها وخيراتها وكان معظم سكانها من اليمنيين([2])، وهكذا يتضح بأن آثار الحرب الداخلية تجاوزت في سوئها القتل والفرقة إلى دمار الاقتصاد لانشغال الناس عن مصالحهم بسبب هذه الحرب الأهلية.

ومن تداعيات الحرب الداخلية تمكن عبد الله بن عمر الأنصاري من يوسف الفهري الذي كون جيشاً من عشرين ألفاً وحاصر إشبيلية، واحتز الأنصاري رأس الفهري وذهب به إلى عبد الرحمن بن معاوية([3])، وأسرع عبد الرحمن بن معاوية بقتل أبي زيد بن يوسف وأبقى على أخيه الأصغر أبي الأسود، وكذلك بعث عبد الرحمن بن معاوية إلى الصميل من خنقه ليلاً فاستراح من أمره([4]).

وهكذا صفا الجو لعبد الرحمن بن معاوية دون منازع وانتهى على يديه العصر الأول من عصور الأندلس وهو عصر الولاة، واختفى من الميدان آخر رجلين كانا يمثلان ذلك العصر من تاريخ الأندلس، اختفيا حاملين معهما ثارات العصبية وأوضار القبلية، وتركا الأندلس لتقوم فيه دولة إسلامية واحدة، وكان من جميل أقدار بلاد الأندلس أن اختفى ذلك العصر المضطرب والذي مثله يوسف الفهري والصميل، ولو استمر لكان في ذلك بوار الأندلس الإسلامي جملة،

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص175.

(2) مجهول: أخبار مجموعة، ص156.

(3) مجهول: أخبار مجموعة، ص96.

(4) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 51؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ص 99.

وكذلك لطف الله بوجود عبد الرحمن بن معاوية، الذي قيضه الله لهذه البلاد وجعله سبباً في منع تحول تاريخ الإسلام في الأندلس إلى اختلاف وتفرق وحروب بين المسلمين، وبالتالي تعرضهم لاكتساح أعدائهم، وانتهى أمر الإسلام في أقل مما انتهى إليه فيما بعد([1])

والملاحظ بأن العهد الأموي الثاني في الأندلس، والذي ابتدأ مع عبد الرحمن الداخل، واكبه ذلك النزاع، ليتميز عهد الأندلس في زمن عبد الرحمن والأمويين عموماً وما بعدهم بتلك السمة الذميمة والمسماة بـ "الصراع بين عناصر المجتمع الأندلسي".

الصراع الأموي العباسي في الأندلس:

في سنة 146هـ-764م، ثار العلاء بن مغيث الجذامي بباجة، ودعا إلى طاعة أبي جعفر المنصور ونشر الأعلام السود-أعلام الدولة العباسية-؛ فاتبعه الأجناد، وتطلع له بعض الناس، فتعرضت دولة عبد الرحمن لخطر داهم، وأصبحت خلافته في وضع محرج، فخرج إليه من قرطبة، وصار بقرمونة؛ فتحصن بها مع مواليه وثقات رجاله؛ فنازله العلاء بن مغيث منازلة شديدة، وحاصره أياما عديدة؛ فلما طال الحصار، تخلخل جيش العلاء لذلك، وعلم عبد الرحمن ما هم عليه من الضجر والضيق، فأمر بنار فأوقدت، ثم أمر أصحابه بحرق أغمدة سيوفهم في إشارة إلى عزمه على حسم الأمر بالنصر وعدم التراجع عن سحق عدوه؛ فقال لهم: "اخرجوا معي لهذه الجموع، خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع" وكانوا نحو سبعمائة مقاتل، فدارت حرب شرسة بين الطرفين، إلى أن توّجت تلك الواقعة بنصره وهزيمة العلاء([2])؛ فقد زلزل قوم العلاء وأصحابه، فولوا منهزمين، وقتل العلاء فيمن قتل من رجاله، وطيف برأسه في ذلك المقام. وقيل إن أبا جعفر المنصور كان أرسل إلى العلاء بن مغيث بولاية الأندلس، فنشر الأعلام السود، وقام بالدعوة العباسية بالأندلس؛ فأيده بعض الناس، ولما ظفر به الأمير عبد الرحمن كما سبق ذكره، أخذ رأسه، وفُرّغ وحُشِيَ ملحاً، وجعل معه لواء أبي جعفر المنصور، وأدخل في سفط؛ وبعثه مع رجال، وأمرهم أن يضعوا السفط بمكة؛ فوافقوا المنصور بها حاجا في تلك السنة؛ فجعل السفط عند باب سرادقه. فلما نظر إلى ما فيه، قال:"إنا لله عرضنا بهذا المسكين للقتل، الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان -يعني عبد الرحمن-" ([3]).

شقنا بن عبد الواحد البربري:

كان خروجه بشرقي الأندلس في سنة 151هـ-769م، وكان من بربر مكناسة يعلّم الصبيان وكانت أمّه تُدعى فاطمة فادّعى أنه من ولد فاطمة رضي الله عنها وأنه من ولد الحسين،

---

(1) الشطاط: تاريخ الإسلام في الأندلس، ص94.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص199؛ النويري: نهاية الأرب،ج23، ص199.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص199؛ النويري: نهاية الأرب،ج23، ص199.

وتسمّى بعبد الله بن محمد وسكن شنتبرية واجتمع حوله كثير من البربر وعظُم أمرُهُ فسار إليه عبد الرحمن فلم يقف له، وزاغ في الجبال، فكان إذا أمن انبسط وإذا خاف صعد الجبال حيث يصعُب طلبه. واشتدّ ذِكر شقنا وطار اسمه([1])، وغلب على ناحية قورية([2])، وأفسد في الأرض ، فعاد عبد الرحمن وغزاه في سنة 152هـ-770م بنفسه، فلم يثبت له شقنا، فأعياه أمره فعاد عنه، وسير إليه في سنة ثلاثٍ وخمسين بدراً مولاه، فهرب شقنا وأخلى حصنه شيطرا، ثم غزاه عبد الرحمن بنفسه في سنة أربع وخمسين فلم يثبت له، فعاد عنه وبعث لحرْبه أبا عثمان عبد الله بن عثمان فخدعه شقنا وأفسد عليه جنده . فهرب عبد الله وغنم شقنا عسكره، وقتل جماعة من بني أمية كانوا في العسكر وذلك في سنة خمس وخمسين ومائة، وسار شقنا إلى حصن الهواريين وبه عامل لعبد الرحمن فمكر به شقنا حتى خرج إليه، فقتله وأخذ خيله وسلاحه وما كان معه. ولم يزل شقنا كذلك وعبد الرحمن يغزوه تارة بنفسه وتارة بجيوشه إلى سنة ستين ومائة فاغتاله أبو معْن وأبو خرَيم وهما من أصحابه، فقتلاه وأخذا رأسه ولحقا بعبد الرحمن واستراح الناس من شره([3])، وهنا فإن الباحث ينظر بعين الخطورة لتلك الأحداث التي لم تترك للأندلس مدة للاستراحة من الفتن والصراعات الداخلية، وهو بالتأكيد يلقي بظلاله على وضع المسلمين في الأندلس، تاركاً الحكم الإسلامي يعيش مدد متعاقبة من التخبط والضياع ومن المؤكد فإن ذلك قد أضعف شوكة المسلمين في تلك البلاد.

عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي:

في إطار الصراع بين حلفاء العباسيين وعبد الرحمن بن معاوية وفي سنة 160هـ-778م، عبر عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي و سمي به لطوله وزرقة عينيه وشقرته من إفريقية إلى الأندلس محاربا ليدخلوا في طاعة الدولة العباسية وكان عبوره في ساحل تدمير، وكاتب سليمان بن يقظان بالدخول في أمره، ومحاربة عبد الرحمن الأموي، والدعاء إلى طاعة المهدي وكان سليمان ببرشلونة فلم يجبه؛ فاغتاظ عليه وقصد بلده ومن معه من البربر فهزمه سليمان؛ فعاد الصقلبي إلى تدمير، وسار عبد الرحمن الأموي نحوه في العدد والعدة، وأحرق السفن تضييقا على الصقلبي في الهرب، فقصد الصقلبي جبلا منيعا بناحية بلنسية، فبذل الأموي ألف دينار لمن أتاه برأسه، فاغتاله رجل من البربر وحمل رأسه إلى عبد الرحمن؛ فأعطاه ألف دينار، وكان قتله سنة 162هـ-780م([4]).

---

(1) مجهول: أخبار مجموعة، ص107؛ ابن الأثير: الكامل، ج5، ص 200.

(2) قورية: بالضم ثم السكون والراء مكسورة وياء خفيفة مدينة من نواحي ماردة بالأندلس كانت خاضعة للمسلمين (انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ج4، ص412.

(3) النويري: نهاية الأرب،ج23، ص201.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج5، ص239.

طليطلة والصراع العنصري:

سكن طليطلة مزيج من السكان، بعد الفتح الإسلامي، واستمر طوال العصر الإسلامي من عناصر عديدة، منهم الفاتحين المسلمين من عرب وبربر، وأهل المدينة الأصليين من الأسبان فضلاً عن اليهود المقيمين في المدينة، ثم ما جد على سكان المدينة من جماعة المولدين التي نمت في العصر الإسلامي([1]).

كانت طليطلة مهيأةً للصراع والتمرد والعصيان على الأمير الأموي الحكم بن هشام المعروف بالربضي، والذي تولى الحكم عام 181هـ-797م، وذلك لكثرة المولدين فيها من أمثال بني مخشي وغيرهم، وكان يتزعمهم حين ذاك غربيب الطليطلي الشاعر، التي بلغت مكانته فيهم أن الحكم بن هشام لم يطمع فيهم وفيهم غربيب، وكانت أول ثورة لأهل طليطلة ضد الحكم بن هشام عقب ولايته، ففي سنة 181هـ-797م ثار عبيدة بن حميد بطليطلة، فجعل الأمير الحكم عامله على طلبيرة عمروس ابن يوسف الوشقي (المولد) لمحاربة عبيد بن حميد، فلم ينل منه، فلجأ عمروس إلى الحيلة فكاتب عمروس بني مخشي (المولدين) واستمالهم بالوعود وحرضهم على قتل عبيدة بن حميد واعداً إياهم بمثوبةٍ من الأمير بن هشام، فقتل بني مخشي عبيدة وحُمل رأسه إلى عمروس بطلبيرة فأنزلهم عمروس عند نفسه([2])، ثم تآمر عمروس ليتخلص من بني مخشي، وتستقيم له طليطلة، فتسلل إليهم جماعة من بربر طلبيرة كانت بينهم وبين بني مخشي ثارات ودماء فقتلوا من استطاعوا قتله وأجهز عمروس بنفسه على الباقين([3])، وبعث برؤوس بني مخشي مع رأس عبيدة ابن حميد إلى الأمير الحكم في قرطبة([4]).

يلاحظ بأن تلك الثورة لأهل طليطلة اشترك فيها المولدون والبربر والعرب، فالحكم بن هشام صاحب الامارة عربي، وقد قام بتوجيه عمروس المولدي للقضاء على عبيدة بن حميد، فاستغل عمروس بني مخشي المولدين للقضاء على بن حميد، وبعد قضائه على الأخير أحضر جماعة من البربر للقضاء على بني مخشي المولدين، وهكذا كان شأن الأندلس، صراع يضرب فيه العربي المولدي، والمولدي البربري، فيما العدو يتربص بهم ينتظر الفرصة لينقض عليهم.

مذبحة الحفرة (191هـ-806م):

تقرب عمروس بن يوسف لأهل طليطلة، وأظهر كرهه لبني أمية، ثم قام ببناء قصرٍ زاعماً بأنه للحشم والجند، وحفر حفرةً في وسط القصر، وبعدما تم البناء وسكنه عمروس، أوعز إلى أهل طليطلة بأن يأتوا إلى القصر بحجة إقامة طعام وكسوةٍ لهم، ليتحبب إليهم، ودعا وجوه أهل

---

(1) البيلي: طليطلة في عصرها الإسلامي ص106.

(2) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ص، 64.

(3) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص273.

(4) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص69.

طليلطة في الحاضرةٍ والبادية، فجاؤوا من بابٍ، وصرف دوابهم إلى باب آخر، ووقف السيافون على شفير الحفرة الموجودة وسط القصر وضربوا رقبة كل داخل من وجوه أهل طليلطة، حتى قتل منهم خمسة آلاف ونيف ولم ينج منهم إلا قليل([1]).

الواضح بأن عمروس قد جهز القصر خصيصاً وهيأه للمذبحة فجعل في القصر أبواباً عدة منها ما هو للضيوف ومنها ماهو للدواب، وهذه المساحة توحي بأن المكان يسمح بارتكاب مثل هذه المذبحة فيه، مع اعتقاد الباحث بأن هناك مبالغة في أعداد القتلى.

وفي رد طبيعي على تلك المذبحة ثار أهل طليطلة بقيادة هاشم الضراب سنة 214هـ-829م، فهاجم البربر في الثغر الأوسط وأوقع بهم، ودارت بهم الدوائر، وتطلع هاشم الضراب للسيطرة على الثغر الأوسط، والقضاء على جماعات البربر، إدراكاً منه بأن البربر يشكلون تهديداً خطيراً على أي ثورة، لذلك كان لا بد من القضاء عليهم، وفَهِم عبد الرحمن مرمى الضراب، فأرسل له قائده ابن رستم الذي لم يتمكن من ابن الضراب، فعنفه الأمير عبد الرحمن، وهنا دارت بينهم حربٌ عنيفة انتهت بقتل هاشم الضراب وكثيرٌ ممن كانوا معه، وقد بلغ تعدادهم الآلاف([2]).

الفتنة بين المضرية اليمنية (207هـ- 822م):

ثارت بمدينة تدمير فتنة بين المضرية واليمانية فاقتتلوا بمدينة لورقة، وكان بينهم وقعة تعرف بيوم المضارة؛ قتل منهم ثلاثة آلاف رجل، فوكل بكفهم ومنعهم يحيى بن عبد الله بن خالد وسيره في جميع الجيش، فكانوا إذا أحسوا بقرب يحيى تفرقوا وتركوا القتال، وإذا عاد عنهم رجعوا إلى الفتنة والقتال ودامت هذه الحرب بينهم على هذه الشاكلة مدة تصل إلى سبع سنين([3]).

وفي سنة 209هـ-824م كانت وقعة بمرسية كوقعة يوم المضارة بلورقة، قُتل فيها من المسلمين الكثير، والغريب في الأمر أن سبب هذه الفتنة بين المضرية واليمانية يعود إلى خلاف على ورقة دالية أخذها رجل مضري من جنة لرجل يماني؛ فقتله اليماني؛ فكان ذلك سبب الحروب التي دارت بين الفريقين؛ والتي امتدت على مدار أعوام عدة؛ وكانت الدوائر تدور أكثرها على اليمانية ومعظم القتلى منهم([4]).

وفي سنة 210هـ-825م أخذ عبد الرحمن رهائن أبي الشماخ بن إبراهيم مقدم اليمانية بتدمير؛ ليسكن الفتنة بين المضرية واليمانية، فلم ينزجروا ودامت الفتنة، فلما رأى عبد الرحمن ذلك أمر العامل بتدمير أن ينقل منها ويجعل مرسية منزلا ينزله العمال ففعل ذلك، وصارت مرسية هي قاعدة تلك البلاد من ذلك الوقت ودامت الفتنة بينهم إلى 213هـ-828م، فسير عبد

---

(1) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ص64؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص69.

(2) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص83.

(3) ابن الأثير: الكامل،ج5، ص470؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج23، ص220.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص175.

الرحمن إليهم جيشا فاذعن أبو الشماخ وأطاع عبد الرحمن وسار إليه وصار من جملة قواده وأصحابه وانقطعت الفتنة من ناحية تدمير ([1]).

عمر بن حفصون المولدي:

قام ابن حفصون باستقطاب سكان كور الريه وما جاورها إليه، وهذا ما يفسر اتساع منطقة نفوذه واتساع عدد أنصاره([2])، وكان سكان كوره ريه في معظمهم من المولدين ، حديثي العهد بالإسلام، كما أن كثيراً من القرى والمعاقل كانت وقفاً على العجم من أهل الذمة في كوره ريه والكور المجاورة([3]) ولما بلغ ابن حفصون موت الأمير محمد، استغل الموقف، فراسل الحصون التي بينه وبين الساحل كلها؛ فأجابته ودانت له، وتوجه إلى باغه وجبل شيبة؛ فأخذ من الأموال ما لا يوصف،على الرغم من تواضع قوته، وقلة ماله وعدده وربما يكون ذلك ناتجاً عن الزمن الذي ظهر فيه فإنه زمن فتنة وصراع وانقسام بين المسلمين في الأندلس، وهذا ما يفسر انقياد الناس إليه وقبولهم للخضوع لقيادته، بالإضافة إلى تودده للناس، وقد عمل على دغدغة عواطف الناس واستثارتهم بالقول: "طالما عنَّف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وأخرجكم من عبوديتكم"، فكان ابن حفصون لا يذكر ذلك القول لأحد من الناس إلا أجابه وشكره، فكانت طاعة أهل الحصون ناتجة عن ذلك([4]).

وفي ولاية المنذر سنة 273هـ- 886م، زادت غارات ابن حفصون لتشمل عدة حصون في كورة البيرة وجيان، وأسر عامل الأمير المنذر على مدينة باغُه([5])

توفى الأمير المنذر محاصراً لابن حفصون ببشتر، وقد يكون مات مسموماً بتدبير أخيه عبد الله([6])، وبعد وفاة المنذر شبت الفتنة بين العرب والمولدين والعجم، خاصة في البيرة واستعمل واستعمل العصبية، وقام المولدون ونصارى الذمة بدعوة عمر بن حفصون([7])، وفي عام 276هـ-276هـ-889م، اشتعلت فتنة أخرى في اشبيلية بين العرب بزعامة ابني خلدون وإبراهيم وبين المولدين، وكانت وقعه العرب بالمولدين في اشبيلية شبيهة بوقعة عرب غرناطة على المولدين والعجم([8]).

---

(1) ابن الأثير: الكامل،ج5، ص481.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص175.

(3) ابن حيان: المقتبس، ج5، ص179؛ الحميري: الروض المعطار، ص144.

(4) الطيبي: دراسات وبحوث، ص124.

(5) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص172.

(6) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص233.

(7) ابن حيان: المقتبس، ج3، ص50.

(8) ابن حيان: المقتبس، ج3، ص50.

ظل ابن حفصون يقود التمرد إلى أن ارتد عن الإسلام واعتنق النصرانية سنة 286هـ-899م، وكان قبل ذلك يسرُها، فانفض عنه المسلمون ورأوا بأن حربه جهاد فتتابعت عليه الغزوات بالصوائف والشواتي حتى ضعف أمره([1])، ثم اعترف ابن حفصون بالولاء والطاعة للسلطة المركزية في قرطبة سنة 303هـ-916م وغزا مع قوات الناصر بلاد النصارى، ومات سنة 305هـ-918م([2]).

الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر(327هـ-938 م):

في عهد الحاجب أبو عامر المنصور كثر البربر في جيشه، وأهمل رجال العرب، فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جنداً، واصطنع أولياء، وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم وكلهم من البربر؛ فتغلب على هشام المؤيد بالله ابن الحكم المستنصر(354هـ/965 م- 403 هـ/1013 م) وحجره واستولى على الدولة مع تعظيمه الخلافة والخضوع لها، ورد الأمور إليها وترديد الغزو والجهاد، وقدم رجال البرابرة من زناتة، وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر([3])، والذي دفع المنصور الي ذلك، هو رغبته في القضاء على أي تمرد قد يقوم يقوم ضده، فيما لو كان الجيش عربياً خالصاً أو من جنس واحد، فرأى أن يكون أجناداً من قبائل مختلفة وأشتاتاً متفرقة، فإذا خرجت طائفة عن طاعته، غلبها بسائر الفئات الأخرى، وزاد بجلب من يستطع الحرب ضد بلاد العدو وإرهاقها متى شاء، فجلب من رؤساء البربر أخيارهم وأشرافهم، وأشداءهم وفرسانهم، وكانوا هم سنده وعونه في حروبه ضد أعدائه، وكان جل اعتماده عليهم([4])، وبتفضيل المنصور للبربر على العرب أوجد اختلالاً خطيراً في الميزان العنصري حيث رجحت كفة البربر؛ مما أوغر صدور العرب وغرس الحقد في نفوسهم، وكذلك حول بذلك الفعل العصبية العربية القديمة، إلى نوع من التضامن والتكتل القومي، ليصبح هدفها الأول مواجهة العناصر الجديدة الطارئة على الأندلس متمثلة بالصقالبة والبربر([5]).

سليمان المستعين (354هـ- 407هـ):

كان دخول سليمان المستعين قصر قرطبة في عام 403هـ-1013م، وذلك بفضل أتباعه من بربر (صنهاجة)([6])، وكانت مدة حكم سليمان لقرطبة هي ست سنين وعشرة أشهر، وكانت

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص193.

(2) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص161.

(3) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص189؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص397.

(4) ابن بلقين: التبيان، ص17.

(5) سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ص83-84.

(6) ابن الخطيب: أعمال الاعلام، ص120.

كما وصف ابن حيان: "شداداً نكدات صعاباً مشئومات كريهات المبدأ، والفاتحة قبيحة المنتهى، والخاتمة لم يعدم فيها حيف ،ولا فورق فيها خوف ولا تم سرور، ولا فقد محذور، مع تغير السيرة وخرق الهيبة واشتعال الفتنة واعتلاء المعصية، وظعن الأمن، فاستشعروا بغضه وانقادوا لكل من عانده، ورد أمره من عبد أو حر فزعاً إليهم منه ويأساً من خير يجيئهم من برابرته، فكان ذلك سبباً في تفريق البلاد وتملك أصحاب الطوائف"([1])، كما قام سليمان المستعين بتقسيم بعض كور الأندلس بين أنصاره من رؤساء القبائل البربرية إرضاءً لهم وتزلفاً([2])، وذلك الأمر أدى بفتيان العامريين إلى الفرار لشرق الأندلس خوفاً على أنفسهم من بطش البربر، فقاموا بتكوين دويلات لهم بشرق الأندلس، وكان انتصار البربر سبباً في اعتماد الأطراف المتخاصمة على القوى المسيحية في الصراع بينهم([3]).

وفي صراع سليمان المستعين مع محمد بن عبد الجبار الملقب بـ (المهدي) استعان سليمان بشانجة بن غرسية ملك قشتاله وذلك سنة (400هـ-1010م) دخل سليمان ظافراً ووضع البرابرة والنصارى السيوف في رقاب أهل قرطبة، فقتلوا منهم في وقت واحد أزيد من ثلاثة آلاف رجل، بعدما مال النصارى على المسلمين المنهزمين([4]).

وبعد هزيمة المهدي حذا حذو سليمان فاستنجد بملك برشلونة (أرمقند) فأمده بتسعة ألاف من الجنود مقابل أن يتخلي عن مدينة سالم، وبفضل تلك المساعدة استرجع قرطبة وهزم المستعين، وتبعه مع جيشه البربري ولكنه هزم من جديد في معركة في وادي (يارو)، ثم هرب إلي قرطبة مهزوم أمام قوات البربر بقيادة المستعين([5])، وكان من نتيجة ذلك الصراع الاستعانة (بشانجة) فما كان من (شانجة) إلا أن أرسل إلي هشام المؤيد، مطالباً منه تسليم الحصون حتي لا يمد سليمان بالعساكر، وكان هشام قد جاء بعد مقتل المهدي علي يد (واضح) الذي كان نصيراً له، فاستجاب هشام و أرسل مع رسل (شانجة) في قرطبة انه سيسلم لملكهم ما يزيد علي 200 حصن لقاء تخليهم عن نصرة سليمان وتم ذلك في المحرم سنة 401هـ-1011م([6]).

يلاحظ بان تلك الفترة تميزت بالصعوبة ومخالفتها للمعتاد من تاريخ المسلمين، فقد ظهرت تلك المآسي التي استجلبها سليمان المستعين ومن خالفه، وذلك بتقوية البربر علي العرب، وجعل

---

(1) ابن بسام: الذخيرة ، ج 1، ص 36-37.

(2) ابن الخطيب: أعلام الأعلام، ص119.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص89.

(4) ابن بسام: الذخيرة، ج 1، ص،30.

(6) المقري: نفح الطيب، ج1، ص404.

(5) المقري: نفح الطيب، ج1، ص404.

(6) المقري: نفح الطيب، ج2، ص.30.

اليد العليا لهم، وإعطائهم الحظوة مما أثار النزعة العنصرية المتّقدة أصلاً، وأدى ذلك إلى استعانة المهدي المهزوم بالنصارى، ومن قبله استعان سليمان بهم، مما أدي إلى إعمال السيف (القشتالي) في رقاب المسلمين، ثم منح الحصون المهمة من قبل هشام المؤيد لملك (قشتالة) وضياعها من المسلمين.

وكانت نتيجة الفتنة التي اشتعلت بين سليمان والبربر من جهة وبين المهدي والعرب من جهة أخرى أن سقطت الخلافة الأموية عام 422هـ-1031م)، وتعرضت قرطبة لنقمة الثائرين من أراذل أهلها ومن البربر الذين انقلبوا علي أهلها واستباحوا دمائهم وعاثوا فساداً في جنباتها الي أن شمل الخراب والدمار معظم عمائرها علي أيام سليمان المستعين([1]).

يلاحظ بأن الصراع الذي قام في الأندلس كان يحمل عدة أوجه، وهناك صراعاً بين الأمويين والعباسيين أو حلفائهم، كما كان هناك صراع عنصري ما بين العرب والبربر والصقالبة والمولدين، وكذلك امتد الصراع على مساحات جغرافية واسعة، ومهمة جداً، فهو قائم في قرطبة وطليطلة، وهما من حواضر الأندلس الأهم، كما أنه استمر لمدة طويلة من الزمن تبدأ من تأسيس الدولة الاسلامية في الأندلس وحتى عصر الطوائف، ومن المؤسف أن بعض المنتفعين من المسلمين لم يكتفوا بقتال إخوانهم في الدين بل إنهم استعانوا بالنصارى الحاقدين على الإسلام، وهو ما مثّل فرصة مميزة للنصارى كانوا ينتظرونها بشوق من أجل إلحاق الأذى والنكاية بالمسلمين، كما تنازل هؤلاء المنتفعون عن أجزاء مهمة من البلاد كان الفاتحون الأوائل قد فتحوها ببذل دمائهم وأموالهم، وسلموا كثيراً من الحصون للنصارى، وكان هذا الصراع الدامي الممتد عبر تاريخ وجغرافيا الأندلس عاملاً مهماً من عوامل السقوط وما زال.

ولو أراد الباحث التوسع في ذكر النزاعات العنصرية التي كانت في دولة الأندلس لاستغرق ذلك عشرات ان لم يكن مئات الصفحات، ولذلك فقد آثر الباحثأن يذكر بعض الشواهد على تلك الطامة التي أصابت الأندلس لتبيين أثر تلك النزاعات على دولة الأندلس.

---

(1) سالم: قرطبة حاضر في الخلافة ص109.

المبحث الثاني:
الترف في الأندلس.

تعريف الترف

في اللغة: هو التنعم، والمترف: الذي أبطرته النعمة وسعة العيش([1])، وأترفته النعمة أي: أطغته([2]).

الترف من المنظور الإسلامي:

لم يرد في القرآن الكريم أي ذكر للترف والمترفين على سبيل المدح، بل على العكس من ذلك فلم يذكر القرآن الكريم الترف والمترفين إلا بالنقيصة والذم.

وفي القرآن الكريم وردت كلمة الترف ومشتقاتها ومدلولاتها في مواضع عدة منها ما ورد في سورة هود قال الله عز وجل في وصف الكفار: **(فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا مآ أترفوا فيه وكانوا مجرمين)**([3])، وقال عز وجل: **(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)**([4])، كما ورد معنى الترف بمعنى النعيم والتنعم في سورة المؤمنين حيث يقول تعالى: **(وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)**([5])، ومرة أخرى وردت في سورة الإسراء في قوله تعالى: **(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)**([6]).

وقال عز وجل: **(وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ)**([7]) وهناك الكثير من الآيات التي تتحدث عن الترف في القرآن الكريم يكتفى الباحث بذكر ما سبق منها خشية الإطالة.

---

(1) ابن منظور: لسان العرب، ج9، ص17.

(2) الرازي: مختار الصحاح، ج1، ص32.

(3) آية 116.

(4) سورة مريم: أية 59.

(5) آية 33.

(6) آية 16.

(7) سورة الأنبياء: آية 11-13.

والملاحظ في الآيات السابقة أن الترف ذكر في القرآن الكريم وقد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالفساد وإضاعة الصلاة والكفر والتكذيب بلقاء الله ثم بإهلاك القرى إذا ما سلط عليها المترفون، وعادة ما تأتي عادة الترف بالهلاك على أصحابها.

موقف النبي ﷺ من الترف:

كانت حياته ﷺ أبعد ما تكون عن الترف والبذخ ورخاء العيش، وكذلك كان حثه للمؤمنين بل ولأهل بيته أن يزهدوا في الدنيا ويرغبوا في الآخرة، فعن النبي ﷺ أنه قال: عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا قلت لَا يا رَبِّ وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا، وقال ثَلَاثًا أو نحو هذا، فإذا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وإذا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ([1])، وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم: "لِيَكْفِ الْيَوْمَ مِنْكُمْ كَزَادِ الرَّاكِبِ"([2]).

وفي وصيته لعائشة رضي الله عنها قال النبي ﷺ: "أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَلْيَكْفِكِ من الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الْأَغْنِيَاءِ ولا تستخلعي ثَوْبًا حتى تُرَقِّعِيهِ"([3]).

إن الإسلام دين واقعي يتعامل مع الإنسان كله مع الإنسان: وروحه ووجدانه، جسمه، وعقله حاجتها، ويطالبه أن يغذيها جميعا، بما يشبع، في حدود الاعتدال الذي هو صفة عباد الرحمن حيث قال المولى عز وجل: (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما)([4])، والمتأمل لهذه الآية لا يرى منعاً للتمتع بخيرات الدنيا، لكنه يستنبط منها ضرورة الاعتدال في الأمور، فمنهج الإسلام هو المنهج الوسطي، وهذا الاعتدال ينسحب على جميع مناحي الحياة سواء ما يتعلق بالروح أو الجسد أو العقل([5]).

الترف في الأندلس:

لقد أشار ابن خلدون إلى ما وجد في عهده من بقايا التراث الأندلسي في مجال الغناء وذكر بأن ذلك التراث لم يكن وليد عصره، بل هو امتداد لتاريخ مسلمي الأندلس الطويل في تلك البلاد وفي ذلك يقول: "وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الأحقاب وتداول الأحوال وتكررها، وهذه لم تبلغ بعد. وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد، فإنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها، كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش في القصور"([6]).

---

(1) الترمذي: سنن الترمذي، ج4، ص575، حديث رقم (2347).

(2) ابن حبان: صحيح، ج2، ص481، حديث رقم (706).

(3) الترمذي: سنن الترمذي، ج4، ص245، حديث رقم (1780).

(4) سورة الفرقان: آية 67.

(5) القرضاوي: الإسلام والفن، ص6.

(6) مقدمه، ص402.

الحسن بن علي بن نافع المعروب بـ "زرياب":

لا شك بأن زرياب يعد المثال الأبرز والدليل الأوضح على أن الأندلس عايشت الترف وواقعته في جميع المناحي الحياتية، ويلاحظ الدور الكبير الذي قام به زرياب في مجال الترف الفني، فهو رائد التجديد الموسيقي؛ لأنه أضاف إلى العود وتراً لم يكن فيه، وكان له سيطرة مطلقة على أوتارها وصوت عذب، وهو رائد التنويع الغنائي في الموسيقى العربية بإشراك المغنين والمغنيات إلى جانب المغني الرئيس([1])، وكذلك لم تكن شهرته في الغناء فقط بل أحدث نقله نوعية في الحياة الاجتماعية الأندلسية، فعلى سبيل المثال نقل معه الذوق الشرقي وتعدد الأصناف في الطعام، وآداب الموائد التي لا زالت في كثير من ملامحها سائدة هذه الأيام، وكذلك في مظاهر الأناقة حيث ابتكر هو وأسرته طريقة خاصة لتصفيف الشعر، والتنويع في الألبسة، فأصبحت الثياب فاتحة اللون تلبس في الربيع، والبيضاء في الصيف، والمعطف والقبعات من الفرو في الشتاء([2])، وهكذا لم يخلُ جانب في المجتمع الأندلسي إلا ولزرياب نصيب فيه من ابتكاراته وذوقه، وهكذا أصبح أحد رموز الترف في الحضارة الأندلسية([3])، وهنا تجدر الإشارة إلى أن أفكار زرياب لم يكن لها لتنجح لو لم يكن لها أرضية خصبة وقابلية لدى الأندلسيين، بمعنى أن نفوس الأندلسيين المترفة كانت على جاهزية تامة لاستقبال كل ما يُطرح عليها من أحوال الترف وأدواته وأشكاله.

حفاوة عبد الرحمن الثاني (الحكم) لزرياب:

راسل زريابُ أميرَ الأندلس الحكم وذكر له رغبته في المجيء إلى الأندلس، وأخبره بما لديه من مواهب وقدرات، وطلب منه الإذن في الوصول إليه فوافق الحكم على ذلك، مبدياً سروراً وسعادة غامرة لذلك([4])، ثم استقبل الأمير عبد الرحمن زرياباً استقبالاً حاراً وبالغ في أكرامه([5]) وأرسل الحكم كتاباً وضح فيه تطلعه إلي زرياب والسرور بقدومه عليه، وكتب إلى عماله على البلاد أن يحسنوا إليه ويوصلوه إلى قرطبة، وأمر خصياً من أكابر خصيانه أن يتلقاه ببغال وآلات حسنة، فدخل هو وأهله البلد ليلاً وأنزله في دار من أحسن الدور، وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه، وخلع عليه، وبعد ثلاثة أيام استدعاه وأمر له بمبلغ مائتي دينار كل شهر، إضافة إلى منح أبناء زرياب –الذين قدموا معه وكان عددهم أربعة– راتباً شهرياً، كما منح الحكمُ زرياباً ثلاث

---

(1) بيضون: الدولة العربية، ص253.

(2) الشطاط: تاريخ الإسلام في الأندلس، ص131.

(3) بيضون: الدولة العربية، ص253.

(4) المقري: نفح الطيب، ج3، ص124.

(5) ابن عبد ربه: العقد الفريد،ج7، ص37.

ماكفئات مالية سنوياً، بالإضافة إلى مكافئات خاصة بالمهرجانات التي يقيمها، هذا سوى إقطاعيات الدور والبساتين والضياع التي منحها الحاكم لزرياب([1]).

وقد كان لزرياب من المكانة عند الأمير عبد الرحمن ما جعله يشفع في الرعية، وتكون شفاعته مجابة ومحققه، ومن ذلك أن الأمير عبد الرحمن ولى بعض القضاة للقضاء بطلب من زرياب([2]).

يُلاحظ بأن شخصية زرياب ثار حولها الجدل حيث أن بعض المؤرخين المعاصرين ينظرون إليه على أنه جزء من الحضارة الأندلسية، إلا أن الباحث يعتقد بأن زرياب كان عاملاً من عوامل الانتكاس الحضارى الأندلسي خاصة وأن الحضارات التي يقرها الإسلام لا يكون من أعمدتها الغناء والموسيقى وما يُضاف إليها من مجالس راقصة، كذلك ليس من أعمدة الحضارة والتمدن المبالغة في التفنن في المطاعم والمشارب والتزين بملابس الصيف والشتاء، وإن كانت الزينة والتجمل أمر محبب في ديننا حيث قال تعالى (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ)([3]).

والواقع أن المكانة التي بلغها زرياب بفنه كانت مكانة سامقة والسبب في وصوله إليها أن الأمير نفسه هو من أوصله إليها، فإذا كان الأمير محباً للترف، مشجعاً على المجون، فما بال الرعية إذاً، وكما يقال في القول الشهير فإن الناس على دين ملوكهم، فمن غير المستغرب والحال هذه أن تتبع الرعية نفس خطى حكامها في الميل إلى الترف والجنوح إلى الشهوات، وهي الطريق الموصلة في نهايتها إلى الهلاك والاضمحلال.

الترف في البناء:

لقد بُذلت المبالغ الطائلة وأهدرت الثروات التي لا تُقدر في بناء البيوت والقصور والمساجد والحدائق العامة في الأندلس، ورب قائل يقول بأن هذا أمراً مباحاً خاصة إذا توفرت الأموال، ولكن الحكم في سلوكنا كمسلمين هو كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ والصحابة الكرام، فآيات القرآن الكريم حثت على عدم الإسراف البذخ في البناء يقول تعالى ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آَيَةً تَعْبَثُونَ﴾([4])، ونهى النبي ﷺ فقال: "فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غدا تزولون، وعنه منتقلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون، وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون، وفيه تخلدون.

---

(1) المقري: نفح الطيب، ج3، ص125.

(2) ابن الآبار: التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص114.

(3) سورة الأعراف: الآية 31.

(4) سورة الشعراء: الآية 128.

الترف في بناء المساجد:

آثر الباحث أن يكون الحديث عن الترف في المساجد أولاً وذلك لأن أول بناء كان يبنى في حواضر الإسلام ومدنه المسجد، كما فعل ذلك النبي ﷺ، ولربما ويقول البعض بأن الإنفاق على المساجد من أَجَلِّ القربات إلى الله وأعظمها، حيث قال النبي ﷺ:"من بنى لله بيتا كمفحص قطاة بنى الله له قصرا في الجنة"([1])، ولأننا في اختلافنا في الأمور نرجع إلى الله ورسوله لقوله تعالى"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا "([2])، فمسجد النبي كان غاية في البساطة، فليست سواريه سوى جذوع نخل وسقفه الجريد([3])، وبمقارنة سريعة لمسجد النبي مع مسجد قرطبة يتضح مدى الفرق بين المسجدين فمسجد النبي لم يكن سوى مكان مبنيّ بمواد بناء بسيطة بعيدة كل البعد عن التكلف، فيما مسجد قرطبة يعد أول أشكال البناء المترف للمساجد في الأندلس، والذي بناه عبد الرحمن الداخل رحمه الله، وبذل في بناءه ثمانين ألف دينار ومات قبل أن يتمه([4]).

ويمكن للباحث هنا استدعاء كلام المقري والاستعانة به لبيان حال مسجد قرطبة، فقد قال المقري في وصفه: "فشهرته تغني عن كثرة الكلام فيه، ولكن نذكر من أوصافه وننشر من أحواله ما لا بد منه، فنقول: قال بعض المؤرخين: ليس في بلاد الإسلام أعظم منه، ولا أعجب بناء وأتقن صنعة، وكلما اجتمعت منه أربع سواري كان رأسها واحدا، ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد في أعلاه وأسفله، وكان الذي ابتدأ بناء هذا المسجد العظيم عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل، ولم يكمل في زمانه، وكمله ابنه هشام، ثم توالى الخلفاء من بني أمية على الزيادة فيه ، حتى صار المثل مضروباً به، والذي ذكره غير واحد أنه لم يزل كل خليفة يزيد فيه على من قبله إلى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء. وقال بعض المؤرخين: إن عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره وعظم بنى القصر بقرطبة، وبنى المسجد الجامع، وأنفق عليه ثمانين ألف دينار، وبنى بقرطبة الرصافة تشبيها برصافة جده هشام بدمشق"([5]).

وفي بناء الزيادة التي أضيفت للمسجد قال دحية بن محمد البلوي:

وأنفق في دين الإله ووجهه ثمانين ألفا من لجين وعسجد

توزعها في مسجد أسه التقى ومنهجه دين النبي محمــد

---

(1) ابن حبان: صحيح ابن حبان، ج4، ص490، ح1610.

(2) سورة النساء: أية 59.

(3) أبو داود: سنن أبي داود، ج1، ص123، ح452.

(4) نفح الطيب، ج1، ص329.

(5) نفح الطيب،ج1، ص545

ترى الذهب الناري فوق سموكه   يلوح كبرق العارض المتوقد

وقد كمل بناء المسجد عام 170هـ-786م([1]).

أما الخليفة الناصر فقيل أنه أنفق في صومعة المسجد وتعديله، وبنيان الوجه للبلاطات الأحد عشر بلاطة، سبعة أمداد وكيلين ونصف كيل من الدراهم القاسمية([2])، وجملة ما أنفق عبد الرحمن الناصر في بناء مدينة الزهراء وقصورها خمسة وعشرون مداً من الدراهم القاسمية، وستة أقفزة وثلاثة أكيال ونصف([3]).

يُلاحظ بأن الفرق كبير جداً ما بين بناء النبي ﷺ، لأول مسجد في الإسلام، وما كان عليه ذلك المسجد من بساطة وتقشف، وما بين ذلك المسجد الذي تتابع على بناءه ثمانية من خلفاء المسلمين، ولن نسهب بالقول ونحن نجري هذه المقارنة، فنحن أمام نموذجين، نموذج يقف على رأسه النبي ﷺ، والنموذج الثاني يقف على رأسه خلفاء الإسلام.

مسجد طليطلة:

وكذلك نقف أمام مسجد طليطلة الذي وصفه بن المهدي الغزال الفاسي، الذي زار طليطلة سنة (1180هـ- 1767م)، فقال: "من أعظم المساجد، اجتمع فيه ما افترق في غيره، فهو أعلى من مسجد قرطبة، وقريب منه في طوله وعرضه؛ إذا أضيف إليه المقاعد والمخازن المتصلة به من نواحيه الأربعة، وسواريه ليست كغيرها، من السواري التي بالمساجد، كل سارية محيطة بها ثمان سواري متصلة بها، متقدم عليها أقواس في غاية العلو، وبناء الجامع وسط، وسواريه من الرخام، وبوسط المسجد قبة طولها 72 قدما، والعرض مثله، وأبواب الجامع إحدى عشر، منها ثمانية من الجهات الثلاث، والجهة الرابعة استقلت بثلاثة أبواب متصلة بعضها ببعض، وبإزاء أحد الأبواب الثلاثة منار المسجد، وهو غاية في العلو مدارجه 350 درجة([4]).

إن مسجدي قرطبة وطليطلة ما هما إلا نموذجاً فقط للبذخ الشديد الذي صاحب بناء المساجد في الأندلس، ولو أردنا أن نتتبع باقي عمارة المساجد وما انفق عليها لضاق بنا المقام ولكنا ذكرناهما على سبيل المثال لا الحصر.

الترف في بناء القصور:

وأول ما يطالعنا في هذا اللون من الترف عبد الرحمن الداخل رحمه الله، الذي عني بقصر الإمارة، وقد وسع ذلك المقر، فأنشأ لنفسه وعياله أجنحة عديدة، إذ رفض أن يسكن

---

(1) نفح الطيب، ج1، ص561.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص242..

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص242..

(4) نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، ص163.

الأجنحة التي سكنها من سبق من الأمراء فصارت سنةّ سار عليها من جاء بعده من الحكام، وإليه ينسب إيصال الماء إلى القصر من عيون تنبع من الجبال المجاورة بقرطبة([1]).

الترف في عهد الناصر:

يعتبر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الناصر من أكثر خلفاء الأندلس اهتماما بالبناء المترف، فقد خصص لذلك ثلث أموال جبايته للبنيان([2])، وكان (الناصر) أول من دُعي بالأندلس بأمير المؤمنين، وكان جيشه مائة ألف، وكان يعطيهم ثلث جبايته، ويختزن ثلثها، ويتصرف في ثلثها، وكانت خلافته خمسين سنة([3]). وكان –رحمه الله– ملكا أزال الأواء؛ وحسم الأدواء، وقهر الأعادي، وعدل في الحاضر والبادي؛ قد أسس الأوس؛ وغرس الغروس، واتخذ المصانع والقصور، وترك أعلاما باقية إلى النفخ في الصور، فاعتبر بالزهراء كم بها من قصر مشيد، وآثار ملوك صيد([4])، ونسب إلى الناصر أبياتاً من الشعرِ يمجد فيها البنيان:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها	من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين كما بقيا وكم	ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء اذا تعاظم قدره	أضحى يدل على عظيم الشان([5])

مدينة الزهراء وسبب بناؤها:

المسافة بين قرطبة ومدينة الزهراء خمسة أميال([6])، وذكر الشيخ محي الدين بن العربي في سبب بنائها، أن جارية أثيرة من جاريات الناصر ماتت، وتركت أموالاً كثيرة، فبحث في وجهٍ ينفق فيه المال، فأراد أن يفك أسرى المسلمين من الفرنجِ فلم يجد، وكانت له جارية أثيرة اسمها الزهراء، فرجته أن يبني مدينةً يسميها باسمها، وتكن خاصة بها، فحقق رجاها، وبنى المدينة في السفح الجنوبي لجبل العروسي، وأتقن بناءها، وأحكم الصنعة فيها، وجعلها متنزهاً، ومسكناً لجاريته الزهراء وحاشية أرباب دولته، وسمى المدينة باسمها، ونصب تمثال الزهراء فوق بابها، وبعد انتهائه من بناء القصور جلس مع جاريته الحسناء في مجلس الزهراء، وشاهدت بياض مبان المدينة، بجانب الجبل الأسود الذي أقيمت على سفحه، فطلبت من الناصر أن يزيل الجبل لأنه يشوه منظر المدينة، ولكن بعض جلسائه أثنوه عن ذلك لاستحالة هدم الجبل، فأمر بقطع شجره

---

(1)الشطاط: تاريخ الإسلام، ص102.

(2) المقري: نفح الطيب، ج1، ص355؛ ابن الخطيب: أعلام الأعلام، ص38.

(3) الغرناطي: القوانين الفقهية، ج1، ص275.

(4)ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص239.

(5) المقري: نفح الطيب، ج2، ص62.

(6) الادريسي: نزهة المشتاق، ص212.

وغرسه تيناً ولوزاً، وكان لذلك أكثر الآثار في تجميل مدينة الزهراء، خاصة في زمن الربيع عندما تتفتح الأزهار بين الجبل والسهل([1]).

وقيل غير ذلك، وواضح في هذه القصة عنصر التشويق وعلى ما يبدو أنها رواية خيالية نقلها القطب الأكبر بن عربي على لسان بعض أهالي قرطبة وكانت مما تواتر عندهم على مدار السنين([2]).

يميل الباحث إلى رأي السيد عبد العزيز سالم السابق، خاصة وأن الناصر كان عنده الكثير من الجواري الأثيرات، كما أن الناصر قد سبق وعرفنا بأن حب البناء عنده عادة، بدليل أنه كان ينفق على البناء ثلث موازنة الدولة، والراوية السابقة يرويها بن العربي عن بعض الناس دون أن يحدد، وكأنها من أحاديث العامة التي يتسلى بها الناس كما ذكر السيد سالم.

وقد بنيت المدينة أنفة الذكر أيام الناصر من أول سنة (325هـ–937م)، وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ستة آلاف صخرة سوى التبليط في الأسوس؛ وجلب إليها الرخام من قرطاجنة إفريقية ومن تونس؛ وكان الأمناء الذين جلبوه عبد الله بن يونس، وحسن القرطبي، وعليٌّ بن جعفر الإسكندراني؛ وكان الناصر يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير، وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية([3])، وكان فيها من السواري أربعة آلاف سارية وثلاثمائة سارية وثلاث عشرة سارية، المجلوبة منها من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية. وأهدى إليه ملك الروم مائة وأربعين سارية؛ وسائر ذلك من رخام الأندلس، وأما الحوض الغريب المنقوش المذهب بالتماثيل، فلا قيمة له، جلبه ربيع الأسقف من القسطنطينية من مكان إلى مكان حتى وصل في البحر؛ ووضعه الناصر في بيت المنام، في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس؛ وكان عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر، مرصع بالدر النفيس العالي، مما صنعه بدار الصنعة بقصر قرطبة. وكان المتولي لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم، لم يتكل الناصر فيه على أمين غيره، وكان يخبز في أيامه كل يوم يرسم حيتان البحيرات ثماني مائة خبزة، وهذا من أعظم الأشياء إلى ما فوق ذلك([4]).

كما أن أمير المؤمنين عمل في بعض سطوح الزهراء قبة بالذهب والفضة وجلس فيها ودخل الأعيان، فجاء منذر بن سعيد فقال له: الخليفة كما قال لمن قبله، هل رأيت أو سمعت أن أحدا من الخلفاء قبلي فعل مثل هذا، فأقبلت دموع القاضي تتحدر ثم قال: والله ما ظننت يا أمير المؤمنين إن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ أن أنزلك منازل الكفار ثم تلا: (**وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ**

---

(1) المقري: نفح الطيب، ج2، ص65.

(2) سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، ص234.

(3) المقري: أزهار الرياض، ج1، ص195.

(4) المقري: أزهار الرياض، ج1، ص195.

أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)([1])، فنكس الناصر رأسه طويلا ثم قال: جزاك الله عنا خيرا وعن المسلمين، الذي قلت هو الحق وأمر بنقض سقف القبة([2]).

لقد كان إنكار المنذر بن سعيد على الخليفة الناصر لأنه كان قد اتخذ، سقف القبيبة المصغرة، جاعلها من قراميد مغشاة ذهباً وفضة، أنفق عليها مالاً جسيماً، فشتت الأبصار بأشعة أنوارها، وجلس فيها يوماً، اثر تمامها، لأهل مملكته، فقال لقرابته منهم من الوزراء وأهل الخدمة، مفتخراً بما صنعه من ذلك: هل رأيتم أو سمعتم ملكاً كان قبلي فعل مثل فعلي هذا أو قدر عليه؟ فقالوا: لا يا أمير المؤمنين وإنك لواحد في شأنك كله، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره فابهجه([3]).

يمكن القول بأن القاضي الفقيه منذر بن سعيد رحمه الله، قد عبر بلسان حاله ومقاله عن رفضه لحالة البذخ الشديد، الذي يتجاوز أعلى معاني الترف في البناء، فالنص السابق يكشف عن نفسه بوضوح في حجم الذهب والفضة والرخام، وكل الكماليات التي وضعت في ذلك البناء، وفي هذا المقام لا يمكننا أن نقول أكثر مما قال القاضي الورع المنذر بن سعيد، ويلاحظ أيضاً أن الخليفة الناصر رحمه الله ما كان جباراً ولا متعنتاً، على عادة الملوك الظالمين؛ بل استجاب لنصح القاضي المنذر ونقض ما بناه، أو أجزاء منه، وهنا يحضر السؤال وهو أن ذلك البناء والنقض الذي قام به عبد الرحمن الناصر كم استنزف من موازنة الدولة؟!.

وفي صدر تلك السنة كمل للناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التي ويجرى فيها الماء العذب، من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة، في المناهر المهندسة وعلى الحنايا المعقودة يجري ماؤها، بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة([4])، وفيها أسد مطلي بذهب وإبريز، وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد، يجوز هذا الماء إلى عجز ذلك الأسد فيمجه في تلك البركة من فيه، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثجاجة صبه، فتسقى من مجاجه جنان ذلك القصر على سعتها، ويستفيض على ساحاته وجنباته، ويمد النهر الأعظم بما فضل منه، فكانت تلك القناة وبركتها والتمثال الذي يصب فيها من أعظم آثار الملوك، وكانت مدة العمل

---

(1) سورة الزخرف: الآية 33-34.

(2) الذهبي: سير، ج16، ص177.

(3) الذهبي: سير، ج16، ص177؛ الذهبي: تاريخ الإسلام،ج25، ص444؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج11، ص888؛ النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ج1، ص 70.

(4) المقري: نفح الطيب، ج1، ص565.

فيها من يوم ابتدأت من الجبل إلى أن وصلت –أعني القناة– إلى هذه البركة أربعة عشر شهراً([1]).

مدينة الزاهرة:

بناها المنصور بن ابي عامر سنة (368هـ–979م)، فعندما تكامل شأنه واستفحل أمره واتقد جمره، وظهر استبداده فسما الى ما سمت اليه الملوك، من اختراع قصر ينزل فيه، ويحل بأهله وذويه، ويضم اليه رياسته، ويضم به تدبيره وسياسته ويجمع فيه فتيانه وغلمانه([2])، وكان قد حشد لبنائها العمال، وجلب اليها الآلات الجديدة من الرخام والقراميد والصخور والأخشاب، وبدأ في تسويه ارضها وبقعتها، وأزال النجود وغطى الاغوار تمهيداً للبناء، وتوسع في اختطاطها، فامتدت رقعتها في السهل الواقع هناك، امتداداً كبيراً وسورها بأسوار مرتفعة([3])، وكذلك شحنها بأسلحته وأمواله وأمتعته، واتخذ فيها الدواوين وأقطع ما حولها لوزرائه وكُتابه، وقامت فيها الاسواق وكثرت فيها الارفاق، وتناهى الغلو في البناء حولها حتى اتصلت بقرطبة([4])، وأقيمت فيها المتنزهات والبساتين والرياض، فمن منياتها وقصورها منية السرور ذات الحصن النظير وهي جامعة بين روضة وغدير([5])، وفيها قصر ناصح، وقصر الزاهي الذي كسيت جدرانه بالمرمر، وأجريت فيه المياه والغدران التي تحف بها الأشجار والأزهار، وقصر الحاجبية أقامه عبد الملك إلى جانب الزاهرة بخارج سورها، ومن منتزهاتها ذات الواديين([6])، وفي قصورها قال صاعد اللغوي:

أما ترى العين تجري فوق مرمرها ... زهوا فتجري في أحفافها الطربـا
أجريتها فطمـا الزاهـــي بجريتهـا ... كما طموت فسدت العجم والعرب
تخــال فيـــه جنـــود المــاء رافلــة ... مستلئمات تريك الذرع والغلـــب
تحفهـــا من فنـــون الأيك زاهـــرةً ... قد أورقت فضة اذ أورقت ذهبـا
بديعة الملك مـا ينفـــك ناظرهـــا ... يتلو على السمع منها أية عجبا
لا يحسن الدهر أن ينشئ لها مثلا ... ولو تعنت فيها نفســه طلبـــــا([7])

---

(1) المقري: نفح الطيب، ج1، ص565.
(2) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص410.
(3) المقري: نفح الطيب، ج2، ص113.
(4) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص435.
(5) المقري: نفح الطيب، ج2، ص146.
(6) ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص62.
(7) المقري: نفح الطيب، ج2، ص115.

مدينة الزاهرة متصلة بقرطبة من البلاد الأندلسية، وفيها يقول صاعد اللغوي:

يَا أيُّها المَلِكُ المَنصُورُ من يَمَــنٍ والمُبتَنِى نَسَباً غَيرَ الذي انتَسَبَا

بِغَزوةٍ في قُلوبِ الشِــركِ رلتِعـــةٍ بَينَ المنايا تُنَاغى السُّمرَ والقُضُبَا

أما تَرَى العَينَ تَجرِي فَوقَ مَرمَرِها زَهوا فَتُجرِي على أحسائها الطَّرَبَا

أجرَيتَها فَطَمَا الزاهِــي بجِريتَهـــا كَمَا طَمَوتَ فَسُدتَّ العُجمَ والعَرَبَا

تَخَالُ فيه جُنــودَ المــاءِ رافِلـــةً مُستَلئماتٍ تُريكَ الدَرعَ والبَلَبا

تَحُفُّها من فُنُونِ الأيكِ زَاهِـــرةٌ قد أورقت فِضّةً إذ أثَمَرَت ذَهَبَا

بَديعةُ المُلكِ ما يَنفَكُّ ناظِرُهـــا يَتلُو على السَّمْعِ مِنها آيةً عَجَبَا

لا يُحسِنُ الدَّهرُ أن يُنشِي لَهَا مَثَلاً وَلضوْ تَعَنَّتَ فيها نَفسَهُ طَلَبَا([1]).

يلاحظ بأن بناء الزاهرة لم يكن مبرراً، خاصة إذا علمنا أن مدينة الزهراء ما زالت قائمة على ذاتها، وما جاءت عليها يد الزمان بالتخريب، ولكن ابن أبي عامر اتبع هوى نفسه وشابها الملوك قبله، فحذى حذوهم، وبنى بنائهم، حتى يشار إليهم كما يشار اليهم، "ويبدوا أن ابن عامر أراد أن يسجل بلغة العمارة والبنيان ما وصل اليه من نفوذ وسلطان فبنى لنفسه تلك المدينة"([2])

لم تطل حياة الزاهرة أكثر من ثلاثين عاماً، حيث داهمتها الفتنة بنارها، وهاجمها الثائرون على عبد الرحمن شنجول في جماد الأولى سنة (399هـ-1009م)، فنقبوا سورها، وهدموا مبانيها، ومحوا رسومها، وخربت الزاهرة ومضت كأمس الدابر، وخلت منها الدسوت الملوكية، والدساكر، واستولى النهب على ما فيها من العدة والذخائر والسلاح، وتلاشى أمرها، فلم يرجى لفسادها صلاح، وصارت قاعاً صفصفا، ونهبت الأموال والأسلحة الخزائن والأمتعة السلطانية، واقتلعت الأبواب الوثاق، والخشب الضخم وغير ذلك مما حوته القصور، وصارت يباع بكل جهةٍ لا يرعى عنه من يشار إليه بصلاح أبو بعفة([3]).

يرى الباحث بأن تدمير الزاهرة كان مصاباً جلل على الوضع الاقتصادي في تلك الفترة، حيث أنفق عليها ما انفق من الاموال وما هي إلا ثلاثة عقود، حتى أصبحت خراباً يبابا وأثراً بعد عين، ليذهب كل ما أنفق فيها هباءً منثورا، وتبدأ معاناة بعد ذلك للناس من كثرة ما سيجنى منهم من الأموال من أجل تحسين مدنٍ ستدمر وقصور ستدثر، وهذا ما ستناوله في المبحث التالي.

في عهد هشام بن عبد الرحمن كثرت عمارة المساجد وكان -رحمه الله- قد نظر في بنيان قنطرة قرطبة، وأنفق في إصلاحها أموالا عظيمة. وتولى بناءها بنفسه، وتعطى الأجرة بين يديه. قال ابن وضاح: لما بنا هشام القنطرة، تكلم بعض الناس فيه، وقالوا: (إنما بناها لتصيده

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص263-264.

(2) سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، ج1، ص258.

(3)ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص61.

ونزهته)، فحلف حين بلغه ذلك: ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة([1])، وتم بناء القنطرة في رمضان سنة مائة هجري([2])، وكانت قَنْطَرَةُ قُرْطُبَةَ لا نَّظِير لها([3]).

والقنطرة التي أصلحها هشام هي القنطرة التي كانت على النهر عند قرطبة من أعظم آثار الأندلس وأعجبها أقواسها سبع عشرة قوساً، وبانيها على ما ذكره ابن حيان وغيره السمح ابن مالك الخولاني صاحب الأندلس بأمر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وشيدها بنو أمية بعد ذلك وحسنوها، وكان طولها ثمانمائة ذراع وعرضها عشرون باعا وارتفاعها ستون ذراعا وعدد حناياها ثماني عشرة حنية وعدد أبراجها تسعة عشر برجا([4]).

وتوفي الحكم بن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته وكان أول من جند بالأندلس الأجناد والمرتزقة وجمع الأسلحة والعدد واستكثر من الحشم والحواشي وارتبط الخيول على بابه واتخذ المماليك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم وبلغت عدتهم خمسة آلاف وكان يباشر الأمور بنفسه وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس([5]) وشابه الجبابرة في أحواله([6]).

يلاحظ بأن ما اتخذه الحكم بن هشام من مرتزقة وحشم ومماليك، لم يكن إلا من باب التباهي واقتناء المتاع، ولم يكن من أجل الجهاد وما يتصل به، لذلك كان وصف سلوكه بأنه مشابه للجبابرة.

ودخل عليه عمرو بن أبي الحباب في بعض قصوره من المنية المعروفة بالعامرية، والروض قد تفتحت أنواره، وتوشحت بجاده وأغواره، وتصرف فيها الدهر متواضعا، ووقف بها السعد خاضعا؛ فقال:

لا يَومَ كاليومِ في أيَّامِـــك الأوَلِ   بالعامِريَّـــةِ ذَاتِ المـاء والظّلَل

هَوَاؤُها في جميعِ الدّهْرِ مُعتضدِلٌ   طِيباً وإن حَلّ فَصْلٌ غَيرُ مُعتَدِلِ

ما إن يُبالِي الذي يَحتَلُّ ساحَتَهـا   بالسَعدِ ألاَّ تَحُلَّ الشَّمْسُ بالَحمَلِ([7]).

خِتان حفيد المأمون بن ذي النون:

احتفل المأمون ابن ذي النون في ختان حفيده يحيى فحشد أمراء البلاد وجملة الوزراء والقواد فأقبلوا غليها كالقطا القارب أرسالا وقد رسم لخدمته في توسيع مشارب هذا الختان وإرغاد

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص167.

(2) المقري: نفح الطيب، ج3، ص15.

(3) الزبيدي: تاج العروس، ج13، ص486.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص480.

(5) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص163؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص342.

(6) ابن الأثير: الكامل، ج5، ص466؛ النويري: نهاية الإرب، ج23، ص219.

(7) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص264.

موائده وتكميل وظائفه وإذكاء مطابخه رسوماً انتهوا فيها إلى حده وشقق عليها جيوب أكياسه وأمر بالاستكثار من الطهاة والإتآق للقدور والإتراع للجفان والصلة لأيام الطعام والمشاكلة بين مقادير الأخباز والآدام والإغراب في صنعة ألوانها مع شياب أباريقها بالطيوب الزكية والقران فيها بين الأضداد المخالفة ما بين حار وبارد وحلوٍ وحامض وشرف المأمون بالاشتراك مع تطهير حفيده يحيى صبياناً من بني أصحابه وبدأ بحفيده قبلهم([1])، فسر ابن ذي النون وشام برق الأمنية فعند ذلك أذكى نيرانه وأنضج أطعمته ونصب موائده ودعا الجفلى إليها ولم يفسح لأحدٍ التخلف عنها فاكتملت الأطعمة وفتحت الأبواب وسهل الحجاب ورفعت الستور وجليت المقاصير وزينت القصور وأقيمت المراتب ووكل بكل قسمٍ منها كبير من وجوه الخدمة ضم إليه فريق من الأعوان والوزعة يتصرفون بأمره ويقفون عند حده قد أخذوا بخفض الأصوات مع سرعة الحركات وحث الأقدام فصار من بديع ذلك الصنيع الفخم أن لم يعل فيه صوت ولا تشكي منه فوت فطال العجب من استوائه في مثل ذلك المشهد، ولما تقدمت علية الناس إلى باب القصر أنزلوا عن دوابهم عند باب المنصب الأول فأذن لهم بالدخول، فمشوا وقد حفهم سراة الصقلب الخصيان وخواص الحشم والغلمان فأجلسوا في الدار الأولى([2]).

ولما فرغت تلك الطائفة جيء بهم إلى المجلس لوضوئهم وقد فرش بوطاء الوشي المرقوم بالذهب وعلقت فيه ستورٌ مثقلةٌ مماثلةٌ فأخذوا مجالسهم منه وناولهم الوصفاء الطائفون بهم المطيبات في الأقداح الفضيات المحكمة الصناعات كادت تغنيهم بطيبها عن الغسل، ثم أدني إليهم إثر ذلك الوضوء في أباريق الفضة المحكمة الصنعة يصبون على أيديهم في طسوس الفضة المماثلة لأباريقها في الحسن والجلالة فاستوعبوا الوضوء وأدنيت من أيديهم مناديلٌ، ثم نقلوا إلى مجلس التطييب أفخم تلك المجالس وهو المجلس المطل على النهر العالي البناء السامي السناء فشرع في تطييبهم في مجامر الفضة البديعة بفلق العود الهندي المشوية بقطع الفستقي([3]).

يمكن القول أن حفلة الختان تلك بأنها من أكثر حفلات الختان بذخاً وترفاً وإسرافاً وبعداً عن الله من علية القوم وبعض الفقهاء والوزراء، ولو أننا أردنا أن نحصي تكلفة ذلك الحفل الذي ذكره ابن بسام في ذخيرته لطال بنا المقام، علماً بأننا قد اقتصرنا على جزء بسيط مما ذكره ابن بسام، والملاحظ أيضاً في تلك الحفلة وجود طائفة من العلماء ما أنكروا المنكر ولا أمروا بالمعروف، والذي تمثل بأواني الفضة واستعمالها في الوضوء والمأكل والمشارب، وعموم المشهد أنف الذكر، ويضاف إلى قولنا أن زمن المأمون بن ذي النون هو زمن الطوائف والذي تميز بالضعف الاقتصادي والفرقة السياسية والتراجع الأخلاقي والديني، فكان الأولى أن توضع تلك الأموال في مصارفها.

---

(1) ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص128.

(2) ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص129.

(3) ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص130.

المبحث الثالث

الضرائب ودفع الجزية للنصارى.

من المعايب التي ذكرها التاريخ لحكام الأندلس في زمن الطوائف تحديداً، عيبٌ خالف الشريعة وعطل آيات القرآن، وأنكر سنة النبي ﷺ، ذلك العيب الذي كان سبباً مباشراً وقوياً في تدمير الإسلام واندثاره في الأندلس، والمتمثل في دفع الأموال (الجزية) للنصارى في حربهم ضد بعضهم البعض، ولحفظ ملكهم الدنيوي الزائل، لقد كانت الجزية في كل عهود الإسلام القوية تُؤخذ من غير المسلمين، وتوضع في بيت مال المسلمين، أما في آخر عهود الأندلس، فقد انعكست الأمور وأصبح ملوك المسلمين يقتطعون أموال الناس ليدفعوها عن يد وهم صاغرون.

الجزيـة:

في اللغة: جِزية: (اسم)، والجمع: جِزْيٌ، الجِزْيَةُ: خَرَاجُ الأَرض، والجِزْيَةُ: ما يؤْخَذ من أَهل الذِّمَّة([1])، الجزية في كلام العرب: الخراج المَجعول على الذِّمِّيّ، سُمِّيت جزية لأنها قضاءٌ منه لما عليه، أُخِذَ من قولهم: جَزَى يجزي، إذا قضى([2])، والجزية مصطلح إسلامي قرآني لقوله تعالى: (**حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**)([3]).

الفونسو السادس يأخذ الجزية:

في سنة (465هـ-1073م) مات باديس بن حبوس وجاء عبد الله بن بلقين ولصغره تولى أمور الدولة سماجه الصنهاجي؛ وكان مرهوب العقاب شديد السطو قوياً حاسماً([4])، وما إن دخلت سنة (466هـ-1074م)، حتى احتل المعتمد بن عباد مدينة جيان مستغلاً وفاة ابن حابوس، وتعد جيان قاعدة عسكرية مهمة لغرناطة، ثم توجه المعتمد، وحاصر غرناطة وبنى حصوناً ليرهق المدينة بغاراته، فحشد الوزير سماجه الصنهاجي، قوات صنهاجية، وأبدى منتهى العزم في مقاومة المغيرين، فاضطر ابن عباد أن يعود أدراجه([5])، وعلى عادة أمراء الطوائف عقدت معاهدة حلف وصداقة، بين عبد الله بن بلقين مع الفونسو السادس ملك قشتالة برعاية الوزير سماجه، ونصت تلك المعاهدة على أن يتعهد ابن بلقين بتأدية جزية قدرها عشرون ألف دينار، وعلى اثر

---

(1) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج1، ص 1640.

(2) الأزهري: تهذيب اللغة، ج11، ص101.

(3) سورة التوبة : آية 29.

(4) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص233.

(5) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص234.

ذلك توجهت سريّة من جند النصارى بأمر من ألفونسو السادس، يقودها ابن بلقين وأغار على اشبيلية المجاورة واسترد حصن قبره الواقع في جنوب غرب جيان([1]).

بعد عام ذهب الفونسو ومستشاره سنندو (ششنند) ليأخذ الجزية من ابن بلقين، إلا أن الأخير رفض دفعها، ولم يخش ضراً من ألفونسو، فما كان من المعتمد ابن عباد إلا أن انتهز الفرصة ليستعدي ملك قشتالة ويعقد معه اتفاق([2]).

بين الفونسو السادس والوزير ابن عمار:

كان الوزير ابن عمار وزيراً لابن عباد، وبأمر منه عقد اتفاقاً وحلفاً مع الفونسو السادس، ونص على تعاون الطرفين للاستيلاء على غرناطة، وعلى أن تكون غرناطة نفسها لأبن عباد، وسائر ما فيها من الأموال لملك قشتاله، وفوق تلك الأموال يؤدي ابن عباد جزية قدرها خمسون ألف دينار، وعلى اثر ذلك أمد ملك قشتالة ابن عمار بسرية من جنده، وأنشأ حصن على مقربة من غرناطة لإرهاق المدينة([3])، ثم حرض ابن عمار الفونسو السادس ليغزو غرناطة، فرد عبد الله بن بلقين بأنه تفاهم مع الملك النصراني، وسار إليه بنفسه وتعهد له بأن يدفع جزية سنوية قدرها عشرة آلاف مثقال من الذهب؛ ويسلمه الحصون الواقعة جنوب غرب جيان، وبدوره قام الفونسو ببيعها إلى ابن عباد([4]).

والغريب أن اليهود في الأندلس أصبح لهم شأن، حيث أرسل الفونسو وزيراً يهودياً لأخذ الجزية من المعتمد بن عباد، ولتأخر المعتمد طلب الفونسو أن يأخذ بعض الحصون، وأن تلد أمراته في مسجد قرطبة، وأن تسكن في الزهراء، إضافة إلى الجزية المقررة، وكذلك تكلم اليهودي على المعتمد بكلام مهين أمام مجلسه ووزراءه، فثارت بقية الحمية في نفس المعتمد وقتل اليهودي؛ فجمع الفونسو وجاء بحده وحديده يخرب إشبيلية، ثم فرض الحصار عليها([5]).

ثم أرسل الفونسو رسالة تهديد ووعيد كان فيها: "من الامبراطور ذي الملّتين الملك أدفونش بن شانجة، إلى المعتمد بالله، قد أبصرت تزلزل أقطار طليطلة، وحصارها في سالف السّنين، فأسلمتم إخوانكم، وعطّلتم بالدَّعة زمانكم، والحَذِر من أيقظ باله قبل الوقوع. ولولا عهدٍ سلف بيننا نحفظ ذمامه، لنهض العزم، ولكن الإنذار يقطع الأعذار، ولا يُعجل إلاّ من يخاف الفوت، وقد حَمّلنا الرّسالة إليك السّيد البرهانس، وعنده من التّسديد الّذي يلقى به أمثالك، والعقل الّذي يدبّر به بلادك ورجالك، ما أوجب استنابته فيما يدق ويجلّ، وفيما يصلح لا فيما يخل، وأنت عندما تأتيه من

---

(1) عنان: دولة الإسلام، ج2، ص143.

(2) ابن بلقين: التبيان، ص143.

(3) ابن بلقين: التبيان، ص69-70.

(4) عنان: دولة الإسلام، ج2، ص143.

(5) عنان: دولة الإسلام، ج2، ص143.

آرائك، والنظر بعد هذا من ورائك، والسلام عليك"([1])، فلما قُرأ الكتاب بكى فقيه الأندلس أبو عبد الله بن عبد البر وقال: قد أبصرنا ببصائرنا أنَّ مآل هذه الأموال إلى هذا، وأن مسالمة الّلعين قوّة بلاده، فلو تضافرنا لم نصبح في التّلاف تحت ذلّ الخلاف، وما بقي إلاّ الرجوع إلى الله والجهاد([2]).

من الملاحظ بأن حالة الهوان والصَغَار قد بلغت بملوك الطوائف أيما مبلغ، وسمحوا لأنفسهم بأن ينزلوا إلى أحط الدركات، وليس أدل على ذلك من بجاحة الفونسو بطلبه أن تلد زوجته في مسجد قرطبة، وكذلك رد اليهودي بكلام مهين لأمير المؤمنين ثم رسالة التهديد التي تُظهر قوة الفونسو، وسطوته وتحكمه بالامور وضعف المسلمين، الظاهر من خلال بكاء الفقية أبو عبد الله بن عبد البر.

فرناندو الأول ملك قشتالة:

اشتد الصراع بين المأمون بن ذي النون وبين سليمان بن هود، فدخل ابن هود وادي الحجارة من أعمال طليطلة، وكان ذلك سنة (634هـ - 1044م) وما أن علم المأمون بذلك حتى هرع إلى وادي الحجارة، ودارت بينه وبين أحمد بن هود معارك طاحنة، سالت فيها كثير من الدماء، وكانت الغلبة لابن هود، فما كان من ابن ذي النون إلا أن أسرع بعقد تحالف مع فرناندو الأول ملك قشتالة، مقابل أن يدفع له الجزية، ويتعهد بأن يقر بسيادته، فاستجاب فرناندو لذلك وانطلقت خيل النصارى تعيث فساداً، فتقتل العباد وتسرق البلاد([3]).

لم يكن ابن هود أقل سوءاً من المأمون بن ذي النون، ولربما كانت تلك عادة ملوك الطوائف، حيث ذهب إلى النصارى مستعيناً بهم، مستعدياً لهم على خصمهم ابن ذي النون، وبعث إلى فرناندو أموالاً وتحفاً طائلة، مقابل أن يغير على أراضي بن ذي النون، واستجاب فرناندوا، وبعث سراياه مخترقة طليطلة حتى وادي الحجارة، وأمعنت فيها عبثاً وتخريباً، ورداً على ذلك أوغل ابن ذي النون في أوحال التبعية، فحالف (غرسيه ملك نفار شقيق فرناندو ملك قشتالة)، وأرسل إليه أموالا وتحفاً، فأغار غرسيه على أراضي ابن هود فخرب ودمر، وهكذا استباح النصارى أراضي المملكتين، استجابةً لأهواء ابن هود وابن ذي النون الذميمة، وانهارت خطوط الدفاع، وساءت أحوال المسلمين إلى أبعد حد([4]).

---

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج32، ص 25.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج32، ص 25.

(3) الحميري: الروض، ص288.

(4) عنان: دولة الإسلام، ج2، ص99-100.

الجزية من ابن الأفطس (449هـ- 1057م):

ضربت خيل الطاغية فرذلند (فرناندو) على بلاد المظفر بن الأفطس وطئتها، فمحت رسومها، واستباحت حريمها، واجتاحت حديثها وقديمها، وأنست ما كان قبلها، وأيأست من البقاء وآذنت بشمول البلاء([1])، وسيطر فرناندو على بلاد بطليوس، فطلب من ابن الأفطس دفع الجزية والإتاوة (على عادة ملوك الطوائف)، ولكن ابن الأفطس رفض ذلك، فقام فرناندو بحملة من عشرة آلاف جندي، خربت وقتلت دون مقاومة من ابن الأفطس، إلى أن وصلت إلى مدينة شنترين، وعندما رأي ابن الأفطس ضعف قوته أمامهم، عرض عليهم الصلح على أن يدفع جزية سنوية مقدارها خمسة آلاف دينار لفرناندو([2]).

سيطرة المأمون على بلنسية (وقعة بطرنه 457هـ- 1063م):

كان حاكم بلنسية عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر، وذلك سنة (452هـ- 1042م)، وكان صهراً للمأمون بن ذي النون، ولأن عبد الملك أساء عشرة ابنته لذميم صفاته وخلاعته، وانهماكه في الخمر، وانحطاطه في مهاوي اللذات، أضمر له المأمون شراً، فطلب المأمون من صهره عبد الملك جنداً، فاعتذر صهره عن ذلك، فما كان من المأمون إلا أن استعان بفرقة من جند النصارى، أمده بها حليفه فرناندو الأول، فداهمت القوات المتحالفة بلنسية، وكان البلنسيون على عادة أميرهم غافلون غارقون في اللهو واللعب، ولم يستطيعوا دفاعاً، فمُزقت قواتهم وقُتل منهم عدد جم([3]).

بعد وفاة المأمون بن ذي النون، خلفه حفيده يحيى سنة (467هـ - 1057م)، ولقب نفسه بالقادر، وكان من أسوأ الملوك رأياً وفساداً في الخلق، وقد ورث عن جده المأمون دفع الأموال الباهظة والجزية لألفونسو، وذلك بعد المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهته، ووافق الفونسو على مساعدته مقابل تنازله عن حصون سرية وفتورية وقنالش([4]).

يلاحظ بأن التعليق على تلك المشاهد المأسوية صعب جداً، ويتساءل المرء أين كان دين ذلك الملوك، وأخلاقهم ومروءتهم، وهم يدفعون الجزية لأعداء دين الله، وينهكون اقتصاد الأمة، ويسفحون دماء المسلمين؟! وأين كان علماء الإسلام وأولي الأحلام والنهى؟ ولماذا لم تثر الجماهير ضدهم؟ وتوقف ذلك العبث بمقدرات الأمة وبالإسلام وأهله في تلك المنطقة؟ إن ذلك سبباً مهماً ومباشراً في سقوط الاندلس، وقتل كثيرٍ من جيشها وابنائها.

---

(1) ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص147.

(2) ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص237.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص252-253.

(4) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص179.

فرناندو مع بني هود:

كان بني هود يحكمون سرقسطة، وظلت هي المملكة الوحيدة التي يماطل أصحابها في دفع الجزية، والإتاوة المفروضة عليهم؛ فتوجه فرناندو سنة (457هـ-1065م)، جهة بلنسية مخترقاً حدود سرقسطة الجنوبية، مخرباً ومقتلاً وناهباً الزروع والقرى، مجتاحاً لسائر البقاع والحصون، مما أرغم المقتدر بن هود على دفع الجزية عن يد وهو صاغر([1]).

يتساءل الدكتور محمد عنان عن الأموال الوفية، التي أغدقها حكام الطوائف على الفرنجة فيجيب قائلاً: بأن المأمون صاحب طليطلة كان لديه أموالاً طائلة، وتحف وحُلي وجواهر عظيمة، وكانت سياسة الفونسو ترمي إلى أخذ أموال ملوك الطوائف، من خلال إرغامهم على دفع الجزية وغيرها من أنواع الابتزاز السياسي والعسكري، وكانوا جميعاً يسارعون في الأداء، ويجمع ملك قشتالة منهم الأموال، وفي ذات المقام يأتي قصة القمبيطور الذي كان مقره في (الكيدية)، ليخرج إلى جبال البونت القريبة، حيث يحكم فيها عبد الله بن قاسم، ويعيث في أرضها فساداً، ثم يُرغم ابن قاسم على دفع جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دينار([2]). ويقول ابن بسام عن القمبيطور: "أنه أكلب كلب في الجلالقة، ويسمى لذريق، ويدعى بالقبيطور، وكان عِقالاً وداءً عِضالاً، له في الجزيرة وقائع، وعلى طوائفها ضروب المكاره([3]).

بين يدي معركة الزلاقة (رجب 479هـ= أكتوبر 1086م)([4]):

مما يستوقفنا أمام (دفع الجزية للنصارى) وعظيم ما لحق بالمسلمين من ذلها تلك الرسالة التي توضح حقيقة الواقع، والتي أرسلها الفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين -رحمه الله-، حيث هدد ألفونسو في رسالته يوسف بن تاشفين، وأخبره بأنكم تزعمون بأن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعاً، وظل يحقر من شأن ابن تاشفين وقال له: وها أنا أقول ما فيه الراحة لك، وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان([5]).

يلاحظ بأن هذا النص يكاد يكون طبيعي، ومنسجم مع الحالة التي كانت يوم ذاك، والمتمثلة بالخضوع التام، والهوان الذي عاشه ملوك الطوائف، وتعودهم على دفع الأموال والجزية مقابل أن يضمنوا حياتهم وملكهم، ولكن ألفونسو السادس لم يدر في خلده، بأن المجاهد يوسف بن تاشفين لا يشبه ملوك الطوائف.

---

(1) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص184.

(2) دولة الإسلام، ج2، ص238.

(3) الذخيرة، ج5، ص95.

(4) الحميري: الروض المعطار، ص289؛ والمقري: نفح الطيب،ج4، ص363.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص237؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص6.

بعد أن وصلت الرسالة ليوسف بن تاشفين رد على الأذفونش، عارضاً عليه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب كما هي السنة، ومن جملة ما في الكتاب: "بلغنا يا أذفونش أنك دعوت الله في الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر عليها البحر إلينا، فقد عبرناه إليك، وقد جمع الله تعالى في هذه العرصة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك، (وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)([1]) فلما سمع الأذفونش ما كتب إليه يوسف؛ جاش بحر غيظه، وزاد في طغيانه، واقسم أن لا يبرح من موضعه حتى يلقاه([2])، وقال: ابمثل هذه المخاطبة يخاطبني، وأنا وأبي نُغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين عاماً!، ثم قال متوعداً لابن تشافين: إني اخترت الحرب، فما ردك على ذلك!، فقلب ابن تاشفين الرسالة ،وكتب على ظهرها: الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه والسلام على من اتبع الهدى، فارتاع الفونسو لجوابه وعلم أنه مبتلى برجل لا طاقة له به([3]).

يرى الباحث بأن الرسالة الثانية التي بعثها الفونسو السادس حملت أشياء مهمة، خاصة وأن يوسف بن تاشفين قد رد عليه في الرسالة الأولى رداً قاسياً، ثم عرض عليه الإسلام أو الجزية أو الحرب، والمهم في الأمر أن ألفونسو قال: "بعد ثمانين عاماً وأنا وأبي نُغرم الجزية لأهل ملته"، مما يدل على عظيم المصاب الذي أصيب به الإسلام والمسلمين في ظل حكم أولئك الملوك، والرسائل المتبادلة بين ابن تاشفين والفونسو قُبيل موقعة الزلاقة، أي بعد الفتح الإسلامي للأندلس بأربعة قرون، توضح بأن الجزية كانت تُدفع للفرنجة لمدة ثمانين عام، أي ما يعادل خُمس مدة الحكم الإسلامي للأندلس، وهذا يدل على عظيم الذل والاهانة.

آخر مراحل الإذلال ودفع الجزية في تاريخ الأندلس كانت زمن بني الأحمر في غرناطة، حيث وُقعت اتفاقية بين ابن الأحمر ملك غرناطة، وفرناندو الثالث ملك قشتالة، وذلك في سنة (643هـ- 1245م)، أعطت بعض الحقوق لابن الأحمر، وضعت عليه بعض الشروط والواجبات([4])، وكانت بنودها كالتالي:

- أن يدفع ابن الأحمر جزية لفرناندو مقدارها 150 ألف دينار ذهبي.
- أن يحضر ابن الأحمر بلاط الملك فرناندو كأحد ولاته.
- أن يحكم بنو الأحمر غرناطة باسم فرناندو.

---

(1) سورة غافر: أية 50.

(2) المقري: نفح الطيب، ج4، ص361؛ الناصري: الاستقصا، ج2، ص41.

(3) مجهول: الحلل الموشية، ص53؛ الحميري: الروض المعطار، ص290.

(4) عنان: دولة الإسلام، ج2، ص41.

–وأن يساعد ابن الأحمر فرناندو في حروبه ضد الأعداء! و"الأعداء" كانوا أهل مملكة أو إمارة إشبيلية الإسلامية المجاوره، فغزاها ابن الأحمر مع فرناندو، وحاصرها جيشه سبع عشر شهراً كاملة حتى سقطت إشبيلية إلى الأبد([1]).

أوفى ابن الأحمر بالتزاماته كاملة، تلك الالتزامات المذلة له وللاندلسيين جميعاً، وكان الاختبار الأول لابن الأحمر مع فرناندو، هو مساعدة ابن الأحمر لفرناندو في سقوط إشبيلية، فقد كان ابن الأحمر أكبر مُعين لفرناندو الثالث على سقوط إشبيلية في يده، وهي يومئذٍ أعظم القواعد الأندلسية قاطبة، وقد كانت العاصمة الثانية للأندلس بعد قرطبة، لا سيما في عصر الطوائف تحت حكم بني عباد.

استقبل أهل غرناطة ابن الأحمر –واستقبالهم هذا عجيب– استقبال الأبطال الفاتحين وظلوا يهتفون "الغالب !الغالب"! وابن الأحمر يعتريه الجزع والأسى لعلمه بذله وجرمه العظيم في حق الإسلام والمسلمين فظل يرد عليهم "لا غالب إلا الله" واتخذها منذ ذلك الحين شعاراً لمملكته: "الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا"([2]).

الضرائب:

من خلال الدراسة تبين بأن ما أُنفق على الترف وأشكاله من مبانٍ وقصور ومساجد وجواري وحفلات وما إلى ذلك، والجزية التي كانت تُدفع للفرنجة، والتي بلغت حدوداً لا يتصورها عقل، والمنازعات والحروب الداخلية، أثرت بشكل واضح على الزراعة والصناعة والتجارة وعموم حياة الأندلسيين، كل ذلك أدى إلى قيام الملوك والأمراء والولاة بإرهاق الأندلسيين بالضرائب الباهظة، ورغم أن تلك الضرائب انتشرت في زمن الطوائف، لأنه يمثل بعمومه زمن التراجع العام، ولكننا نرى بأن الحكم بن هشام الربضي (154هـ – 771م) قام بفرض ضرائب باهظة على أهل طليطلة ولم يستشر بها الفقهاء والقضاة، تلك الضرائب التي قررها وسماها باسم المعاون والمغارم، ورغماً عن الفقهاء عين ربيع القومس لجبايتها([3])، ربما يُعتبر الحكم بن هشام الربضي من المتفردين في عصر الولاة الذين فرضوا ضرائب جائرة على الناس.

سيتناول الباحث الحديث عن الضرائب التي وجدت في العصر الأخير للدولة الأندلسية وتحديداً فترة حكم الطوائف والمرابطين، وذلك لاعتبار مهم، وهو أن عصر الدولة الأموية الأول ممثلاً بزمن الفتح، والولاة، وزمن الدولة الأموية، كان فيه رخاءً اقتصادياً ظهرت ملامحه في أشكال الترف التي سبق ذكرها، وبالتالي لم يكن هناك استنزافاً لأموال الناس من خلال الضرائب.

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج7، ص190.

(2) سورة النساء: أية 139.

(3) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص43.

المرابطين والضرائب:

كان يوسف بن تاشفين قد أجاز البحر إلى الأندلس الجواز الثاني سنة (486هـ-1093م)، وتثاقل أمراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من انكار ظلمهم لرعايهم من خلال الظلم والمكوس، وتلاحق المغارم فوَجِد عليهم، وعهد برفع المكوس وتحرى العدل([1])، وقام يوسف بن تاشفين بالإشراف على جباية وصرف الزكاة في مصارفها الشرعية، من غير حيف ولا عسف، فكانت من مصادر دولة المرابطين، الزكاة والخراج والفيء وغيرها، وكان الأمير يوسف لا يأخذ الضرائب والمكوس بل أسقطها، وإنما أخذ المال من حله ووضعه في حقه، ولم يمنعه من مستحقيه، وكان الفقهاء بالأندلس قد طلبوا من الأمير يوسف رفع المكوس والظلامات عنهم، فتقدم بذلك إلى ملوك الطوائف فأجازوه بالإمتساك، حتى إذا رجع من بلادهم رجعوا إلى حالهم([2]).

الفقهاء واكل الضرائب:

قيل أن الخليفة هشام بن محمد الناصري أمير قرطبة بويع للخلافة سنة (420هـ-1029م) بعد دخوله قرطبة جلس بنفسه للمظالم، وزاد في قِراءِ الجامع وزاد في رزق مشيخة الشورى، من مال العين، ففرض لكل واحد خمسة عشر ديناراً، فقبلوا ذلك على خبث أصله، وتساهلوا في مأكلٍ لم يستطبه فقيه قبلهم، على اختلاف السلف في قبول جوائز الأمراء، الذين أخذوا خبائث الضرائب والمكوس القبيحة، فاستطاب القوم مرية تلك الأطعمة الخبيثة وكان فقهاء الشورى بعده يكتمون شأن ذلك الراتب، حتى سمع أبَرهم يلح في طلبه، وينتظر بلوغ وقته، وأطعمهم هشام من قمح ولد القاضي ابن ذكوان أيام فر عنه، وأخذ مآلَه فقبلوه قبول مال الفيء([3]).

يلاحظ من تلك الرواية التي ذكرها ابن بسام: بأن طائفة من الفقهاء، أكلوا مالاً حراماً ممثلاً بمال الضرائب والمكوس المستقبحة شرعاً، وهذا ما لم يجده المحدث في السلف ولا عند غيرهم من الفقهاء الذين كانوا يرون عدم التساهل في أكل مال الوزراء والأمراء، فما بال تلك الطائفة تأكل مالاً الحرمة فيه بيّنه، وهذا كان له عاقبته في سكوت أولئك الفقهاء عن جور الأمراء، ذلك الجور الذي كان مآله سقوط الاندلس.

ويقول ابن خلدون في الفساد الذي يصيب البلاد نتيجة الضرائب: "افضى الظلم الى خراب العمران، وذلك لأن الأعمال العائدة بالمكاسب أدت الى العدوان على الناس في أموالهم، حيث يصبح المال في أيدي المنتهبين له، وعند ذلك يقعدون عن المعاش، وتتقبض أيديهم عن

---

(1) الناصري: الاستقصا، ج2، ص55.

(2) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص203؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص439؛ الناصري: الاستقصا، ج2، ص55.

(3) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص517.

المكاسب، فتكسد أسواق العمران، ويخف ساكن قطره فرارا عنه لتحصيل الرزق في غير بلده، فتخرب أمصاره، وتقفر دياره وتختل بإخلاله الدولة والسلطان([1]).

الضرائب في بلنسية:

مبارك ومظفر العامريان وإنفاق الخراج (452هـ- 1061م):

لقد سلك ذانك الحاكمان، اللذان حكما بلنسية –سلوكاً لافتاً للنظر– في شدة ترفهما، الذي كان على حساب الرعية، فقد كانا يستزيدان عليهما في الوظائف الثقال، حتى غدا كثير من الناس يلبس الجلود والحُصر، ويأكلون البقول والحشيش، وفر كثير منهم من قراهم، وذلك بعد أخذهم الخراج وزيادة الأموال على الناس، وقد سلك مبارك ومظفر سبيل الجبارين في البناء، وكان هذا شأن أصحابهما، ووزرائهما وكتابهما، وعظم الإنفاق منهم حيث قدرت إحدى نفقاته على منزله مائة ألف دينار، وكان لمبارك ومظفر جملة ذلك النعيم وفازا بقبض الخراج، ولم يعترض عليهما أحد، فانغمسا في النعيم إلى قمم رؤوسهما، وأخلدا إلى الدعة وسارعا في قضاء اللذة([2]). وكان من نتيجة تلك السياسة المالية أن أعتبرت الضريبة في بلنسية نموذجاً من الظلم الضريبي الواقع على جزء كبير من أهل الأندلس، حيث بلغت الجباية فيها (120ألف) دينار شهرياً، (70 ألف) منها من بلنسية، وخمسون ألف من شاطبة التابعة لعمالتها([3]).

يرى الباحث بأن تلك الضرائب المفروضة على أهل الاأندلس عموماً وأهل بلنسية خصوصاً، كان لها أكبر الأثر في إنهيار الإقتصاد وخراب البلاد، وهجر العباد لديارٍ لا ظلم فيها ولا نهب مال.

الجباية زمن علي بن يوسف بن تاشفين (500هـ-1107م/ 537هـ-1143م):

في عهده تمادت السلطة في فرض الضرائب على المزارعين، وأهل الصناعة والتجارة، ففرضت ضريبة القبالة، وانتقدها ابن عبدون، وحدد بعض المقاييس المقبولة لاستخلاصها تجنباً للإجحاف بالفلاحين، على اقباض الذين أمعنوا في تحصيل الأعشار من المزارعين، دون الارتكاز على قاعدة مقبولة، وكذلك أنتقد الخُرّاص الذين مارسوا عليهم أبشع أنواع الاستغلال، وسماهم ابن عبدون الظلمة الفُساق أكله السُحت الأشرار والسفلة، لا خوف ولا حياء ولا دين ولا صلاة لهم إلا طلب الدنيا، باعوا أديانهم بدنيا غيرهم وأكل السحت، وهم يرتشون([4])، وهناك ضريبة تُسمى

---

(1) تاريخ، ج1، ص286.

(2) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص18.

(3) عنان: دولة الإسلام، ج3، ص218.

(4) بروفنسال: ثلاث رسائل أندلسية –رسالة ابن عبدون–، ص5-6.

ضريبة (الرحاب)([1])، بحيث استغل المتقبل جبايتها، فبالغ في تقسيطها زاعماً بأنها أوامر السلطان، وتحت غطاء الأمير مارس المتقبل كل أشكال الاستغلال الفظيع، وأكل أموال الناس بغير حق([2])، وهناك ضريبة (التعتيب) المفروضة على عامة الناس؛ من أجل إقامة أسوار جديدة وإصلاح القديمة منها، حيث ذكرت إحدى الروايات أنه وبعد جمع المال من أهل غرناطة لإصلاح أسوارها، أوكلت تلك الاموال لرجل من بني نجبه، تلاعب بذلك المال، واختلس منه قدراً كبيراً، وبدلاً من أن يجبره والي المدينة على رد ما سرقه؛ فرض ضريبة تعتيب جديدة على العامة، وشد على الناس بدفع المال، فكان الناس يخافونه لضغطه وشدته([3])، وكذلك فُرضت ضريبة المعونة، وحاول يوسف بن تاشفين إجبار العامة على أدائها، فوقف له أحد الفقهاء الجريئين، فعارضوه برسالة شهيرة، طلب منه فيها أن يحلف في الجامع بحضرة أهل العلم، بأنه ليس له درهم واحد في بيت المال، فلم تجبى تلك الضريبة في تلك السنة وعادت لتجبى في عهد ابنه علي([4]).

لقد سعى المرابطون في بعض الفترات الحرجة إلى فرض المزيد من الضرائب ليملئوا خزائنهم الفارغة، فقلت المجابي بتلك الفتن، وكثرت اللوازم على الرعايا بالعدوتين([5])، ونتيجة لما تعرض له الناس من ظلم وعسف من بعض القضاة الظلمة، رفعوا شكاياتهم إلى المتصوفة لرفع الظلم عنهم، لما كان لأولئك المتصوفة من مكانة عند المرابطين، ولكن شفاعة أولئك لم تقبل([6])، ومن غريب الضرائب تلك التي فرضت على أضحية العيد([7]).

في ظل ذلك الحكم اضطرب المجتمع وانتكست مُثله، واشتد الغلاء، وانتشرت الأوبئة، وعمت الكوارث، وقد كانت رحى الحرب تعصف بالرعية؛ فانعدم الاستقرار والأمن، وفسدت أخلاق الناس، واستبيحت المحرمات وهُتكت الأستار، ونُقضت شرائع الدين، وفسدت نفوس الحكام والمحكومين؛ حتى إنه لم يعد يُعلم في الأندلس درهماً أو ديناراً حلالاً([8]). و لقد خضع مختلف مختلف العامة في الأندلس لضرائب باهظة، إلا أن أصحاب الجاهه وذوو النسب الشريف ،والبيوتات الوجيهه تم إعفاؤهم من مختلف الضرائب،كما ذكر ذلك ابن أبي الخصال([9]).

---

(1) المتقبل هو الذي يجمع ضريبة الرحاب، وهو شر خلق الله ، يسعى لضرر المسلمين أبداً، ويغلق أبواب الخير عنهم، ملعون من الله ومن الناس أجمعين (بروفنسال: ثلاث رسائل أندلسية –رسالة ابن عبدون–، ص30).

(2) بروفنسال: ثلاث رسائل أندلسية –رسالة ابن عبدون–، ص31.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ص73.

(4) المقري: نفح الطيب، ج3، ص386.

(5) ابن عذارى: البيان المغرب، ص16.

(6) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص198.

(7) بروفنسال: ثلاث رسائل أندلسية –رسالة ابن عبدون–، ص31.

(8) بوتشيش: أثر الأزمة الأخلاقية في سقوط دولة الاسلام بالأندلس، ص30.

(9) رسائل ابن ابي الخصال، ص42

وكان موظفو الدولة لا يتقيدوا بالشرع ، ولا همّ لهم إلا أن يزدادوا ثروة، خاصة جامعي الضرائب، وقد وصفهم ابن عبدون فقال: "بأنهم شر الناس، ولا يجب أن يُصدق كلامهم، إلا إذا شهد على ذلك الجيران، ولأن الشر أحب إليهم من الخير، فمنه يأكلون، ويلبسون السحت، ومنه يعيشون، وليس للخير إليهم طريق"([1]).

يرى الباحث بأن الحديث السابق عن الضرائب ومناشدة الفقهاء ليوسف بن تاشفين، يدل دلالة واضحة على كثرة انتشارها، وأذية الناس منها، كما نرى بأنه ما أن يأتي حكام ظالمون كالمبارك والمظفر، حتى يبدأ البذخ وإهدار الأموال على ملذاتهم ومتعهم الشخصية، وذلك على حساب الصالح العام، وفي حالات الجور وجدنا أنواعاً من الضرائب فرضت على الناس، لدرجة أنها فرضت على أضاحي العيد، وهذا ما تكلم به ابن عبدون وغيره في رسائلهم، إن الأموال الطائلة التي كانت تجبى من الناس، كانت عاملاً مهماً من عوامل خراب العمران البشري، وهذا ما أكد عليه ابن خلدون كما سبق، وبعد جمع تلك الاموال بغير حق، خرب العمران، وانتقض البنيان، وتحولت الأندلس إلى أثر بعد عيان.

---

(1) بروفنسال: ثلاث رسائل أندلسية –رسالة ابن عبدون–، ص31.

الفصل الثالث:
العوامل السياسية

المبحث الأول: فساد الحكام.

المبحث الثاني: الصراع على السلطة.

المبحث الثالث: الخلاف الفقهي والقمع الفكري.

المبحث الأول

فساد الحكام

فيما يتعلق بفساد الحكام في الأندلس، كان ظاهراً للعيان عند معظم حكامها، ويمكن القول أن جزءاً من حكام الأندلس قد خلطوا عملاً صالحاً وأخر سيئاً، عسى الله أن يغفر لهم، فرغم فتوحاتهم العظيمة ودفاعهم عن الإسلام ونصرة المسلمين، والإهتمام بعلوم الإسلام، والعلوم المدنية وإبداعهم في كثير من الأشكال الحضارية، لدرجة أنهم أصبحوا منارة تشع على من حولهم، إلا أننا نرى جانباً من حياتهم أسوداً، ذلك الجانب الفاسد، تمثل بانتهاك حرمات الله في قتل الخصوم أحياناً، والصراع على السلطة المفضي لسفح دم المسلمين، والغرق في الشهوات وما نهى الله عنه وغير ذلك الكثير، مما كان عاملاً مهماً في سقوط الأندلس، حيث أن فساد الحاكم كان ولا شك نذير شؤم لضياع الحكم وأفول الحضارات، وحتى لا يظن القاريء بأن ذلك الفساد هو الأصل، فقد حكم الأندلس حكام عظماء أتقياء بهم استمر حكم الأندلس كل تلك الفترة، وكان منهم: الولاة أمثال المسح بن مالك الخولاني، وعنبس بن سمح، وعبد الرحمن الغافقي، وأولئك كانوا رموزاً في عهد الولاة، ثم تبعهم عبد الرحمن الداخل، وهشام بن عبد الرحمن، ويوسف بن تاشفين، وكثير ممن شهد لهم بالصلاح، رغم بعض الشوائب التي اعترت حكمهم.

الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) (113هـ -172هـ):

يُؤخذ على عبد الرحمن الداخل رحمه الله، ونحن نتكلم عن فساد الحكام، تلك الشدة والحدة التي كانت فيه، أثناء صراعه على توطيد ملكه، مع هشام الفهري، الذي ثار في طليطلة ضد ابن معاوية، وقد انضم إلى هشام الكثير من العرب، فحاصر عبد الرحمن طليطلة حصاراً شديداً، حتى أُرغم هشام على طلب الأمان والصلح، فقبل عبد الرحمن ذلك منه، بعد أن أخذ ابن هشام رهينه، ولكن هشاماً ما وفّى بوعده، فركب إليه عبد الرحمن بن معاوية ووصل طليطلة سنة (146هـ- 763م)، ودعا هشام بالرجوع عن ثورته، فلما يأس منه أمر بضرب رقبة ابنه الرهينة، وطرحت الرأس بالمنجنيق، فسطقت في طليطلة ثم انصرف([1]).

وفي سفك دم المسلمين نرى تلك الحرب التي قامت بين عبد الرحمن بن معاوية، والعلاء بن مغيث اليحصبي، الذي تحصن في قرمونة، فحوصر بها لشهرين، حتى إنخذل عن العلاء أكثر أنصاره، ليقينهم بأن عبد الرحمن بن معاوية لن يتركهم، فأدرك عبد الرحمن ما عليه علاء الحضرمي وصحبه من الخذلان، فأمر بإشعال نار، وقال لجيشه وكانوا سبعمائة: "اخرجوا معي لهذه الجموع خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع"، وكان قد أمرهم بحرق أغماد سيوفهم، فانقضوا على جيش العلاء ومزقوه، وقتل العلاء وخيرة صحبه، وحز عبد الرحمن رأس العلاء والوجهاء معه

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص51.

وحنط رأسه، ووضع في رأس كل واحد صكاً باسمه، ووضعت في أوعية وأرسلت إلى القيروان ومن ثم مكة، وألقيت في أسواقها سراً ومعها اللواء الأسود (راية العباسيين)([1])، وفي نفس المشهد يقول ابن عذارى: اخذ رأس العلاء وحشي مِلحاً ومعه لواء أبو جعفر المنصور، وجُعل في سفط، وأُرسل إلى مكة([2]).

لقد كان سلوك عبد الرحمن عنيفاً قاسياً، وقد اكتسب ذلك من أخلاق العرب الذين عاشوا معه في تلك البلاد، فوجدهم -إلا قلة- مخادعين، يظهرون السلامة ويضمرون العداوة، إذا أطمئن إلى أحدهم ثار عليه وخرج من طاعته، فكان عليه أن يأخذ بالظنة، ويرتاب فيمن حوله([3])، لقد أخذ عبد الرحمن بن معاوية العنف قاعدةً لسلوكه، والقسوة ركيزةً لسيرته، وكان معذوراً في ذلك، لأن السمة العامة لذوي الجاه والسلطان في زمانه كانت كذلك([4]).

يرى الباحث بأن ما قام به عبد الرحمن بن معاوية من القتل أولاً، غير مبرر نقلاً وعقلاً، فنقلاً لقوله: **(وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ)**([5])، وعقلاً لأن هناك عدو متربص بدولة الإسلام في الأندلس، فكان الأجدر بأمراء الإسلام وأبنائه أن يصلحوا ذات بينهم ليواجهوا عدوهم؛ ثم ما ذكر عنه رحمه الله بأنه يقطع الرؤوس ويحنطها، ويحشوها ملحاً، لا يمكن اعتباره إلا فساداً دينياً، وخروجا عن الهدي النبوي، فشريعة الإسلام السمحاء لم تقر بهذا، وأما التبريرات التي سيقت من المتقدمين والمتأخرين لقسوته فلا يمكن اعتبارها البتة، فالنبي ﷺ عندما مكنّه الله من أهل قريش قال: أذهبوا فأنتم الطلقاء([6])، وقال ﷺ: "لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إن أَحْسَنَ الناس أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إن أَحْسَنَ الناس أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ اساءوا فلا تَظْلِمُوا"([7])، فكون المحيط بعبد الرحمن الداخل من أهل الغدر ونقض العهد، ومستحلي الدماء فذلك لا ولن يسمح له بأن يكون مثلهم، ولكن قد يجد البعض تبريراً قد يكون فيه شيء من الوجاهة وهو: أن عبد الرحمن الداخل إن لم يقم بذلك القتل سيكن هناك قتل أعظم منه، وبالتالي قام بقتل رموز الفتنة، حتى لا تندلع فتنة أعظم، ويقتل بدل العشرة من المسلمين عشرات بل مئات.

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص157.

(2) البيان المغرب، ج2، ص53.

(3) الوكيل: الأمويين بين الشرق والغرب، ج2، ص155.

(4) المقري: نفح الطيب، ج3، ص37.

(5) سورة الأنعام: أية 151.

(6) الطبري: تاريخ، ج2، ص161.

(7) الترمذي: سنن، ج4، ص364، حديث رقم: (2007).

هشام بن عبد الرحمن (139هـ - 757م):

عُرف بالصلاح والخير، وأراد أن يحذو حذو عمر بن عبد العزيز في رعيته، ويذكر أنه اعترض له يوماً متظلم من أحد عماله، فأحضر الشاكي وقال له: إحلف علي كل ما ظلمك فيه، فإن كان ضربك، أو هتك لك ستراً فاهتك ستره، أو أخذ لك مالاً فخذ من ماله مثله، إلا أن يكون أصاب منك حداً من حدود الله، فجعل الرجل لا يحلف على شيء إلا أُقيد منه، وكان هشام – رحمه الله– كريماً متواضعاً عادلاً، لم تُعرف منه هفوة، يخرج بين المغرب والعشاء، ويضع في يد من يجده في المسجد صرة مال([1])، وبالرغم من تلك الصفات آنفة الذكر إلا أننا نجد فساداً في عقيدة ذلك الرجل تتضح بعلاقته بالمنجمين، فهو الذي أرسل في طلب المنجم المشهور الضبي، بمجرد ما تولى الملك، وما أن حضر المنجمُ هشاماً قال له: "يا ضبي لست أشك أنه قد عناك أمرنا، فأنشدك الله ألا ما أنبأتنا بما ظهر لك فيه"، فلجلج المنجم وطلب العفو إلى أن ينظر في ذلك الأمر، فسمح له هشام، وبعد أيام أحضره، فقال المنجم: أيها الأمير سوف يستقر ملكك، سعيد جدك، قاهر لمن عاداك، إلا أن مدتك تكون ثمانية أعوام أو نحوها، فقال هشام: "يا ضبي ما أخوفني أن يكون النذير كلمي بلسانك، والله أن هذه المدة لا تكفي لسجدة"، ثم أعطى المنجم وخلع عليه، وزهد في الدنيا والتزم أفعال البر([2]).

يلاحظ بأن هذا الأمير ما كان ينبغي له أن يكون على تلك الحال من فساد العقيدة، وهو التقي الزاهد العابد المحسن، والغريب أنه وصل إلى تلك الحالة بعد اطّلاع على كتاب الله وسنة رسوله، والتي فيها: "من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم"([3])، فاذا كان حال الزهاد والأتقياء من الأمراء على تلك الشاكلة فما بال العامة، ورغم ذلك ومن باب إحسان الظن يرى الباحث بأن هشاماً قد يكون سمع إلى ذلك العراف من باب الترف، وليس من باب الإعتقاد، ونجد التأكيد على وجهة النظر هذه من أن هشاماً ظل في أعمال البر أثناء حكمه، وكذلك تكلم محمد السيد الوكيل في تلك الواقعة فقال: "فعقيدة هشام تترفع به عن الإعتقاد في علم الغيب ان يعرفه إنسان، أو يعرفه أحد، ولهذا رأيناه يعمل بهمة ونشاط في أمور الدنيا، وهو يعتقد بأنها توصله الى الآخرة، فقد كان هشاماً تقيا ورعاً حكيماً عاقلاً، وهذه الصفات تمنعه من أن يسير وراء العرافين، أو يسمع كلامهما"([4]).

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص66.

(2) المقري: نفح الطيب، ج1، ص334.

(3) ابن الجعد: مسند، ج1، ص77.

(4) الأمويين بين الشرق والغرب، ج2، ص185.

الحكم بن هشام (الربضي)(154هـ - 771م):

يكنى بأبي العاصي([1])، كان طاغياً مُسرفاً، وله آثار سوءٍ قبيحة([2])، ومن فساده أنه أول من أسرف في تأييد هيبته، وكان ميالاً إلى اللهو مولعاً بالصيد، يؤثر مجالس الندماء والشعراء على مجالس الفقهاء والعلماء، وكان شغوفاً بأبهة الملك مسرفاً في مظاهر البذخ، كثير الترفع عن العامة، لذلك كرهه العلماء، وحرضوا الناس عليه([3])، وكان أول من إستكثر من المماليك([4])، وقال ابن حزم: كان مجاهراً بالمعاصي سفاكاً للدماء، يأخذ أولاد الناس الملاح فيخصيهم ثم يمسكهم لنفسه، وهدم مساجد طليطلة وفعل بأهلها أعظم من ذلك، وتظاهر بالفسق والخمور؛ فقامت الفقهاء والكبراء فخلعوه في سنة (189هـ-805م)، ثم إنهم أعادوه لما تنصل وتاب، ثم تمكن فقتل نحو سبعين من أعيان أهل قرطبة وصلبهم، وذلك في ثورتها سنة (189هـ-805م)([5])، وكان منظراً فظيعاً فلعنه الناس وأضمروا الشر([6]).

وهو الذي أوقع بأهل الربض، وقتل الفقهاء والخيار؛ فقام الناس عليه منكرين؛ فأوقع بهم الوقعة المشهورة سنة (202هـ-818م)، وهدم الديار والمساجد، وولى ذلك رجلاً نصرانياً كان أسيراً عنده، اسمه ربيع([7])، ومن تعاليه على العامة أنه طلب من أحد غلمانه قارورة عطر (الغالية)، فأبطأ الغلام وتلكأ، فأعاد ذلك عليه، فقال: يا مولاي أهذا وقتها؟ فقال له: يا (ابن الفاعلة) بما يُعرف رأسي إذا قطع من رؤوس العامة، إن لم يكن مضمخاً بالغالية؟!([8])

كما أنه كان يعشق الفروسية والصيد؛ فكانت له ألفا فرس من الجياد المختارة، مرتبطة على شاطئ النهر تجاه القصر، يشرف عليها جماعة من العرفاء البارعين، وكان يؤثر مجالس الندماء والشعر؛ على مجالس الفقهاء والعلماء، كما أنه كان واسع الحيلة مثل جده، بحيث يذهب في صرامته وطغيانه إلى القسوة والقمع، وكانت له شرطة قوية منظمة، وله عيون يطالعونه بأحوال الناس([9]).

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص68.

(2) الحميدي جذوة المقتبس، ج1، ص4.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص179.

(4) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص160.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص179؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص71.

(6) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج9، ص522.

(7) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ج1 ص 96

(8) ابن الآبار: الحلة السيراء، ص46.

(9) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص167

يلاحظ بأن هذا نموذجاً من نماذج الحكام الفاسدين الفاسقين المستهترين بالحرمات، والوالغين في الدماء من جانب أخر، وعندما نرى مثل ذلك الأمير يتكرر على مدار التاريخ الأندلسي، فيجتمع فساد حاله إلى فساد من شابهه من الملوك، فإن الثبور والهلاك حتمي في تلك الدولة أو أي من الدول المشابهة، ووجوده وأمثاله إلا أن الخير عميماً عند كثيرٍ من حكام الأندلس، وإن لم يكن في كل حياتهم ففي جلها، نعم قد يوجد بعض الفسقة والظلام من الحكام، ولكن يوجد من أهل التقى والعدل، من استمرت معهم الأندلس، لمدة ثمانية قرون، ونحن لا نذكرهم هنا بنوع من التفصيل لإقتصار بحثنا على ذكر العيوب فقط.

عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط) (176هـ-792م):

ولد بطليطلة، وبويع بالخلافة سنة (206هـ-822م)([1])، كان متبحر في علوم الشريعة والفلسفة([2])، اتصف بالخلال الحميدة، فكان محمود السيرة، وأيامه أيام هدوء وسكون، وأقام الجسور وبنى جوامع كثيرة، ورتب رسوم المملكة، واحتجب عن العامة؛ ولكنه كان مولعاً بسماع الأغاني مؤثراً له على جميع لذاته، قدم عليه المغني زرياب، فركب بنفسه لملاقاته وبالغ في إكرامه، وأقام عنده بخير حال، وفي عهده سطع نجم الغناء بالأندلس([3])، يلاحظ بأن ذلك الحاكم العادل والذي بأمثاله حفظت الأندلس، قد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وذلك عندما عمل من أعمال البر ما لا يخفى على أحد، ولكنه كان ولعاً بالغناء ومن أجله أنفق الأموال، حيث أمر بإنفاق ثلاثين ألفاً لزرياب، فلم يرضَ خازن المال للمغني ذلك المبلغ الكبير؛ فدفعه الأمير من ماله الخاص، وفتح له باباً خاصاً في قصره يدخل منه متى يشاء([4]).

يلاحظ بأن النص الأخير يدلل على أن الناصر كان يمنح المال للمغني زرياب من بيت مال المسلمين، فلما رفض خازن بيت المال؛ أعطاه الناصر من حر ماله، وكان الأولى أن يدخر ذلك المال في بيت المال، وأن يعزز به العلماء والمجاهدين، ورغم أنه قد فعل ذلك فقوى الثغور، وشجع العلم، لكن يبقى المال عماد الحياة، وبمقدار ما ينفق في أوجه الخير بمقدار ما يمكّن الله لأصحابه.

المنذر بن محمد بن عبد الرحمن (229هـ- 843م):

بويع له بالخلافة سنة (273هـ- 886م)، تحبب إلى أهل قرطبة بإسقاط الضريبة عنهم في ذلك العام، ويذكر عنه بأنه قتل وزير أبيه هاشم بن عبد العزيز في أول ولايته، بسبب وشاية من الذين ابغضوا هاشماً، حيث قال هاشمٌ معزياً نفسه بوفاة محمد بن عبد الرحمن:

وعزي يا محمد عنك نفسي   أمين الله ذا المنن الجسام

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص81.

(2) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص167.

(3) المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ج1، ص48.

(4) الوكيل: الأمويين بين الشرق والغرب، ص235.

فهلا مات قوم لم يموتوا   ودفع عنك لي كأس الحمام

فتأول الواشون قول هشام بن عبد العزيز (لم يموتوا) أنه يريد المنذر، فنفذ فيه قضاء الله وقتله([1])، فهل بعد قتل وزيرٍ عادلٍ بوشاية يوجد فساد؟! علماً بأن المنذر كان له من صفات الحمد ما كان، إلا أنه لم يتورع أن يقتل نفساً بغير حق، وهنا يظهر بعض العيوب التي إذا ما تراكمت بعضها مع بعض، دمرت أعظم الدول، وهذا ما يؤكد على أن فساد بعض الحكام، لم يكن فساداً عاماً شاملاً، بل كان لهم أوجه صلاح وخير، بها حفظ الله بها ملكهم، وبعدلهم حفظت الأندلس.

وجاء بعده أخوه عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن، وبويع له بالإمارة سنة (275هـ – 888م)([2])، وفي تعامله مع خصومه سنة (282هـ–895م)، سجن المِطرف ابن الأمير عبد الله، وإبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون وابن عبد الملك الشذوني إلى السجن، وأوثقهم في الحديد، وقطع لسان سحنون الكاتب، وضرب ظهره، وفيها، أتت جباية إشبيلية. وعندما أتت أطلق ابن حجاج وابن خلدون والشذوني من سجن قرطبة([3])، وكان الأمير عبد الله بارعاً في حبك المؤامرات ولم يكن واسع الذكاء، ولا بعيد التصور، ولكنه تميز بالثبات، فما كان يفقد صوابه رغم تواتر الثورات عليه([4]).

الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي (350هـ–961م):

لما توفي الناصر ولي ابنه الحكم وتلقب المستنصر بالله، وولى على حجابته جعفر المصحفي، وأهدى للمستنصر يوم ولايته هدية، كان فيها من الأصناف ما ذكره بن حيان في المقتبس، وهي (مائة مملوك من الفرنج) ناشئة على خيول صافنة، وسيوف ورماح وترس، وثلاثمائة ونيف وعشرون درع مختلفة الأجناس، وثلاثمائة خوذة، ومئة سيف هندي، وخمسون خوذة حبشية، وثلاثمائة حربة إفرنجية، ومائة ترس سلطانية الجنس، وعشرة جواشن نقية مذهبة، وخمسة وعشرون قرنا مذهبة من قرون الجاموس([5])، وقال فيه ابن بسام: "إنه حجب الإمام، ونصب الحبائل والشرك"، أي أنه احتال إلى أن وصل إلى غايته، وما كان نصوحاً للخليفة([6])، وكان سياسياً سيئاً، فقد عهد بالكثير من وظائف الدولة لأبنائه وأقاربه، وكان كذلك غير أمين

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص114–115.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص121.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص193.

(4) الوكيل: الأمويين بين الشرق والغرب، ص286.

(5) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص185؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص382.

(6) الذخيرة، ج4، ص280.

على الأموال، فصور له خياله أنه إذا دافع عن الخليفة هشام، أصبح هو الوصي وأصبحت الدولة في يده([1]).

يرى الباحث بأن تلك الهدية التي أهديت للمستنصر يمكن أن تفهم بأكثر من معنى، منها محبة المصحفي وانتمائه للمستنصر، ولكن لماذا لم يُهدِ المصحفي تلك الهدية للمستنصر قبل أن يستعمله حاجباً؟! ويمكن أن تفهم بأنه قد أهديت للمستنصر تزلفاً ومداهنة، ناهيك عن حجم تلك الهدية الضخمة، والسؤال هل كانت من حر مال المصحفي أم لا؟ ومن خلال ما ذكر عن المصحفي فإننا لا نستطيع إحسان الظن به لأنانيته، فذلك الرجل كان نموذجاً لبطانة السوء التي تلتف حول الخلفاء، وبتلك البطانة تنتكس الحضارات، وتزول الأمم، وتصبح أثر بعد عين، كما حصل في الأندلس.

المنصور محمد بن أبي عامر(327هـ-1002م):

يعتبر المنصور من الشخصيات المتماهية مع الأمراء والخلفاء في الأندلس، حيث أنه سجل انجازات عظيمة وجليلة القدر، وليس أقلها إقامة حكم لأسرته، وما يتبعه من توطيد للملك، وفي سبيل ذلك قام بأمور مشينة، حيث استعان بالحاجب المصحفي للقضاء على الفتيان الصقالبة، فنكبهم المصحفي، وأخرجهم من القصر وكانوا ثمانمائة، وبعدها تآمر محمد بن أبي عامر على المصحفي؛ مستعيناً بصبح أم الخليفة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن، سنة (366هـ-976م)، فرقي إلى الوزارة، فأسقط المصحفي وسجنه طويلاً، فأرسل إليه المصحفي مستعطفاً فقال:

هبنى أسأت فأين العفو والكرم إذ قادنى نحوك الإذعان والندم
يا خير من مدت الأيدى إليه أما ترثى لشيخ نعاه عندك القلـــم
بالغت فى السخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا([2])

فأجابه المنصور قائلا:

الآن يا جاهلا زلت به القدم تبغى التكرم لما فاتــك الكـرم
ندمت إذ لم تعد منى بطائلة وقلما ينفـع الإذعـــان والندم
نفسي إذا سخطت ليست براضيـة ولو تشفع فيك العـرب والعجمُ([3]).

إن ذلك الشعر الذي كتبه المصحفي، ورد المنصور عليه يدل على قسوة قلب محمد بن أبي عامر، وحقده، بل ويدلل دلالة قاطعة بأنه لا يمتلك أخلاق الملوك ولا أولي الفضل، ناهيك عن

(1)الوكيل: الأمويين بين الشرق والغرب، ص382
(2) ابن الآبار: الحلة السيراء، ج1، ص267.
(3) ابن الآبار: الحلة السيراء، ج1، ص267؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص408.

وقوفه والتزامه بحكمة الحكماء القائلة: "إرحموا عزيز قوم ذل"، فما رحم شيبة المصحفي ولا عزه السابق، ولم يراعِ أي خلق من تلك الأخلاق.

ظل ابن عامر يدبر المكائد ويغري القواد، ويضرب بعضهم ببعض، حتى خلا له الجو، فرجع إلى الجند فجمع من زناتة والبربر، وأعد جنداً مرتزقة غلب بهم على الخليفة هشام، وحجر عليه، واستولى على الدولة وأخر رجال العرب، وقطعهم عن مراتبهم واستبد بالأمر([1])، ولقد كان ابن أبي عامر يسلك ذلك السلوك المشين، لأن نشأته لا تؤهله لأن يكون ملكاً أو رئيساً، حيث بدأ حياته كصاحب دكان عند باب قصر قرطبة، يكتب لمن يريد من الخدم، والمقدمين طلباتهم إلى السلطان، ولقد بغضه الأندلسيون لأنهم خافوا غدره ومؤامراته، فهو ذكي صاحب عقلية فذة في تدبير المؤامرات وحبكها، حتى ألف فيه ابن حيان تأليفاً في الكيد والحيلة([2]).

ثم جاء ابنه عبد الملك المظفر الحاجب سنة (392هـ -1002م)، وتولى الملك، وأجمع الناس على طاعته وحبه وكان شديد الحب للنبيذ، ولكنه مراقبٌ لربه باكياً على ذنبه محباً للصالحين طالباً منهم الدعاء، وكان عاقبة أمر حبه للخمر؛ أن استمع في أوقات شربه لبعض الوشاية عن رجل من أهم رجال حكمه؛ طرفه الصقلبي والوزير سعيد بن القطاع، فما كان منه إلا أن أصدر حكماً عنيفاً قاسياً بقتل مولاه طرفة، ووزيره سعيد بن القطاع، في مجلس شربه بأبشع طريقة، فخافه الناس فتحول إلى ظالم غشوم([3])، وبعده جاء أخوه عبد الرحمن بن عامر سنة (399هـ-1009م)، وافتتح أمره بالخلاعة والمجانة فكان يخرج من منيّة إلى منيّة، ومن منتزه إلى منتزه، مع الخيالين والمغنيين والمضحكين، مجاهراً بالفتك وشرب الخمر([4])، فقام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر سنة (399هـ-1009م) فخلعه، ولما وصل الخبر إلى عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر وكان خارجاً من قرطبة فرجع إليها، حتى إذا قرب من الحضرة، تسلل عنه الجند ودخلوا قرطبة، وبايعوا المهدي، وأغروه بالناصر، وأسلمت الجيوش عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر، فقُبض عليه، فقتل وُحز رأسه، وحملوه إلى المهدي وصلب، وذهب بذلك دولة العامرين كأن لم تغنى بالأمس([5]).

يلاحظ بأن سيرة بني عامر لم تخلو من الوحشية والإجرام وفساد الحكام، وتجاوز المحارم التي سبق ذكرها، وكانت تلك سمه مميزة لهم، وكان عاقبة أمرهم خراب بنيانهم وذهاب ملكهم، وهذا عدل الله في كل ظالم، الذي إذا أخذ الظالمين لم يفلتهم.

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص189.

(2) المقري: نفح الطيب، ج1، ص399.

(3) المقري: نفح الطيب، ج1، ص423.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص39.

(5) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص192؛ المراكشي، عبد الواحد: المعجب، ج1، ص86.

المعتمد بن عباد (431هـ- 1038م):

كان من الملوك الفضلاء، والشجعان العقلاء، والأجواد الأسخياء المؤمنين، عفيف السيف والذيل، مخالفاً لأبيه في القهر والسفك، إلا أنه كان مولعاً بالخمر منغمساً في اللذات عاطفاً على البطالة مخلداً إلى الراحة؛ فكان ذلك سبب عطبه وأصل هلاكه([1])، ومن شدة شغفه بالخمر تغنى بها قائلاً:

أَيُّهَا الصَّاحِبُ الَّذِي فَارَقَتْ عَيْنِـــي ونَفْسِي مِنْهُ السَّنَا والسَّنَاءَ

نحْنُ في المجْلِسِ الَّذِي يَهَبُ الرَّاحَةَ والمسمـــع الغِنَــى والغِنَاءَ

نَتَعَاطَى الَّتِي تُنْسِيــكَ في اللَّـــذَّةِ والرِّقَّةِ الهَوَى والـهَوَاءَ([2]).

يلاحظ بأن ابن الآبار قد تكلم عن ذلك الأمير ووصفه بصفات عظيمة جليلة، تليق بأعظم خلفاء الإسلام، ثم ذكر لهوه وعبثه وسكره؛ فإذا كان ذلك الأمير على تلك الصفات الذميمة، وكانت سبباً في ذهاب ملكه، فكيف يتكلم ابن الآبار ذلك الكلام فيه مادحاً ممجدا.

وهذا شكل من أشكال الفساد، حيث يداهن بعض المؤرخين والكتاب ملوكهم، أو في ذكر من سبقهم، مما يوهم عامة القراء بأن ذلك الفعل لا بأس به، أي بأن تكون سكيرً وورعاً فلا ضير، وكان الأولى بابن الآبار رحمه الله وغيره بأن يضعوا الأمور في نصابها ويصفوا الأحوال كما هي، فالسكير والقاتل والفاسد يجب أن يُنعت بصفاته تلك، دون أن يتم تزيينه ببعض أعمال البر التي لا يخلوا منها أي إنسان على وجه الأرض.

المأمون بن يحيى بن إسماعيل (435هـ- 1043م):

دام ملكه ثلاثة وثلاثون سنة، وهو من أكثر الملوك ترفاً، فقد بنى القصور الفخمة، والمجالس الباهرة، وأشهرها مجلسه المسمى بـ "المُكرم"، فقد قال ابن حيان: له إزارٌ رائع دائر بأسه حيث دار، وهو مُتَخذٌ من رفيع المرمر الأبيض المسنون، الزارية صفحاته بالعاج في صدق الملامسة، ونصاعة التلوين، قد خُرمت في جثمانه صورٌ لبهائم وأطيار وأشجار ذات ثمار، وقد تعلق كثيرٌ من تلك التماثيل المصورة بما يليها من أفنان الأشجار، وأشكال الثمر، من تأملها يشعر كأنها مقبلةٌ عليه، أو مشيرةٌ إليه، وكل صورةٍ منها منفردةٌ عن صاحبتها، متميزةٌ من شكلها، تكاد تقيّد البصر عن التعلي إلى ما فوقها، وقد فصل هذا الإزار عما فوقه كتاب نقشٍ عريض التقدير، محفور دائرٌ بالمجلس الجليل، من داخله قد خطه المنقار، قائم الحروف، بديع الشكل، مستبينٌ على البعد، مرقومٌ كله بأشعارٍ حسان، قد كُتبت في أماديح مخترعه المأمون، وفوقه بحورٌ منتظمةٌ من الزجاج الملون الملبس بالذهب الإبريز، وقد أجريت فيه أشكال حيوانٍ وأطيار، وصور

---

(1) ابن الآبار: الحلة السيراء، ج2، ص54.

(2) القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ج1، ص356؛ المقري: نفح الطيب، ج4، ص281.

أنعامٍ وأشجار، يُذهل الألباب ويقيد الأبصار وأرض هذه البحار مدحوةٌ من أوراق الذهب الإبريز([1]).

يلاحظ بأن من يقوم على تلك الأبنية وفعلها وتزينها بتلك الزينة، وإنفاق تلك الأموال الباهظة، في زمن كان أعداء المسلمين يتربصون به من كل جنب، ليدل دلالة قاطعة على فساد أمره وتدبيره، ناهيك عن فساد خلقه، خاصة إذا ما علمنا بأن ذلك المجلس قد أعد لاستقبال المدعوون لحفل ختان وإنها لمعيبة من معائب التاريخ، أن يصل الأمر بأحد ملوك المسلمين الى تلك الدرجة الفاسدة.

القادر بن ذي النون (467هـ - 1075م):

جاء يحيى بن إسماعيل بن يحيى بن ذي النون للحكم في قرطبة سنة (467هـ-1075م)، وتلقب بـ(القادر بالله)، وكان فاسد الخلق سيئ الرأي جعل لنفسه بطانة سوء، وتحكمت فيه نساء القصر، وسار وراء هوى الغانيات، ومن فساده وضعف رأيه وشت بطانة السوء له بوزيره ابن الحديدي؛ فقتله في أوائل ذي الحجة سنة (468هـ-1076م)([2])، وبتلك الصفات الذميمة التي اتصف بها القادر كان لابد أن ينتصر عليه من يحاربه، ففي أيام القادر بن ذي النون كان ابن أذفونش استفحل أمره، فاكتسح البسائط وضايق ابن ذي النون حتى أخذ من يده طليطلة؛ فخرج له عنها (478هـ-1086م)، وشرط عليه أن يظاهره على أهل بلنسية، فقبل شرطه وتسلمها ابن اذفونش([3]).

كان من الطبيعي والأخلاق السابقة ملازمةً لابن ذي النون، أن تضيع البلاد ويخرب شأن الملك، فقد خرج ابن ذي النون خائباً بعقبى ما جناه، والأرض تضج من مقامه، وتستأذن في انتقامه، والسماء تود لو لم تطلع نجماً إلا كدرته عليه حتفاً مبيداً، ولم تنشئ عارضاً إلا مطرته عذاباً شديداً، ثم استقر مخفور الذمة، ذليل الحرمة، ليس دونه باب، ولا دون حرمه سترٌ ولا حجاب، وقد أطاف به النصارى والمسلمون أولئك يضحكون من فعله وهؤلاء يتعجبون من جهله([4]).

يلاحظ بأن قانون الله قد سرى على القادر بن ذي النون، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُم)([5])، فقد تولى عن منهج الله، وتنكب الطريق المستقيم، فخاب وخسر،

---

(1) ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص132-133.

(2) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص179.

(3) المقري: نفح الطيب، ج1، ص441.

(4) ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص167.

(5) سورة محمد: أية 38.

وفسد أمره وأفسد غيره، أفسد دولة عظيمة، عندما تراكم فساده مع فساد غيره، فخربوا البلاد والعباد.

أبو بكر بن تيفلويت حاكم سرقسطة (508هـ- 510هـ):

وهذا الأمير من الأمراء المرابطين الذين أمعنوا بالفساد، على عادة بعض من أمراء المرابطين في نهاية حكمهم، فقد كان منادماً لأبي بكر بن باجة، وكانت تطربهما قيّنة من القينات المجيدات للشعر والغناء([1])، وكان ابن باجة صاحب تلاحين معروفة، ومن حكاياته المشهورة، أنه حقر مجلس مخدومة ابن تيفلوت، فألقى على بعض قيّناته موشحته التي أولها: جرر الذيل أيما جر، فطرب الممدوح لذلك وختمها بقوله:

عقد الله راية النصر لأمير العلا أبي بكر

فلما سمع ابن تيفلويت صاح: واطرباه وشق ثيابه وقال: ما أحسن ما بدأت وما ختمت، وحلف بالأيمان المغلظة إلاّ يمشي ابن باجة إلى داره إلاّ على الذهب؛ فخاف ابن باجه سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهبا في نعله ومشى عليه([2]).

وقيل في ابن باجة بأنه إمام الأندلس في الألحان، وقد ذمه البعض فقيل في وصفه: رمد جفن الدين، وكمد نفوس المهتدين، وقد استوزره أبو بكر بن تيفلويت ملك سرقسطة([3]).

يلاحظ أن ذلك الأمير المرابطي كان من فساده الغرق في البناء واللهو، وعقد مجالس السكر والمنادمة، واستوزر أبو بكر بن باجه (المُطرب)، بدلاً من استوزار أهل الفضل من العلماء والدين–رغم ان شان العلماء كان عظيما في دولة المرابطين–، ثم الإستهتار بالمال ومنحه لابن باجة لقاء قصيدة مدح.

وقد ذكر أن أمير المرابطين إبراهيم بن يوسف بن تاشفين (339هـ–1045م/ 541هـ-1146م) كان ينادم أبو بكر بن باجه([4]).

يعد الفساد في الدين من أخطر أنواع الفساد الذي يمكن أن يعاني منها المسلمون ودولتهم على مدار التاريخ؛ لأن الدين الإسلامي بتطبيقه هو الضامن الأوحد في حفظ الحضارة الإسلامية، ودولة الإسلام، مصداقاً لقول الله تعالى: **(فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ**

---

(1) ابن سعيد: المقتطف من أزاهر الطرف، ص257.

(2) المقري: أزهار الرياض، ج1، ص119.

(3) المغربي، ابن سعيد: المغرب، ج2، ص119.

(4) بوتشيش: أثر الأزمة الأخلاقية في سقوط دولة الإسلام في الأندلس، ص22.

فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)([1]) وما قاله الإمام مالك عندما سُئل عن مسألة فقهية وكان فيها مخالفة لما عليه النبي ﷺ فقال: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها"([2]).

لقد كان الفساد عند محمد بن تومرت (472هـ-1080م/ 524هـ-1130م) مؤسس دولة الموحدين فساداً عظيماً، خرب دولة المرابطين التي سبقتها، وأفسد ما بعده من قلوب وعقول الموحدين، وقد قرر ابن تومرت في نفوس الموحدين عقيدة المهدي، ونسبه ونعته، ثم ادعى ذلك لنفسه، وقال أنا محمد بن عبد الله، ورفع نسبه إلى النبي ﷺ، وصرح بدعوى العصمة لنفسه وأنه المهدي المعصوم، وروى في ذلك أحاديث كثيرة حتى استقر عندهم أنه المهدي، وبسط يده فبايعوه على ذلك، وقال: "أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله ﷺ"، وكان يبطن شيئاً من التشيع غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيء([3]).

إن تلك الفرية التي افتراها ابن تومرت لا شك بأنها من أعظم أشكال الفساد في الدين ،لأنه لا دليل عليها لا من كتاب ولا من سنة، والمعروف عند أهل السنة والجماعة بأن العصمة لم تثبت إلا للأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وحتى كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم جميعاً؛ لم تثبت لهم عصمة([4]).

يرى الباحث بأن ذلك الفساد العقائدي عند بن تومرت، ظهر خطره في إفساد الدين، الذي به تصان الدول، وتحفظ الحرمات، والدين الإسلامي هو سياج يحمي الملك والإنسان والأخلاق وكل خير، فإن فسد الدين فسد ما بعده، وهكذا أثرت عقيدة بن تومرت الفاسدة على سقوط الأندلس دولة وإنساناً، وإن تأخر ذلك السقوط حقباً من الزمان، بفضل بعض الحكام أصحاب العقيدة الصالحة، إلا أن ذلك الخلل العقائدي كان ينخر في جسد الأندلس.

محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر (595هـ-1198م):

أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر كانت أيامه ثلاثا وأربعين سنة([5])، وكان سعيداً مؤيداً، مدبراً، حازماً، بطلاً، شجاعاً، ذا دين وعفاف، هزم ابن هود ثلاث مرات، ولم تكسر له راية قط، وقد جاء أذفونش فحاصر جيان عامين، وأخذها بالصلح، وعقدت بينهما الهدنة عام اثنتين وأربعين، فدامت عشرين سنة، فعمرت البلاد([6]).

---

(1) سورة النور: آية 63 .

(2)ابن تيمية: كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه، ج20، ص375.

(3) المقري: نفح الطيب، ج1، ص187-188.

(4) ابن تيمية: منهاج أهل السنة، ج7، ص59.

(5) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج4، ص1490.

(6) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج50، ص116.

يُلاحظ بأن تلك الصفات التي اتصف فيهامحمد ابن يوسف، لم تمنعه من أن يكون نموذجاً من أسوء نماذج الفساد السياسي لدى الحكام، فهو الذي وقع اتفاقية مذلة مع ملك قشتالة فرناندو الثالث؛ وتنازل بموجبها عن حصون جيان وأرجون المهمة ([1])، ناهيك عن دفع الجزية لفرناندو، وحضوره اجتماع مجلس قشتالة (الكورتيس)، كونه تابعاً للعرش القشتالي، وكذلك حكمه لغرناطة باسم ملك قشتالة علانيةً([2]).

يرى الباحث بأن الذهبي في وصفه السابق لمحمد بن يوسف لم يكن موفقاً، فكيف ينعته بتلك النعوت، فأي بطولة وحزم وشجاعة ودين تلك التي تسمح لسلطان المسلمين أن يتنازل عن ما تنازل عنه، وأن يدفع الجزية ويحكم المسلمين باسم فرناندو الثالث النصراني، وعندما حقق انتصاراته كانت ضد ابن هود (الحاكم المسلم)، وهزمه ثلاث مرات، أما عندما تواجه مع فرناندو الثالث فقد اتفقا على الصلح.

عبد الله بن المنصور (الناصر لدين الله الموحدي):

بعد وفاة والده سنة (595هـ -1199م)، جاء المنصور وكان شاباً طموحاً قوياً مجاهداً، وكان لا يتجاوز الثامنة عشر من عمره([3])، كان لذلك الخليفة بطانة سوء وشر، ومنهم وزيره سعيد بن جامع، الذي أشار عليه بقتل أبو الحجاج يوسف بن قادس، بعدما وشى له بأنه تقاعس في القتال، ولم يتردد الناصر فقام بقتل القائد أبو الحجاج يوسف بن قادس([4])، وبعد وقعة العقاب سنة سنة (608هـ-1212م) والتي على أثرها قتل ابن قادس، قال المقري: كانت الوقعة طامةً على الأندلس والمغرب جميعاً، وما ذلك إلا لسوء التدبير، فإن رجال الأندلس العارفين لقتال الإفرنج استخف بهم الناصر ووزيره، فشنق بعضهم، مما أفسد النيات، فكان ذلك من حسن طالع الإفرنج، وبعد تلك الموقعة لم تقم للمسلمين قائمة تُحمد([5]).

وذلك نموذجاً أخر من نماذج الحكام في الأندلس، الذي لم يتورع عن سفح دم كبار قادة جنده المشهود لهم بالكفاءة القتالية، نتيجة خطأ عسكري، يتكرر مع معظم قواد الحروب عبر التاريخ، ورغم صلاح عبد الله بن المنصور (الناصر) في كثير من شؤونه إلا أنه لم يتورع أن يجعل في بطانته أبو سعيد بن جامع، الذي أمره بسفح دم ابن قادس ومجموعة من القواد الكبار، وهكذا تفقد الدول عظيم رجالها ليبقى أشباه الرجال والذين بهم يأفل نجم الحضارات.

فساد القضاء:

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج7، ص190.

(2) عنان: دولة الإسلام، ج5، ص42.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج4، ص230؛ المراكشي: المعجب، ص386.

(4) ابن خلدون: تاريخ، ج6، ص249.

(5) المقري: نفح الطيب، ج4، ص383.

والنتيجة الطبيعية لوجود قضاة فاسدين، هي فساد كل الجوانب السياسية في الدولة، ناهيك عن فساد المجتمع برمته، وفي ذلك المقام لابد من الحديث عن شيء من فساد القضاء، حيث يذكر القاضي عياض في ترجمة القاضي أبي عبد الله بن عيسى ،أنه بقي في قضائه إلى أن رأى ما لا يعجبه فاستعفي، فلم يبقى سوى قضاة معظمهم من المتزلفين، قضاة سايروا هوى السلطة، واشتروا الحق بالباطل، حفاظاً على مصالحهم بدل السير في الطريق القويم، وهو ما تعكسه من جهة ثانية رسالة علي بن يوسف المرابطي إلى أحد قضاته، يدور موضوعها حول المتظلمين الذين وردوا على العاصمة لرفع شكاويهم للأمير نفسه، ومما جاء فيها: "ومع هذا نقول أن هؤلاء الرافعين لو وجدوا في بلادهم أشكاء ،والقوا عند متقلدي الأمور لرد ظلاماتهم وقاء، لما تجشموا بعد الشقة، ولا تحملوا نحونا عظيم المشقة"([1]).

يتضح من تلك الرسالة أن الناس لم يجدوا في تلك البقاع قضاة عادلين، حتى يرفعوا إليهم بشكواهم، لذلك تحمل الناس تعب السفر، وجاؤا إلى علي بن يوسف بن تاشفين، ليشكوا إليه، ولا بد الإشارة هنا، إلا أن القضاء لم يكن فاسداً في كل عصور الأندلس وعهودها، ولكن العدل في القضاء يتبع الحاكم، ودينه وأخلاقه، ويمكن القول بأن الظلم في القضاء يضاف إلى باقي الأمور التي اجتمعت، وشكلت أسباباً في القضاء على الأندلس.

وتذكر ترجمة أخرى أن القاضي عبد الله بن عيسى بن أحمد بن سليمان (ت 581هـ-1185م)، امتحن عندما عمل في القضاء، لإقامته الحق وإظهار العدل، فاعتقل بقصر اشبيلية، وثمة أسماء أخرى من القضاة الذين تم عزلهم بسبب صلابتهم في الحق، وتمسكهم بناموس العدالة، حتى أن كثيراً منهم صاروا يطلبون الإعفاء من مهنة القضاء، ويمثل القاضي أبو علي الصدفي أحسن نموذج، إذ لم يكتف بطلب الإعفاء، بل اختفى مدة طويلة حتى لا تضغط عليه السلطة في تولي ذلك المنصب حسب توجهاتها، وفضّل بدلاً من ذلك الإستشهاد في سبيل الله([2]).

أمام تلك الصور من الفساد الذي كان عند بعض أمراء المرابطين يحضر وصف المقري ليوسف بن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية فقال: "كان مقتصداً في أموره، غير متطاول ولا مبذر، غير سالك نهج الترف والتأنق في اللذة والنعيم"([3])، وكان يوسف بن تاشفين قد اقتصر في طعامه على خبز الشعير، بالماء ولبن الإبل([4])، وبعد وفاة يوسف بن تاشفين تغلبت الحياة الأندلسية بمتعها وبهجتها ومسراتها على المرابطين، ولم يكن ممكناً مقاومتها طويلاً؛ فعاشوا فيها، وظهرت

(1) ابن عبدون: رسالة الحسبة، ص12.

(2) بوتشيش: أثر الأزمة الأخلاقية، ص28.

(3) المقري: نفح الطيب، ج4، ص374.

(4) ابن عذارى: البيان المغرب، ج4، ص46.

أول المؤثرات الجديدة في عهد علي بن يوسف، المولود في بحبوحة العز والترف، كان إذا رحل إلى الأندلس نزل باشبيلية في معرش في غاية الحسن والجمال([1])، إن ذلك التوصيف للمقري الذي خص به يوسف بن تاشفين رحمه الله، بين بوضوح وجود أولئك الحكام والأمراء، المتميزين بالزهد والعبادة، الحريصون على الدين والدولة، والذين بهم استمرت الأندلس ثمانية قرون، وأمثال يوسف لم يكونوا قلة بين الحكام، ولكن كما للصالحين أثرٌ حميد، فإن للفاسدين أثرٌ نكد به ضاعت الأندلس. وكان علي بن يوسف بن تاشفين قد أقام في إشبيلية قصور وبساتين سنة (520هـ-1126)، وتفنن المهندسون في زخرفة تلك القصور، في مختلف البنايات، وظهرت الأندلس في أواخر عصر المرابطين مدينة زاخرة بمظاهر حياة الترف والبذخ، واكتظت قصور الأمراء بالعبيد والخدم والإماء والجواري من الإفرنج والسودان، وقد وصف الفتح ابن خاقان شيئاً مما سبق ذكره فقال: "وخرجت من إشبيلية مُشيعاً لأحد زعماء المرابطين؛ فألفيته ومعه جملةً من حاشيته، فلما انصرفنا مال بنا إلى معرش أمير المسلمين، الذي ينزله عند حلوله بإشبيلية، وهو موضع مستبدع، كأن الحسن فيه مودع، ما شئت من نهر ينساب انسياب الأراقم، وروض كما وشت البرد يد راقم، وزهر يحسد المسك رياه، ويتمنى الصبح أن يسم به محياه(2)، فقطف غلام وسيم من غلمانه وردة ومد يده إليّ وهي في كفه، فعزم عليّ أن أقول بيت من الشعر فقلت:

وبدر بدا والطرف مطلع حسنه   وفي كفه من رايق النور كوكب
يروح لتعذيب النفوس ويغتــدي   ويطلع في أفق الجمال ويغرب([3]).

في ذلك القصر الوارف الظل، كان ينزل أمير المسلمين، فيستمتع بمطايب الحياة الأندلسية الرفيعة، فشابهه الأمراء والقواد، وعاشوا عيشة رفيعة مترفة، فيها رخاء ومتعة، فتأنقوا في المأكل والملبس، واتخذوا مجالس من الشعراء والمغنيين والندماء، فبدؤوا يحيون حياة لا تختلف عن الحياة التي كان ملوك الطوائف يحيونها([4]).

لقد انغمس المرابطون في الترف والنعيم، وفقدوا خصائصهم البدوية، وما اتصفوا به من خشونه وغِلظة وخضعوا للنساء، وقد انغمسوا في الشهوات والملذات، فضعف أمرهم واختلت أحوالهم، مما جدد هجوم النصارى على الأندلس، ولما رأى الأندلسيون حكام المرابطين لا يتحركون لإنقاذهم من هجمات النصارى طردوهم من بلادهم([5]).

---

(1) محمود: قيام دولة المرابطين، ص368.

(2) المقري: نفح الطيب، ج1، ص675.

(3) ابن الخطيب: الإحاطة، ج3، ص401.

(4) محمود: قيام دولة المرابطين، ص369.

(5) الفقي: تاريخ المغرب والأندلس، ص260.

يبدو واضحاً من ذلك السرد التاريخي لمجموعة من ملوك وأمراء الأندلس بأنهم سفاكون، فاسدون، ظلمه، يمكن نعتهم بكل نقيصة، وقد سمحوا للتاريخ بأن يكتب عنهم بتلك القسوة، لأنهم ما اتقوا الله ولا راعوا حرماته، وقد يظن الظان بأن الباحث ما هو إلا متتبع لسقطات لأولئك الحكام والأمراء مخفياً محاسنهم وخصالهم الحميدة؛ ولكن الأمر غير ذلك، فالمقام هو مقام ذكرٍ لتلك الأسباب التي أدت إلى سقوط حضارة عظيمة، وذهاب مجدٍ تليد، فكان لابد أن يذكر تلك المعايب ليس من بال تتبع سوءات السابقين التزاماً بقول النبي ﷺ: "من تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ الله عَوْرَتَهُ وَمَنْ تَتَبَّعَ الله عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ في جَوْفِ رَحْلِهِ"([1])، فالباحث يربأ بنفسه أن يتتبع عورة السابقين ولكن مقتضى البحث والدراسة العلمية تحتم ذلك، ولأخذ العبرة والعظة قال تعالى:" لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى"([2])، وهذا الأمر لا يعني بأي حال من الأحوال، أن ننظر إلى حكام الأندلس وتاريخهم، على أنه تاريخ أسود قاتم، بل هناك الكثير من الحكام، ممن أبلوا بلاءاً حسناً، وفي كل مجالات الحياة، السياسية والإقتصادية والإدارية.

---

(1) الترمذي: سنن، ج4، ص378، حديث رقم (2032).

(2) سورة يوسف: أية 111.

المبحث الثاني

الصراع على السلطة

يُعتبر الصراع على السلطة من أشد الأمور المذهبات للملك، والمهلكات للأمم، على مدار التاريخ، لأن الصراع على السلطة عادةً ما يكون علّة في داخل الجسد، تلك العلّة التي لا يقوى أي جسد مهما بلغ من قوة على دفع غائلتها، فلم يسفك دمٌ في التاريخ مثلما سفك على الصراع على السلطة، ومن المعروف بأن العدو الخارجي مهما بلغت أضراره لا يمكن أن يكون كأضعف عدو في داخل الأمة، خاصة والحديث عن صراعٍ راح ضحيته مئات المسلمين، وخربت فيه عشرات القرى والبلدان.

مقتل عبد العزيز بن موسى (97هـ- 716م):

كان عبد العزيز أميراً فاتحاً ولاه أبوه إمارة الأندلس عند عودته إلى الشام سنة 95هـ-714م، فضبطها وسدد أمورها وحمى ثغورها وافتتح مدائن، وكان شجاعاً حازماً فاضلاً في أخلاقة وسيرته([1])، ورغم تلك الصفات التي عجت بها كتب التاريخ، إلا أن ذلك القائد المسلم الكبير كان من أوائل الذين قتلوا في الصراع على السلطة، حيث ساءت العلاقات بينه وبين الخليفة سليمان بن عبد الملك (54هـ-674م/ 99هـ-717م)، وذلك بعدما علم عبد العزيز بما حل بأبيه موسى على يد سليمان من الاضطهاد، وسوء المعاملة، فوجه النقد لتصرفات الخليفة سليمان([2])، فاستاء منه وخاف أن يخلع طاعته فتخلص منه([3])، وكتب سليمان إلى بعض عماله بأن من يقتل عبد العزيز فهو أمير مكانه، وكتب سليمان إلى عبد العزيز أما بعد: فإن أمير المؤمنين علم ما أنت بسبيله من العدو وحاجتك إلى الرجال أهل النكاية والغناء، فكتب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن موسى يأمره بإشخاصهم إليك فولاهم أطرافك وثغورك، واجعلهم أهل خاصتك، وكتب إليهم سليمان: إني قد بعثت لكم بكتاب إلى أهل الأندلس بالسمع والطاعة لكم، والغدر في قتله أي قتل عبد العزيز بن موسى، فأقروا عهدي على من قبلكم من المسلمين ثم ارجعوا إليه حتى تقتلوه، وعندما وصلوا إلى عبد العزيز أكرمهم ووضعهم حيث أوصى الأمير([4])، ثم كانت مقتلته على أيديهم، وحمل رأسه ووضع أمام الخليفة سليمان، وعندما رأى موسى بن نصير رأس ابنه أمامه قال: هنيئاً

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص149؛ النويري: نهاية الإرب، ج24، ص29.

(2) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ج2 ص95.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص95.

(4) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة، ج2 ص255.

له الشهادة، قتلتم والله صواماً قواماً([1])، وقتل في رجب من عام (97هـ- 716م)، بعد حكم دام أقل من سنتين([2]).

قد يكون قتل عبد العزيز متعلقاً بالصراع على السلطة، وهذا يتضح من خلال قول، سليمان بن عبد الملك لعماله بأن من يقتل عبد العزيز سيحل محله في الأندلس؛ فتهافت أولئك العمال على حز رأس ذلك المجاهد ابن المجاهد، وقيل أن سبب المقتله خشية سليمان بن عبد الملك أن يذهب سلطانه، بعدما نُكب موسى بن نصير وولده عبد العزيز فأمر بقتله.

بدأ عهد الولاة بمقتل أولهم وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير، وانتهى بحربٍ بين أخر ولاة ذلك العصر وهو يوسف بن عبد الرحمن الفهري (129هـ- 747م)، وبين أبو الخطار ويحيى بن حريش، فبعد تولي الفهري للحكم عزل ابن حريش عن كوره ريّه، فدعا اليمنيين وكاتب ابن خطار بهدف القيام ضد يوسف الفهري، وزحف الاثنان إلى قرطبة وواجهما يوسف الفهري سنة (130هـ- 747م)، عند قرية شقندة، وبعد معركة رهيبة قتل ابن حريش وابن خطار واستتب الأمر ليوسف الفهري([3]).

الملاحظ أن سبب الحرب بين الفهري وابن حريش كان نزاعاً على السلطة؛ حيث غضب ابن حريش بعد إقالته وأراد أن يرجع إلى سلطانه، فأعلن الحرب وكانت النتيجة قتله، وهكذا يبدأ ذلك الزمن الباكر لحكم الإسلام في الأندلس بالخط المنحرف عن الإسلام، والمتمثل بالقتال حتى الموت من أجل السلطة وكرسي الملك عند بعض الملوك.

الصراع بين يوسف الفهري وعبد الرحمن الداخل:

نزل عبد الرحمن الداخل الأندلس سنة (138هـ - 750م)([4])، في تلك الفترة كان يوسف الفهري قد قضى على الثائرين في سرقسطة، وجهز الأندلس لتكن خالصة لولده من بعده، وعندما علم بقدوم عبد الرحمن بن معاوية -رحمه الله- اضطرب أمره وخطط للتخلص منه، وأشار عليه الصميل قائلاً: بأن عبد الرحمن قريب عهد بزوال النعمة، فهو يغتنم ما تدعو اليه ثم أنت بعد ذلك متحكم فيه، فراسل الفهري عبد الرحمن وحذره من أتباعه وأنهم أهل غدر ونقض للإيمان وقال: وقد تأبش([5]) من تأبش إليك، ونزع نحوك من السراق وأهل الغدر ونقض الأيمان، وجنحوا إلى

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص149؛ النويري: نهاية الإرب، ج24، ص29.

(2) النويري: نهاية الإرب، ج2، ص32.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص36.

(4) المقري: نفح الطيب، ج1، ص328.

(5) تأَبَّش القوم وتهبَّشوا وتَحبّشُوا، وتأَشَّبُوا، إذا تجمعوا (الأزهري: تهذيب اللغة، ج11، ص296).

النقض، والله من ورائهم محيط فإن كنت تريد المال وسعة الجناب، فأنا أولى لك ممن لجأت إليه أكنفك، وأصل رحمك، وأنزلك معي إن أردت بحيث تريد([1]).

لم تُجدِ الرسائل نفعاً مع عبد الرحمن الداخل، وفي يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة (138هـ-756م) جهز عبد الرحمن الداخل جيشه، بعدما عبأ الأجناد، وخرج إلي الفهري؛ ودعا برجل من الأنصار؛ فعقد لواءه، وارتحل في جنوده، حتى نزل بقرية على نهر قرطبة يوم الاثنين 6 من ذي الحجة، وخرج الفهري إلى المصارة، وأقام ثلاثة أيام، والنهر حاجز بينهما؛ ثم انحصر ماء النهر يوم الخميس واقتربا من المصارة، فتجاوز العسكران، ويوم الجمعة التقى الجمعان، واستحرت الحرب، ثم انهزم الفهري وأصحابه، وذهب إلى قصره؛ فحيل بينه وبين دخوله، ثم ولى منهزماً إلى سفح جبل قرطبة، واستولى الأمير عبد الرحمن على الملك، وتمت له بيعة العامة بقرطبة ([2]).

لم يكتفِ عبد الرحمن الداخل في انتصاره في معركة الُمصاره، بل زحف إلى البيرة خلف يوسف الفهري التي فر إليها وجيشه، ليقض عليه قبل أن يستفحل أمره، ووصل إلى قرية أرمله([3])، وبوصول عبد الرحمن الداخل أدرك الفهري عدم مقدرته على مواجهته، فطلب الصلح، فوافق الداخل على ذلك مقابل أن يجعل الفهري على أملاكه وأولاده، على أن يسلم الفهري إبنيه لعبد الرحمن الداخل كرهينة سنة (140هـ -757م)([4]).

وفي عام (142هـ- 759م) قتل عبد الله بن عمر الأنصاري يوسف الفهري، بعد أن قام الفهري، بتكوين جيش من عشرين ألف وحاصر إشبيلية، فخرج له عبد الملك بن عمر المرواني، وزحف إليه عبد الرحمن بن معاوية من قرطبة؛ فخاف يوسف الفهري من تلك الجيوش وانهزم، ولجأ إلى طليطلة وتفرق جيشه، فأدركه عبد الله بن عمر الأنصاري، وحز رأسه واقبل به إلى عبد الرحمن بن معاوية، وانتهت تلك المعارك بين الداخل والفهري([5]).

يرى الباحث بأن تلك المعارك التي قامت بين يوسف الفهري وعبد الرحمن الداخل ما كانت إلا بسبب محاولة سيطرة الفهري على مقاليد الأمور، وذلك أنه منّى نفسه بأن تكون الأندلس له ولذريته من بعده، وكأنه قد ورثها من أبائه، ولكن خاب فأله بقدوم عبد الرحمن الداخل، ومن خلال وقوف الباحث على ما تمتع به ذانك الخصمان من أخلاقيات، نرى بأن عبد الرحمن كان

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص158.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص159.

(3) مجهول: أخبار مجموعة، ص92.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص48.

(5) مجهول: أخبار مجموعة، ص96.

يمتلك الشهامة والغيرة على دماء المسلمين، وتوحيد البلاد والخير للعباد، بعكس يوسف الفهري الذي كان نموذجاً سيئاً لمحبي السلطة والمناصب.

وبعد قضاء عبد الرحمن الداخل على ثورة يوسف الفهري، قامت ضده ثورات أخرى، واستطاع القضاء عليها وأهم تلك الثورات (ثورة العلاء ابن مغيث الجذامي) والتي قامت سنة (146هـ 763م)، وكان دعا لطاعة أبي جعفر المنصور ونشر الأعلام السوداء، واستطاع عبد الرحمن الانتصار عليه وقتله مع 6000 من أتباعه([1])، وقد سبق الإشارة إليها.

وكذلك ثار ضده البربري شقنا بن عبد الواحد سنة (152هـ-769م)، وقضى عليه عبد الرحمن الداخل وقتله سنة (160هـ-777م)([2])، وقد سبق الإشارة إليها أيضاً.

يلاحظ أن الثورتان آنفتا الذكر قد اختلط بهما الصراع العنصري، حيث كان البربر طرفاً أولاً، وكان العرب الطرف الثاني، وكذلك كانتا من أجل الصراع على السلطة كما هو واضح، ما بين مؤيد للخلافة العباسية، وما بين الخلافة الأموية.

ثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهري (الصقلبي 162هـ-779م):

قام بن حبيب بثورته ضد الداخل مستعيناً بالبربر، ودعا للعباسيين، فقاتله الداخل قتالاً شديداً، مما أجبر بن حبيب أن يهرب إلى الجبال، فبسط الداخل سلطانه على تدُمير، وتقدم إلى بلنسيا، ثم قام الداخل بتأليب (مشكار البربري) على الفهري فقتله وحمل رأسه إلى عبد الرحمن الداخل، وبذلك انتهت ثورة الفهري سنة (162هـ-779)([3]).

تواصل الصراع على السلطة بين الأمراء (الشرعيين الأمويين) وبين بعض الزعماء والأمراء الذين حاولوا الاستئثار بحكم هنا أو هناك، وظلت تلك سمة مميزة للعصر الأموي في الأندلس، ففي عهد هشام ابن عبد الرحمن الرضا (172-180هـ)، ثار عليه أخوه الأكبر سليمان والي طليطلة، ودعا لنفسه بالخلافة، ولحق به أخوه عبد الله (البلنسي) في طليطة، مما دفع هشام الرضا إلى حصارهما في طليطلة، وبعد حصار دام شهرين عاد هشام إلى قرطبة وأيقن عبد الله بفشل ثورته، فالتمس الصفح من أخيه، فعفا عنه وأكرم وفادته، وأما أخيه سليمان فقد فر إلى تُدمير، فضيق عليه هشام الحصار مما جعله يطلب الأمان فوافق هشام على طلبه بشرط أن يذهب إلى المغرب هو وأولاده، فقد أعطاه هشام 60 ألف دينار مقابل ذلك وأرسل معه أخاه عبد الله، وهكذا انتهت ثورة الأخوين سنة (174هـ-790م).

---

(1) مجهول: أخبار مجموعة في ذكر الأندلس، ص103.

(2) ابن خلدون: العبر، ج2، ص123.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص55.

وفي الصراع على السلطة ثار على الحكم الأول بن هشام (الربضي 180-260هـ/ 796-821م) عميه سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمن ابن معاوية، فما أن سمع عبد الله بموت أخيه هشام حتى أسرع إلى الأندلس، وليسبق أخاه سليمان فنزل بسرقسطه، عند بهلول بن مرزوق الذي ثار على الأمير الحكم وذلك سنة (181هـ - 777م)([1])، أما سليمان فقد وصل الأندلس سنة (182هـ 798م)، واستطاع أن يجمع جيشاً ويهاجم قرطبة، ولكن الأمير الحكم تغلب عليه، فعاود سليمان القتال إلى أن انهزم، وفي المرة الثالثة جاء بجيش من البربر عام (183هـ-799م)، وتوجه الي إستجة فهُزم، ثم عاود الكرة في نفس العام وهزم مرة أخرى، وظل الحال هكذا إلى أن بعث الحكم (أصبغ بن عبد الله)، فلحق بعمه سليمان في جهة ماردة، فقتله وبعث برأسه إلى قرطبة([2])، أما عمه عبد الله فقد توجه إلى بلنسيا، وقام بها حتى عفا عنه الحكم وصالحه سنة (186هـ-802م)، مقابل بقائه طول حياته ببلنسية([3]).

لم ييأس عبد الله البلنسي من الظفر بالإمارة، فبعد أن تولى بن أخيه عبد الرحمن الثاني (الحكم) سار إلى تُدمير، يريد قرطبة وجمع حوله جيش كثير، فتجهز له عبد الرحمن الثاني، ولكن اضطر عبد الله للعودة إلى بلنسية فمات بها سنة (208هـ / 223م)([4]).

لا شك بأن عهد عبد الرحمن الحكم (الثاني) تميز بالرخاء والطمأنينة، ورغم ذلك لم يخلو من بعض الثورات الداخلية خاصة عمه عبد الله البلنسي، وكذلك هشام الربضي الذي ثار عليه عماه يريدان الحكم أو جزءاً منه، وكل هذا يأتي في سياق التنازع على السلطات، ذلك التنازع الذي استنزف الكثير من الأموال والدماء، وأزهق الكثير من الأرواح، التي كان يفترض أن تقاتل وتزهق في صراعها مع النصارى المحاربين، لتوطيد أركان دولة الإسلام، وللقضاء على الأخطار الخارجية، وهذا الأمر لا شك بأنه كان عاملاً قوي من عوامل سقوط الأندلس على المستوى القريب والبعيد.

إن الإمارة الأموية وفي أيام رخائها لم تكن خالية من المتاعب، ولم تكن السلطة فيها إلا عبءاً ثقيلاً على أمراء تلك الحقبة، وذلك لمسألتين رئيسيتين كان على كل أمير جديد أن يتصدى لهما، أو ينزلق ومعه النظام القائم كله إلى مهاوي التمزق والإنقسام، المسألة الأولى طبيعة المجتمع الأندلسي العنصري، والثانية الصراع مع الإمارات الأسبانية في الشمال([5]).

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص69.

(2) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص15.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص70.

(4) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص396.

(5) الشطاط: تاريخ الإسلام في الأندلس، ص134.

الصراع السياسي زمن هشام بن الحكم (366هـ - 977م/ 399هـ- 1009م):

جاء هشام بن الحكم للخلافة بعد وفاة أبيه سنة (366هـ-977م)، وكان لا يتجاوز الثانية عشر عاماً([1])، وفي عهده ظهر أبو عامر (محمد بن عبد الله بن عامر)([2])، استطاع أبو عامر والذي تلقب بالمنصور أن يسيطر على الحكم لصغر سن هشام المؤيد بالله، وكان هشام لا يهتم الا بالأشياء التافهة، وفيه قال ابن الخطيب: "لا يُنسب إلى هشام تدبير، ولا يُرجع إليه من الأمور قليلٌ ولا كثير، وكان في أصل تركيبته مضعفاً مهيناً، مشغولاً بالترهات، ولعب الصبيان والبنات، وفي الكبر بمجالسة النساء، وكان يلتمس البركات من الآلات المنسوبات، حيث أخذ ألواح منسوبة إلى سفينة نوح، وقرون منسوبة إلى كبش إسحاق، وحوافر منسوبة إلى حمار عُزير، ومصليّات منسوبة لعباد، وأواني وضوء متوارثة عن زهاد، بذل فيها من الأموال ما يزن أضعاف أوزانها"([3])

تلك كانت صفات الخليفة الشرعي هشام المؤيد بالله، ويقابله الحاجب المنصور ابن أبي عامر، الذي قيل فيه أنه كان آية من آيات الله دهاءً وسياسةً، وفي صراعه على السلطة هجم بالمصاحف؛ وهم بقية بيت الحاجب جعفر المصحفي على الصقالبة حتى قتلهم، ثم هجم بغالب الناصر صهره، على المصاحف فقتلهم، ثم هجم بجعفر بن الأندلسي بن علي بن حمود على غالب صهره فاستراح منه، وأخيرا عدا بنفسه على جعفر الأندلسي حتى أهلكه، ثم انفرد بنفسه ينادي صروف الدهر هل من مبارز؟ فلم يجده، وحمل الدهر على حكمه فانقاد له، وساعده واستقام له أمره منفرداً بسابقة لا يشاركه فيها غيره([4]).

لقد كانت شخصيته مثار جدل حيث قال ابن خلدون: "ظل ابن أبي عامر يدبر المكائد والمؤامرات، ويغري القواد والرؤساء، ويضرب بعضهم ببعض، حتى خلا له الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة، وجمع من زناته والبربر جنداً مرتزقة، وتغلب بهم على الخليفة هشام، وحجر عليه واستولى على الدولة وملأ الدنيا، وهو في جوف بيته مع تعظيم الخلافة، والخضوع لها، ورد الأمور إليها، وترديد الغزو والجهاد، وأسقط رجال العرب عن مراتبهم"([5]).

---

(1) ابن خلدون: العبر في تاريخ من عبر، ج4، ص147.

(2) حسن النشأة، تتفرس فيه السيادة؛ سلك سبيل القضاة في أولته، مقتفيا آثار عمومته وخولته؛ فطلب الحديث في حداثته، وقرأ الأدب، وقرأ الحديث؛ وبرع بروعا أدناه، مع نوازع سعد وبوادر حظ، من الحكم المستنصر؛ فقربه وصرفه في مهم الأمانات وأصنافها؛ فاجتهد وبرز في كل ما قلده، واضطلع بجميع ما حمله (ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص254).

(3) أعمال الأعلام، ص58.

(4) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص77.

(5) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص189.

وفي سنة (392هـ–1002م)، توفى المنصور ابن أبي عامر 27 رمضان، وله ولدان، وهما عبد الملك وعبد الرحمن الناصر، واستمر حكمه (25 سنة)، وترك من الأموال بالزاهرة أربعة وخمسين بيتا، وكان عدد فرسانه (10500) فارس، وأجناد الثغور قريبا من ذلك، فيه قيل:

آثارُهُ تُنْبِيكَ عَنْ أَخْبَـارِهِ حَتَّى كأَنّكَ بالعُيُـونِ تـرَاهُ

تَاللهِ ما مَلَكَ الجَزيرَةَ مِثْلُهُ حَقًّا وَلاَ قَادَ الجُيُوشَ سِوَاهُ

وذُكرَ أنَّ هذين البيتين قد نقشا في رخامة على قبره([1]).

يلاحظ بأن ما ذُكر عن الحاجب المنصور، وفتوحاته وجهاده ضد الأسبان، وبنائه الزاهرة، وتجِيشه للجيوش، وأشكال العمران المدني كلها تثير الإعجاب حول تلك الشخصية الفريدة من حكام الأندلس، ولكن يؤخذ عليه تلك النزاعات التي قام بها ضد الصقالبة والمصاحفه ومن سبق ذكرهم في صراعه معهم على السلطة، والتي تمثل نقطة سوداء في تاريخ كل الحكام الذين خاضوا تلك الصراعات، ولا بد هنا إلى الإشارة أن تلك النعوت التي نعت بها الحاجب المنصور تكاد تكون نادرة في سوئها عند كثيرٍ من حكام الأندلس، بل على العكس، نرى إشراقات كثيرة عن أولئك الحكام، وحتى الحاجب المنصور نفسه رغم ذلك الفساد والكيد والدهاء، إلا أنه حافظ على الجهاد، ومنع الثغور وأقام البنيان لفترة من الزمان، ولكن ما كان لله دام واتصل.

وفي آخر المشاهد المأساوية زمن الدولة الأموية طلب عبد الرحمن بن الحاجب المنصور العامري من الخليفة هشام المؤيد أن يوليه العهد، وأن يسميه بولي عهد المسلمين، ولضعف هشام وسوء نظره ونقصان فطرته أجابه لما أراد وولاه عهده سنة (399هـ –1008م)، وكتب عهداً بذلك، أن الخليفة هشام لم يجد من هو أصلح لولاية العهد بعده من القحطاني عبد الرحمن بن منصور بن أبي عامر([2]).

وعلى إثر ذلك القرار قام المُضريون بانتهاز فرصة غياب عبد الرحمن العامري الى الشمال، فخلعوا هشام المؤيد عن العرش، وولوا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، ولقبوه بـ (المهدي بالله)، واستولوا على القصر في قرطبة وهدموا مدينة الزاهرة وأحرقوها([3])، ولما بلغت تلك الأخبار عبد الرحمن المنصور رجع من غزوته في الشمال، وكان كلما اقترب من قرطبة تركه جماعة من جنده، وبايعوا المهدي بالله، حتى صار في قلةٍ من أصحابه؛ فاعترضه بعض خصومه، وقبضوا عليه وحزوا رأسه وحملوه للمهدي وجماعته، وذلك في رجب (399هـ–1008م)([4]).

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص276.

(2) المقري: نفح الطيب، ج1، ص424.

(3) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص97.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص49.

وكان هشام المؤيد بالله قد نزل إلى المسجد من قصره هو وأولاده ونسائه، وناشد الناس لينصروه فما نصره أحد لكرههم له، فقال: " ليتني قرب البحر يرمونني فيه، فيكون أخف بشأني، فافعلوا ما شئتم، وحفظوني في أهلي وولدي، وبقي في مكانه يومه وليلته أسيراً ذليلاً خائفاً، شاخص البصر، إلى جهة تهجم منها المنية عليه، ثم سأل أحد الداخلين عليه إحضار كسيرة خبز، يسد بها جوع طفلة صغيرة له، كانت تشكو له الجوع ذاهلةً عما أحاط بها فتزيد في همه، وسأل سراجاً يتأنس به نساؤه، وذلك من شدة مذلته([1]).

مقتل هشام المؤيد ونهاية الدولة الأموية في الأندلس:

عاد هشام المؤيد إلى الحكم، وذلك يوم الأحد السابع من ذي الحجة سنة (400هـ-1010م)، وبقي كذلك، وجيوش البربر تحاصره مع سليمان بن الحكم بن سليمان، ودخل البربر في شوال سنة (403هـ-1013)، مع سليمان قرطبة، وأخلوها من أهلها، وقتل هشام المؤيد بن الحكم المستنصر وكان في طول دولته متغَلبا عليه لا ينفذ له أمر([2]).

انتهت دولة العامريين، وقتل الخليفة المستضعف هشام المؤيد، وقام بعده خلفاء من بني أمية، ولكن كانوا كلهم ضعفاء لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً([3]).

يرى الباحث بأن سقوط الدولة الأموية، زمن الخليفة الضعيف هشام المؤيد كان لعدة أسباب مهمة؛ وقف على رأسها وكما مر معنا في هذا المبحث الصراع الشديد على السلطة بين الأخوة الأشقاء وبين أبناء العم، وبين الأمراء والملوك المنتسبين لدين واحد، ذلك الصراع السياسي الذي ما أريد به وجه الله، وإنما لهاثاً خلف الدنيا واستئثاراً بالملك والحكم، وكذلك يرى الباحث بأن الصراع على السلطة والذي أودى بالأمويين في الأندلس كان سبباً مباشراً في قيام دولة الطوائف، تلك الدولة التي رتعت بها كل الآفات المهلكة للدول والبناء الحضاري، حيث نرى الصراع على السلطة قد احتد واشتد في زمن الطوائف، كما سيتضح لنا لاحقاً.

عاشت الأندلس بعد ذهاب الخلافة وانتهاء حكم أسرة بني عامر سنوات صعبة من الفرقة والتنافس، وحاول عدد من المسئولين المخلصين حتى سنة (422هـ-1031م) المحافظة على استمرار الوحدة وإعادة الخلافة، ولكن باءت جهودهم بالفشل، وأصبح حال الأندلس يبعث على الأسى، عندها بدأ قيام الطوائف، حين تصدع بنيان ذلك الصرح الشامخ، وأعلن أهل قرطبة وعلى رأسهم جهور بن محمد بن جهور إلغاء الخلافة، فأسند القرطبيون أمرهم إلى ذلك الوزير سنة (422هـ-1031م)([4]).

---

(1) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص139.

(2)المراكشي: المعجب، ج1، ص41.

(3) الوكيل: الأمويين بين الشرق والغرب، ص412.

(4) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص323.

وقال ابن بسام واصفا حال قرطبة وبن جهور، "أعطوا منه قوس السياسة باريها، وولوا من الجماعة أمينها فاخترع لهم لأول وقته نوعا من التدبير، حملهم عليه فاقترن صلاحهم به، وأجاد السياسة فانسدل به الستر، على أهل قرطبة" ([1]).

تمتع ابن جهور بصفات تليق بملك، وبمصلح وبعالم تقي، وفيه قال الفتح بن خاقان: بنو جهور أهل بيت وزارة، وأبو الحزم أمجدهم في المكرمات، ونجدهم في الملمات، ركب متون الفتن فراضها، كان وزيرا في الدولة العامرية فشرفت بجلاله، واعترفت باستقلاله، إلى أن قال واستولى أبو الحزم على قرطبة ودبرها بالجد والعزم، وضبطها ضبطا أمن خائفها، إلى أن توفي سنة (435هـ-1044م)([2])، وبوفاته جاء بعده ابنه أبو الوليد الذي سار على سيرة أبيه فأخذ بسياسة الحزم واقر الأمن والنظام([3]).

ولكن أبا الوليد أعيته السياسة فانسحب منها، وكان له ولدين عبد الرحمن وعبد الملك، وكان عبد الملك أصغرهما ولكنه تميز بشهامته عن أخيه، فأوكل أبو الوليد الأمر لابنه عبد الملك الأصغر، ولكنه لم يكن عند حسن الظن حيث استبد بالسلطة واستباح أموال المسلمين، وشرع في المعاصي والفسوق، وتعاظمت قوته، وخالف سيرة أبيه وجده، وفي سنة (440هـ-1049م) عهد بأمور الحكم إلى وزير أبيه أبو الحسن إبراهيم ابن يحيى المعروف بابن السقاء، فضبط الأمن وساد العدل، فبعث المعتمد ابن عباد من وشى بين عبد الملك وابن السقاء، فقتله سنة (455هـ-1063م)([4]).

وتلك الوشاية أرادها ابن عباد ليخلو له الجو من ذلك الوزير العادل، ومن ثم يسيطر على قرطبة، في تلك الأثناء وجد شقيقه عبد الرحمن الأجواء مناسبة لينازع على السلطة، كونه الأكبر والأحق، فبدأ يستميل طائفة من الجند ويتقرب للرعية، والفوضى بدأت تعم في قرطبة، وهنا تدخل أبوهما أبو الوليد ابن جهور فقسم السلطة عليهما سنة (456هـ-1064م)، فرضى الولدان الابنان، ولكن سرعان ما انقلب عبد الملك وتغلب على أخيه وسجنه واستبد بالأمر دونه، وأطلق العنان هو والسوقة من رعيته بين الناس بالأذى، مما صرف أهل قرطبة عن بني جهور([5]).

---

(1) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص115.

(2) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ج1، ص34.

(3) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص392.

(4)ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص232.

(5) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص149.

وبعد فساد الأمر بدأ الطامعون من ملوك الطوائف بمحاولة السيطرة عليها مما دفع عبد الملك إلى الاستغاثة بالمعتمد بن عباد، ليغيثه المعتمد ويأخذ قرطبة وينتهي حكم أسرة بني جهور، والتي كانت من أفضل الأسر زمن الوزير ابن جهور وابنه محمد([1]).

وهكذا انتهت دولة بني جهور بقرطبة بعد أن لبثت 40 عاماً، وكانت أول دولة تسقط من بين دول الطواف الرئيسية، وكانت دولة نموذجية خاصة في زمن الوزير أبي الحزم ابن جهور، وتمتعت بين دول الطوائف بمركز أدبي خاص، وكانت تمثل الوسيط والحكم، وتحل المنازعات وتقرر السلم بين الأمراء([2]).

يرى الباحث بأن تلك صفحة أخرى من صفحات التنافس غير الشريف الذي كان بين الأشقاء، للصراع على السلطة والاستئثار بها، مما أدى في حينه إلى قتل وزير كبير كابن السقاء، والذي به استقام الأمر، وكذلك أدى الصراع على السلطة أن يبطش الأخ بأخيه فيسجنه في بيته، ثم يشرع في ظلم الناس وأكل أموالهم بغير حق، مما خرب نظام الملك عنده، وجعل الطامعين من ملوك الطوائف حوله يسارعون في الإثم بمحاولة أخذ قرطبة، إلى أن كان سقوطها على يد المعتمد بن عباد، لتطوى صفحة مجيدة من صفحات الخير سجلها الوزير ابن جهور وولده محمد، تلك الصفحات المجيدة التي كانت بمثابة أعمدة تقوم عليها حضارة الأندلس رغم الإنهيار المحقق.

أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد (ت 433هـ- 1042م):

يُعتبر المؤسس الحقيقي لدولة بني عباد بإشبيلية، وكانت دولته ذات شأن كبير بين ملوك الطوائف في الأندلس، وأفعاله على ذلك أفعال الجبابرة، حيث ضم الأحرار من كل صنف وأشتري العبيد، والجد يساعده، والأمور تنقاد له إلى أن ساوى ملوك الطوائف، وزاد على أكثرهم بكثافة سلطانه وكثرة غلمانه، وقد عظم ملك ابن عباد فيها، وكانت رغبته في الحكم والسلطة غير خافيه فقال عن نفسه:

وَلا بُدَّ يَوْمًا أَنْ أَسُودَ عَلَى الْوَرَى ... وَلَوْ رُدَّ عَمْرٌو للزَّمَانِ وَعَامِرُ

فَمَا الْمَجْدُ إلاَّ فِي ضُلُوعِيَ كَامِنٌ ... وَلا الْجُودُ إلاَّ مِنْ يَمِينِيَ ثَائِرُ

فَجَيْشُ الْعُلا مَا بَيْنَ جَنْبِيَ جَائِلٌ ... وَبَحْرُ النَّدَى مَا بَيْنَ كَفِّيَ زَاخِر ([3]).

بعد وفاة أبي القاسم جاء ولده أبو عمر عباد بن محمد وتلقب بـ "فخر الدولة"، ثم تلقب بعدها بـ"المعتضد بالله" وفي بداية أمره سار على خطى أبيه في حسن التدبير وبسط العدل، إلى أن طغاه شيطانه واتبع هواه فاستبد بالأمر وحده([4])، وعن صفاته قِيل: "كان رجل لم يثبت له قائم

(1) ابن بسام : الذخيرة، ج2، ص206.

(2) عنان: دولة الإسلام، ج،3 ص29.

(3) ابن الآبار: الحلة السيراء، ج2، ص38.

(4) المراكشي: المعجب، ص151.

ولا حصيد"، ولا سلم عليه قريب ولا بعيد، جبار أبرم الأمر وهو متناقض، وأسد إفترس وهو رابض، متهور تتحاماه الدهاة، وجبار لا تأمنه الكماة، متعسف اهتدى، ومنبت قطع، افتتح أمره بقتل وزير أبيه حبيب، فكانت طعنة في ثغر الأيام، ملك بها كفه، وجبارا من جبابرة الأنام شرد بها من خلفه، فاستمر يفرى ويخلق وأخذ يجمع ويفرق، له في كل ناحية ميدان، حربه سم لا يبطئ وسهم لا يخطئ، وسلمه شر غير مأمون([1]).

وقد بدأ عهده بالقوة فبطش بوزراء أبيه، فقتل منهم حبيب، وانتقل للاستيلاء على إمارات غربي الأندلس فضمها لقوته وتفوقه العسكري ونزع لَبْلَة من ابن يحيى اليحصبي سنة (445هـ-1053م)، وقضى على دولة بني هارون بعد سيطرته على شنتمرية سنة (443هـ - 1051م)([2]).

وبلغ من فتكه وظلمه أن أقام في قصره خزانة، أودعها رؤس الملوك الذين قتلهم، واتخذ من جماجم أعدائه أصصاً، زرع فيها الزهور والرياحين([3])، وفي ذكر الخزانة التي كانت لدى المعتضد بالله، نذكر أيضاً بأنه قبل أن يحفظ بها الرؤوس، كان يذيب جسومهم ممزقة، ويبالغ في تطييبها رؤوسهم وتنظيفها، لا لكرامتها ولكن لحفظها([4])، وغرس منها فوق الخشب المعلية بشط النهر حذاء قصره حديقة، عريضة طويلة الخطة، جمعت عدد الصفوف المسطورة، فأضحت شغلا للنظارة، وذكرتها شعراؤه مثل قول صاعد بن الحسين من قصيدة أولها:

جلاء العين مبهجة النفوس	حدائق أطلعت ثمر الــــرؤوس
هناك الله مهدي المساعي	جنى الهامات من تلك الغروس
فلم أر قبلها وحشاً جميلاً	كريه روائه أنــس الأنيـــــس
فماذا يملأ الأسماع منهــا	إذا ملئت من انباء الطــــروس

كما أنه قد نزع جزيرة شلطيش وولبه من بني بكر وأخرج محمود القاسم بن حمود من الجزيرة الخضراء كلها([5]).

يلاحظ بأن هذا نوع جديد من أنواع الظلم والعسف، الذي قام به أبو القاسم محمد بن عباد، ولربما لم يسبقه أحد قبله بذلك الفعل الأشنع، فهو يذيب جسوم أعدائه، ثم يأخذ رؤوسهم محنطها، ليجعلها عبرة لمن لم يعتبر، كل ذلك من أجل السلطة، وفي صراعه عليها، وهذا الأمر الذي

---

(1) ابن بسام: الذخيرة، ج2، ص24؛ ابن الآبار: الحلة السيراء، ج2، ص39؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص23؛ الحنبلي: شذرات الذهب، ج3، ص316

(2) ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص299.

(3) ابن بسام: الذخيرة، ج3، ص-27.

(4) ابن بسام: الذخيرة، ج3، ص-28.

(5) ابن بسام: الذخيرة، ج3، ص235.

يستقبحه التاريخ وأهله، وأصحاب النفوس السوية، ما كان له أن يمر دون عقاب إلهي تمثل بسقوط دولة عظيمة كالأندلس، وذلك لسقوط بعض حكامها وملوكها.

المعتضد بن عباد وابنه إسماعيل:

أراد المعتضد السيطرة على قرطبة، فجيش جيشه وولى عليه ولي عهده ابنه إسماعيل المنصور، ولكن إسماعيل رفض ما أراده أبوه، لحقده على المعتضد، وقيل خوفاً من الفشل، وراجع اباه في ذلك، فاغلظ أبوه له القول، وأنذره بالقتل، إذا جبن؛ فثارت نفس إسماعيل، وقرر الفرار مع خاصته، وزين وزير أبيه البازلياني العقوق والهروب له، واستغل إسماعيل خروج أبيه للتنزه، فخرج بأمه وأهله، وما استطاع من مال وذخائر في جنح الليل، ووصل إلى كورة شذونة، وأجاره حاكمها ابن حصاد، وبعدها طلب عفو أبيه، فعفا عنه وعاد مع من هرب، فما كان من المعتضد إلا أن قتل وزيره البزلياني وبعض الخاصة، فأدرك إسماعيل بأنه سُيقتل لا محالة، فاتفق الابن مع بعض جنوده على قتل أبيه المعتضد، والحكم مكانة، ودخل القصر ليلاً وسقط في يد أبيه الساهر الحذر، وحينها قرر أبوه قتله دفاعاً عن سلطانه، قتله بنفسه، وعذب شركاؤه أشد العذاب، مقطعاً أطرافهم، وقتل بعض النسوة، فقطع دابر الفتنة([1]).

وفي وصف المعتضد قِيل: سياسته أتعبت أنداده من ملوك الأندلس، حيث خرج برجال حرب، أباد بهم أعداءه، ومن أخباره العجيبة، أنه نال بغيته، وأهلك تلك الأمم العاتية، وإنه لغائب عن مشاهدتها، مترفه عن مكابدتها مدبر فوق أريكته، منفذ لحيلها من جوف قصره، ما مشى إلى عدوه بنفسه إلا مرتين، ثم لزم نزله، يدبر داخلها أموره، وكان في نهاره مدبراً للفتن، وفي ليله منعما بالسرور، وجعل على كل قلب سمع وعين([2]).

لقد انفق المعتضد معظم مدة حكمه في محاربة جيرانه، من أمراء الطوائف، وكشف في محاربته عن قوة عزمه وضخامة عدته، وإحكام خططه، وعن نفس قاسية غادرة، وبتلك الوسائل حقق مراده وانشأ إشبيلية الكبرى؛ ولم يكن المعتضد الوحيد القاتل لولده في الصراع على السلطة بل سبقه المنصور بن أبي عامر بقتل ولده أبي عبد الله، وملوك أخر([3]).

وهكذا انطوت صفحة من صفات الصراع الدامي على السلطة بين أب وابنه، في زمن الممالك، وكان عاقبتها الخروج على قوانين الفطرة والطبيعة، بخيانة الإبن لأبيه، وقتل الأب لإبنه، وتجاوز القتل بأن يتم قتل النسوة، ليجعله لمن خلفه عبره.

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص244؛ ابن بسام: الذخيرة، ج3، ص235.

(2) ابن بسام: الذخيرة، ج3، ص26–27.

(3) عنان: دولة الإسلام، ج2، ص1.

يلاحظ بأن ذلك الصراع على السلطة، والذي وقف على رأسه المعتضد بن عباد، وتلك الصفات الذميمة التي ذكرت عنه، وسلوكه الشائن الذي مارسه اتجاه أترابه ونظراءه؛ كان يتم في اللحظة التي كانت الممالك الأسبانية تزداد قوة، ونجمها يزداد سطوعاً، فيما أولئك العابثون اللاهثون خلف السلطة في غيهم سادرون، ونجمهم إلى أفول، ولكن رحمة الله تحيط بعباده دوماً لأنه سيأتي بعد فترة ليست بعيدة من الزمن، المرابطون الذين سيحفظون الأندلس من السقوط.

المعتمد بن عباد:

بعد وفاة المعتضد أل حكم إشبيلية لإبنه القاسم محمد بن عباد، وتلقب بعدة ألقاب منها المظفر بحول الله، والمؤيد بالله، المعتمد على الله، وكان مولده سنة (431هـ-104م)([1])، وفي صراعه على السلطة وجه قواته إلى غرناطة سنة (466هـ- 1074م)، فاستولى على أراضي طليطلة ثم على مرسية وبلنسية، من يحيى القادر بن ذي النون([2])، واحتدم الصراع بين المعتمد بن عباد وعبد الله بن بلقين، فاستنصر كلٌ منهما بالنصارى للسيطرة على السلطة، و كان نتيجة ذاك الصراع مع بني ذي النون سقوط طليطلة في يد الفونسو السادس، وذلك بعد تعاونه مع النصارى ليضمن ملكه وسلطته، وتوفي المعتمد بأغمات بالمغرب بعد صراع مع المرابطين وكانت وفاته (488هـ- 1095م)، وبه انتهت حياة بني عباد([3])، يتضح نتيجة أخرى من الصراع الدموي القائم بين ملوك الأندلس على السلطة، تلك النتيجة تمثلت بسقوط طليطلة بيد النصارى، وما يتبع ذلك من تأثر عام على الأندلس، وعلى المسلمين فيها، ونتيجة للصراع أيضاً، كان استعانة كل واحد من ملوك الأندلس على أخيه بالنصارى ليحفظ ملكه.

صراع عبد الله بن محمد بن الأفطس وبني عباد:

هاجم بن عباد مدينة باجة إثر اندلاع الثورة فيها سنة (421هـ-1030م) وأسر محمد بن عبد الله بن أبي الأفطس، ثم أطلق سراحه، وقد عادت كرّة الصراع بينهما سنة (425هـ - 1034م)، وانتصر فيها بن الأفطس، على ابن عباد([4])، وكان هناك صراعاً أخراً بين عبد الله بن الأفطس بين عبد العزيز وعبد الملك ابنا سابور في لشبونة، إذ طمع عبد العزيز في استرداد ملك أبيه فأعلن الثورة في لشبونه، ولكن المنية عاجلته فمات، ثم جاء أخاه عبد الملك ولم يكن محبباً لأهل لشبونة فراسلوا ابن الأفطس، فأرسل جيش بقيادة ابنه محمد، ودخل لشبونة دون مقاومة، ووجد عبد الملك نفسه محاطاً بجنود ابن الأفطس فأذعن بالتسليم، وطلب الأمان له

---

(1) ابن الآبار: الحلة السيراء، ج2، ص53.

(2) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص160.

(3) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص160.

(4) ابن بسام: الذخيرة، ج3، ص20.

ولأهله، ثم ترك لشبونة إلى قرطبة ونزل بدار أبيه سابور ومات بها([1])، وفي جماد الأول سنة (437هـ- 1045م) توفي عبد الله بن الأفطس([2])، وجاء بعده ابنه محمد واستطاع ان يقيم ملكاً كملك بني عباد في إشبيلية، وملك ذي النون في طليطلة، ولكن ذلك الملك قام على سفح دم المسلمين، في ساحات الصراع السياسي بينه وبين بن عباد، في معارك لبله ويابرة الواقعة بين اشبيلية وبطليوس، تلك المعارك التي أهلكت الطرفين، وكادت أن تودي بهما لولا تدخل أبي الحزم بن جهور وولده الوليد صاحب قرطبة([3]).

كان الصراع شديداً بين ابن الأفطس والمعتضد بن عباد، وبمجرد انتهاءه من ذلك الصراع بدأ الصراع مع المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، الذي هاجم ابن الأفطس واشتدت الحرب بينهما([4])، وقد ظل في حروبه تلك الى أن توفي سنة (460هـ - 1067م)، وخلفه ابنه يحيى على بطليوس وتلقب بـ (المنصور)([5]).

حرب الأشقاء:

مما يلفت النظر بأن الصراع على السلطة لم يقتصر على عهد دون أخر، أو دولة ونظيرها أو مَلِك وشبيهه، بل تعدى ذلك الى صراع بين الأب وابنه، والإبن وأبيه في حالة مشينة ظاهرة البعد عن الله سبحانه وتعالى وقيم الإنسان، وكذلك الصراع بين الشقيق وشقيقه، وكأنه لا رحمة أو دم بينهما ولا دين ولا عروبة، وهذا كله وبلا ريب أثر تأثيراً مباشراً على سقوط الأندلس وحضارتها.

وفي سنة (461هـ - 1068م)، اشتد الصراع بين المنصور يحيى بن الأفطس وشقيقه عمر حاكم يابرا، وكان نتيجة ذلك الصراع العقيم والمحرم، أن اندلعت حرب أهلية بمملكة بطليوس، فانتهز الفرصة الفونسو بن فرناندو ملك قشتالة، وشن هجومه على بلاد الإسلام واخذ الأموال والديار، ولجأ عمر إلى المعتمد بن عباد صاحب اشبيلة، فيما مال أخوه يحيى الى المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، وكادت الحرب أن تحرق أخضرهم ويابسهم لولا عاجلت المنية يحيى المنصور سنة (461هـ - 1068م)، فانفرد عمر بحكم مملكة بطليوس([6]).

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص237.

(2) ابن الآبار: الحلة السيراء، ج2، ص97.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص10.

(4) ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص283.

(5) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص160.

(6) ابن بسام: الذخيرة، ج4، ص650؛ ابن الآبار: الحلة، ج2، ص97؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص184.

يلاحظ بأن بعض المؤرخين مدحوا عمر بن الأفطس (المتوكل) فقال فيه الفتح بن خاقان: بأن شِعره فيه روح دينيه، كانت ملازمة له وظاهرة في أقواله وأفعاله، وأما نثره رحمه الله فهو أشف من شعره، وإنه لطبقة تتقاصر عنها أفذاذ الكتاب ونهاية من نهاية الآداب([1])، وقد أشار بن الخطيب إلى مثل ذلك القول([2])، قد يكون ما ذكر في عمر بن الأفطس صحيحاً وحقاً، فالإنسان ليس مطلق الخطأ ولا مطلق الصواب، ولكن إذا كان عمر بن الأفطس صاحب دين في شعره وفي أحواله، فكيف يمكن له أن يقوم بتلك الأعمال التي قام بها، ألم يعلم بأن ما فعله، من صراعٍ وقتل وسفح للدماء، قد نهى الله عنه، وهو من المعروف بداهةً بالإسلام، ولم يعرف الفتح بن خاقان بأن تلك أفعال تنفصم عن الإسلام وترفضها الشريعة؟ إن هذا يدعونا إلى تمحيص النظر عن تاريخ أمراء المسلمين في ذلك الزمان.

بين بني الأحمر وبني مرين:

توفي محمد بن الأحمر الأول (671هـ-1273)، وجاء مكانه الحكم ابنه المسمى باسمه، وكان يلقب بالفقيه لانتحاله طلب العلم أيام أبيه، وبموت ابن الأحمر اعتقد ألفونسو العاشر بأن البلاد ضعفت، فهجم على أطراف غرناطة، فاستعان محمد الفقيه (الحكم) بيعقوب المنصور المريني([3])، وفي سنة (674هـ-1276م) عبر المنصور المريني إلى الجزيرة، واستعد لموقعة الدونونية([4])، وكان المريني على رأس جيش المسلمين، وقد حفزهم بنفسه وقال: ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت حورها وأترابها، فبادروا إليها، وجدّوا في طلبها، وأبذلوا النفوس في أفنانها، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف([5])، وكان عدد المسلمين عشرة ألاف، وقتل من النصارى ستة ألاف، وتم أسر سبعة ألاف وثمانمائة، وقتل (دون نونيو) قائد قشتالة في تلك الوقعة([6]).

وبدل أن يحفظ أحفاد بني الأحمر هذا الفعل النبيل الذي أنقذ ملكهم وحكمهم، أضمروا العداوة، وما هي إلا سنوات قليلات لينقلب محمد الفقيه، ووزيره أبو عبد الله بن الحكيم، على بني مرين ويحتلوا سبتة ويضموها لهم، وكان ذاك شكل أخر من أشكال الصراع حصل في عهد بني الأحمر.

---

(1) قلائد العقيان، ص45-46.

(2) الإحاطة في أخبار غرناطة، ج4، ص45-46.

(3) ابن خلدون: تاريخ، ج7، ص191.

(4) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص160.

(5) ابن أبي الزرع: الذخيرة السنية، ص149.

(6) ابن خلدون: تاريخ، ج7، ص193.

إن وجود بني مرين مثل بارقة أمل في نهاية التاريخ الأندلسي، حيث أعادوا للأمة مجدها، من خلال جهادهم، وانتصارهم في معركة الدونونية، كما حفظوا الأندلس من السقوط وأمدوا في عمرها بما قدموا من دماء وتضحيات.

في عام (701هـ - 1302م)، مات محمد بن الأحمر الفقيه، وتولى من بعده محمد الثالث الملقب بـ (الأعمش)([1])، وقد عُرف بالمخلوع، وقد كان ضعيفاً جداً، وتولى الأمور في عهده الوزير أبي عبد الله بن الحكيم، وكانت له السيطرة على الأمور في بلاد غرناطة([2])، وبدّل ولاءه من سلطان المغرب إلى مولاة ملك قشتالة([3])، ولم يكتفِ الوزير ابن الحكيم بذلك؛ فأوعز إلى أبي عبد الله (المخلوع) ابن عمه حاكم مالقة، بمداخلة أهل سبتة، ليخلعوا طاعة السلطان يوسف المريني، والدخول في طاعة بن الأحمر وجهز لذلك جيشاً، واحتل سبتة في بلاد المغرب ليقوي شأنه في مضيق جبل طارق، وبعد احتلاله لسبتة أخذ حكامها المخلوعين إلى غرناطة([4]).

ما سبق ذكره يُعتبر نموذجاً من نماذج الصراع على السلطة، والذي كان مِيزةً عامة في تاريخ الدولة الإسلامية في الأندلس منذ بدايتها إلى نهايتها، ذلك الصراع الذي ما كان في مجمله إلا استجابةً لرغبات النفسِ الإمارةِ بالسوء، وتحقيقاً لنزوات شيطانية، ما أريد من خلالها إلا الإستئثار بمتاع الدنيا، وكان الشيء المميز في ذلك الصراع الولوغ في دماء المسلمين الأبرياء، وانتهاك حرمات الله وإضاعة ملك عريض بُذل من أجله غالي الأرواح والدماء من العلماء الربانيين، والمجاهدين الصادقين، الذين لم يخلوا منهم تاريخ الأندلس المديد، والذين ببركة أرواحهم ودماؤهم حفظ ذلك التاريخ المجيد في الأندلس، لقد كان ذلك الصراع سبباً واضحاً من أسباب سقوط الأندلس لا مراء فيه.

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج7، ص228.

(2) ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص549.

(3) ابن خلدون: تاريخ، ج7، ص228.

(4) ابن خلدون: تاريخ، ج7، ص228.

المبحث الثالث

الخلاف الفقهي والقمع الفكري

على عادة بلدان العالم الإسلامي، في وجود الفرق والمذاهب الإسلامية، فقد شابهت الأندلس قريناتها من بلدان وحواضر الإسلام في ذلك، وقد جرى بين الفرق الإسلامية في الأندلس من الانسجام والإنقسام ما جرى في غير الأندلس، وهي ظاهرة ملحوظة في تاريخنا الإسلامي، أقصد التنافس والصراع والتكامل بين المذاهب الإسلامية المعتَبرة، وسيلاحظ بأن التنوع الفقهي في الأندلس لم يكن له أثار سلبية على حياة المسلمين هناك، ولكن في نهاية حكم المسلمين للأندلس بدأ الخلاف يدب، والتعصب المذهبي يتضح إلى أن تعصب كلٌ إلى مذهبه، وأدى إلى زيادة حالة الفرقة الداخلية في الأندلس.

لقد عرفت الأندلس مذاهب فقهية عديدة، منها مذهب الإمام الاوزاعي الشامي، وهو أول مذهب يدخل الأندلس، ثم مذهب إمام أهل المدينة (مذهب مالك) الذي كان بديلاً عن مذهب الاوزاعي، ومذهب الإمام الليث بن سعد (المصري)، وكان في الأندلس سائر المذاهب الفقهية المعروفة كمذهب الإمام الشافعي، ومذهب الإمام أبي حنيفة الذي اعتنقه قلة، ومذهب أهل الظاهر، وبشكل عام كان التنافس بين مذهب الإمام مالك وتلك المذاهب([1]).

ومن المذاهب التي كانت في الأندلس مذهب بن تومرت، ويختلف هذا المذهب عن مذهب بن حزم؛ حيث أن له جانباً عقائدياً فقهياً، وجانباً آخر سياسياً، وقد اعتمد ابن تومرت على آراء المعتزلة، وأخذ برأيهم في التأويل، وكفّر المرابطين باعتبارهم من المجسمة، كونهم يؤمنوا بالصفات على ظاهرها (أي صفات الله سبحانه وتعالى)، وكذلك إقتبس من الشيعة القول بالمهدوية، وادعائه لها، حيث ادعى أنه المهدي، وخص نفسه به، وردد شعراء الدولة الموحدية، ذلك الاعتقاد في أشعارهم ([2]).

بعض حقب التاريخ الأندلسي لم تعرف التسامح مع المذاهب الفقهية الأخرى، حتى تلك المذاهب التي ما كانت لتخرج عن السنّة القويمة ومذاهب السلف، والسبب في ذلك؛ أن الأندلس هي أبعد الثغور الإسلامية في الغرب، ورأس حربه الإسلام في أوروبا، وبالتالي هي ميدان صراع منذ البداية الى النهاية، وهذا أدى بالأندلسيين الحفاظ على وحدتهم الدينية والمذهبية بكل طاقتهم، واعتبروها جزءاً من وحدتهم السياسية، ورأوا في كل ما يهدد تماسكهم المذهبي خطراً يهدد كيانهم السياسي([3]).

---

(1) خلاف: ثلاث وثائق في محاربة البدع، ص6.

(2) عياض: ترتيب المدارك، ج 5، ص 30-42.

(3) خلاف: ثلاث وثائق في محاربة البدع، ص7.

يرى الباحث بأن إدعاء الوحدة المذهبية يؤدي إلى الوحدة السياسية، وبالتالي إلى تماسك المجتمع فيه نظر؛ حيث أن إقصاء المذاهب المخالفة يؤدي إلى جمود فقهي وفكري، ناهيك عما يصاحبه من قمع للحريات العامة، حيث أنه لا يمكن إجبار الناس على مذهب فقهي واحد، وكذلك يصاحبه بطش بالعلماء، كما حدث في محنة خلق القرآن، والبطش بالإمام أحمد بن حنبل (164-241هـ) لأنه تبنى رأياً مخالفاً.

وأما العلاقة بين المذاهب أنفة الذكر فقد اتسمت بالتكامل، أحياناً وبالإقصاء وإزاحة بعضها بعضاً أحياناً أخرى، حيث ظل مذهب الاوزاعي مستقراً في الأندلس، حتى أزاحه المذهب المالكي، كما أشرنا، وكذلك المذهب الظاهري الذي أسسه ابن حزم القرطبي الظاهري (384هـ-994م/456هـ-1064م)، الشهير بتصانيفه العديدة وآراءه المتميزة، ولم يكن مذهب ابن حزم سوى مذهباً فقهياً دون أن يكن له حضوراً سياسياً واجتماعياً، وكان خصوم المذهب الظاهري المالكية والصوفية([1]).

لقد تشدد حكام الأندلس في تبني مذهب الإمام مالك، كمذهب أوحد للدولة، وعدم السماح للمذاهب الفقهية الأخرى، مما أدى إلى انتشار المذهب المالكي في قرطبة والأندلس وفي المغرب العربي أيضاً، ويعتبر زياد شبطون الأندلسي صاحب الإمام مالك (ت 204هـ-819م)، أول من أدخل مذهب الإمام مالك إلى الأندلس([2])، وكان فقيه أهل الاندلس على مذهب مالك، وقبله كانوا يتفقهون على مذهب الاوزاعي([3]).

العلاقة بين مذهب الإمام مالك وابن حزم:

كنتيجة طبيعية لتشدد أهل الأندلس وكثير من ولاتها في تبني المذهب المالكي؛ عانى كثير من الفقهاء والمقلدين من ذلك الأمر، فقد أتفق كثير من الفقهاء والعلماء على ابن حزم، لانتقاده لهم، بعد أن انتسب لمذهبه خلق كثير، وأطلق عليهم الحزمية، فأجمع أولئك الفقهاء والعلماء على تضليله، ونهوا العامة من الدنو منه، فأقصته الملوك وطردته، ورحل إلى بادية لبلة وتوفي فيها سنة (456هـ-1064م)([4]).

وقد لقي ابن حزم في الأندلس كثيراً من التعب بسبب أرائه الفقهية تلك، وكان للأندلسيين من المالكية ردود كثيرة على ابن حزم([5])، ومن أشكال المعاناة التي عاناها ابن حزم ما ذكره كثير من الفقهاء المخالفين له، فجرحوه وذكروا مثالبه؛ فقال القاضى أبو بكر ابن العربي: ابتدأ ابن حزم

---

(1) ابن القاضي: درة الحجال، ج 2، ص36.

(2) الازدي: تاريخ العلماء بالأندلس، ج 1، ص184؛ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ج2، ص423.

(3) ابن ماكولا: الإكمال، ج2، ص61؛ الحميدي: جذوة المقتبس، ج1، ص78.

(4) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج3، ص325.

(5) الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، ج1، ص75.

أولاً فتعلق بمذهب الشافعى، ثم انتسب إلى داود، ثم خلع الكل واستقل، وزعم انه إمام الأئمة يضع ويرفع ويحكم ويشرع، واتفق كونه بين أقوام لا نظر لهم إلا بالمسائل فيطالبهم بالدليل ويتضاحك بهم، وذِكْر بقية الحط عليه في كتاب العواصم والقواصم، ومما يعاب على بن حزم وقوعه في الأئمة الكبار بأقبح عبارة وأشنع رد، وقد وقعت بينه وبين أبى الوليد الباجى مناظرات ومنافرات([1])، وفيما بينه وبين الباجي كان مناظرات يطول ذكرها، وكان ابن حزم كثير الوقيعة في العلماء بلسانه وقلمه؛ فأورثه ذلك حقدا في قلوب أهل زمانه، ومازالوا به حتى بغّضوه إلى ملوكهم، فطردوه عن بلادهم حتى توفي وقد جاوز التسعين([2]).

يلاحظ بأن العلاقة التي كانت بين الفقهاء وبن حزم علاقة متوترة، فهو ينتقدهم انتقاداً لاذعاً، فيما هم يردوا عليه برد أقسى، ويغروا به الحكام والسلاطين؛ مما أدى إلى طرده ووفاته في بادية لبلة، إن تلك العلاقة السيئة بين بعض الفقهاء انعكست سلباً بشكل أو بأخر على مقلديهم، مما أحدث خلخلة في النسيج الاجتماعي الأندلسي، كان يضاف إلى العوامل المساعدة في انهيار الأندلس وسقوطها.

لم تكن سطوة المذهب المالكي وسيطرته على كل مراحل التاريخ الأندلسي، ففي زمن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب الأندلس والمغرب كان متظاهراً بمذهب الظاهرية، وأعرض عن مذهب مالك، فعظم أمر الظاهرية في أيامه، وكان في المغرب لهم خلق كثير، يقال لهم الحزمية منسوبون لابن حزم رئيس الظاهرية، وكانوا مغمورون بالظاهرية ولكنهم في أيامه ظهروا وانتشروا([3]).

يلاحظ بأن سطوع نجم هذا المذهب أو ذاك أو أفوله يرتبط بتبني الحكام له، ويعتبر الباحث بأن ذلك أمراً سلبياً حيث يصادر رأي الناس في اختيار المذهب، الذي يرونه مناسباً له ويمارس عليهم قمعا فكريا، في بعض الأحيان، خاصة إذا كان الحاكم خفيف العقل ولا رأي له.

علي بن يوسف يحرق الإحياء (503هـ):

كان يوسف بن تاشفين على صلة طيبة بالإمام أبي حامد الغزالي، وتغيرت الأمور عندما جاء علي بن يوسف (477هـ –1084م/ 537هـ – 1143م) الذي آثر الفقهاء، وكان لا يقطع أمراً إلا برأيهم، فعلت مكانتهم واشتد نفوذهم، وكان أكثرهم نفوذاً وحظوة عند يوسف قاضي قرطبة عبد الله محمد بن حمدين، وكان الفقهاء آنذاك يقدمون علم العبادات والمعاملات، ويهملون علم الأصول، وكان صاحب الحظوة عند أمير المسلمين من برع في علم الفروع([4])، وفي وقتها تمكن

(1) ابن حجر: لسان الميزان، ج4، ص201.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص92.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج10، ص258.

(4) المراكشي: المعجب، ص95.

حب كتب الإحياء والتعلق بصاحبه من قلوب عدد غير قليل من متصوفي المغرب، من النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة، والنصف الثاني من القرن السادس، وأصبحت تلك جماعة تكوّن تياراً فكرياً متميزاً، وظهر أن بعض أولئك المتصوفة، خاصة متصوفي شرق الأندلس، ظهرت لديهم أطماع سياسية([1])، ولربما كان ذلك افتراء لقمعهم.

وكان الحَجر على الفكر من أسوأ ما في الحكم المرابطي، بحيث عمد علي بن يوسف بتحريض من فقهائه على مطاردة كتب الأصول، خاصة كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، وقد لبثت تلك المطاردة طوال العهد المرابطي([2])، وفي اعتناق المذهب المالكي أرسل بن تاشفين إلى أهل بلنسية رسالةً فيها: "أن مدار الفتيا ومجرى الأحكام والشورى في الحضر والبدو، على ما اتفق عليه السلف الصالح من الإقتصار على مذهب أمام دار الهجرة (الإمام مالك)، فلا عدول لقاضٍ ولا مفتٍ عن مذهبه، ولا يؤخذ في تحليل أو تحريم إلا به"([3]) ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك، ويقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك، فإن ظهروا على حنفي أو شافعي ربما نفوه، وإن عثروا على معتزل أو شيعي ربما قتلوه([4]).

وفي عهد علي بن يوسف، حدثت واقعة حرق كتاب إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي، وتوعد ابن تاشفين بالقتل لكل من يُخفي ذلك الكتاب([5])، حيث وجه كتاب الإحياء انتقادات لاذعة إلى علماء الفروع، وسخف مجادلتهم السطحية، ونوه بجهلهم في علم الأصول فسخط الفقهاء المرابطون كثيراً من مسائل الإحياء، وزعموا بأنها مخالفٌ للدين، وكان أكثرهم تشدداً بن حمدين الذي بلغ به الأمر إلى تكفير من قرأ كتاب الإحياء، فقام هو ومجموعة من الفقهاء برفع الأمر إلى علي بن يوسف، وأجمعوا على حرق الكتاب، فأجابهم علي بذلك، وجمع نسخ الكتاب واحتفل بإحراقها في رحبة المسجد الجامع بقرطبة أمام الباب الغربي، بعد ما أشبعت جلودها بالزيت([6])، وقيل بأن فقهاء المالكية لحرصهم على الوحدة المذهبية رأوا في الحركة الغزالية الغزالية –نسبةً للإمام أبو حامد الغزالي– خروجاً عن الإجماع فأفتوا بإحراق (الإحياء) وصدرت الفتوى عن فقهاء قرطبة التي كانت معقلاً من معاقل المالكية([7])، وفي مواجهتهم للغزالية والصوفية، واصلت المالكية التصدي لكل حركة صوفية تخرج في الظاهر والباطن عن المقررات

---

(1) النحوي: التشوف الى رجال التصوف، ص11.

(2) الفيومي: تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص166.

(3) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص236.

(4) المقري: نفح الطيب، ج1، ص221.

(5) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج10، ص258.

(6) المراكشي: المعجب، ص187؛ الناصري: الاستقصا، ج2، ص74.

(7) ابن القطان: نظم الجمان، ص11.

الصوفية، وأهم مظاهر تلك المواجهة تمثلت بالمحاكمة التي عقدها الفقهاء المالكية للصوفي الشهير أبي العباس أحمد بن عجيبة الدرقاوي([1]).

يلاحظ بأن الإشكاليات السابقة فيما يتعلق بالصوفية والغزالية، وحرق كتاب الإحياء لم يكن له مبررات مقبولة، خاصة فيما يتعلق بقمع البدعة والحفاظ على الوحدة، وإنما كان السبب الأساس انعدام أفق وضيق صدر، عند أولئك الفقهاء المالكية، وخاصة بعد أن عاب عليهم الاشتغال بالفروع علي حساب الأصول، في ذلك الزمان، وإلا فالحجة دائماً تواجه بالحجة والبيان بالبيان والسنان بالسنان.

إن ما جرى من مجادلات ومناقشات بين العلماء، واستقواء بعضهم بالأمراء، أدى إلى خراب الحالة العامة، والى القضاء على المُلك في بعض الأحيان، قال عبد الواحد المراكشي: "كان صاحب الحظوة من كان عالماً بالفروع أي مذهب مالك، فنفقت في زمانه كتب المذهب، وعمل بمقتضاها، ونبذ سواها، ونُسي النظر في القرآن والسنة، فلم يعتنِ أحد من مشاهير ذلك الزمان بهما، وكفّر من خاض في علوم الكلام، واعتبروه بدعة في الدين، يؤدي الى اختلال العقائد، لذلك حرقت كتب ابو حامد الغزالي([2])

فتنة ابن الحناط (ت 437هـ-1046):

كان محمد بن سليمان الرعيني أبو عبد الله البصير، المعروف بابن الحناط، متقدماً في الآداب والبلاغة والشعر، وشعره كثير مجموع؛ مدح الملوك والوزراء والرؤساء، وكان يناوئ أبا عامر أحمد بن عبد الملك ابن شهيد بليغ وقته، ويعارضه؛ وله معه أخبار مذكورة، ومناقضات مشهورة([3])، وقد مات في الجزيرة الخضراء زمن الأمير محمد بن القاسم بن جمود، وكان من أوسع الناس علماً بعلوم الجاهلية والإسلام، وقد وصفه مناوئوه بفساد الدين([4]).

إن الخلافات الفقهية والفكرية والعقائدية، والتبحر في المنطق والفلسفة، كانت من الأسباب الدافعة للحكام باتهام كثير من العلماء بالزندقة، واتخاذ قرارات ضدهم، وكان منهم أبو عبد الله الحناط، الذي أُبعد عن قرطبة، واستقر في الجزيرة الخضراء حتى وفاته، وذلك لاتهامه في دينه نتيجةً لآرائه([5]).

---

(1) عياض: ترتيب المدارك، ج5، ص 30.

(2) المراكشي: المعجب، ص236.

(3) الحميدي جذوة المقتبس، ج1، ص20.

(4) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص123.

(5) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص121.

فتنة ابن رشد (520هـ-1126م/ 595هـ-1199م):

هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القاضي القرطبي ولد عام (520-595هـ)([1])، زعيم فقهاء وقته بالأندلس والمغرب، وإليه المفزع في المشكلات، بصير بالأصول والفروع والفرائض([2])، يقول دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب فوجدت عنده أبو بكر بن طفيل فأثنى أبو بكر عليّ وأطراني، ففاتحني أمير المؤمنين قائلا: ما رأيهم في السماء -يقصد الفلاسفة-، أقديمة أم حديثة، فأدركني الخوف فتعللت وأنكرت اشتغالي بعلم الفلسفة([3]).

يلاحظ من النص السابق بأن ابن رشد ورغم علو كعبه وسعة علومه، وعظيم شأنه في المعارف؛ إلا أنه كان يخاف على نفسه من سطوة الأمراء فيكتم ما يعرف، فيزعم بأنه ليس له علاقة بالفلسفة علماً بأنه من أربابها.

وقد نالت أبا الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد محنة شديدة، وكان سببها، أن بن رشد قد أخذ في شرح كتاب الحيوان لأرسطو أرسطاطاليس (385-322 ق.م)، صاحب كتاب المنطق، فهذبه وبسط أغراضه، وزاد فيه ما رآه لائقا به، وعلى عادة أهل زمانه مدح بن رشد بعض الملوك في ذلك الكتاب، فكان ذلك مما أحنق العلماء عليه، وقام قوم من مناوئيه من أهل قرطبة بالوشاية للأمير عليه، وأخذوا بعض كتبه فما كان منه إلا أن أمر بإحراقها، وأبقى كتب الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار والقِبلة([4])، وأخذ الناس عن بن رشد واعتمدوا عليه، وشاع عنه أنه يأخذ من العلوم القديمة ويركن إليها، فاتهمه خصومة بالزندقة والإلحاد، وأوغروا عليه صدر أبو يوسف يعقوب المنصور فنفاه إلى مراكش([5]).

وكان المنصور قد رفع من مكانة بن رشد في زمانه وقربه إليه، مما أوغر صدور أقرانه فأوشوا به، فكان نفيه إلى قرية كانت لليهود، وأحرق كتبه وأصدر منشوراً للمسلمين، ينهاهم أن يقرأوا كتب الفلسفة أو يفكروا بالاهتمام بها، وهدد من يخالف أمره بالعقوبة([6])، ومات ابن رشد محبوساً بداره في مراكش سنة (595هـ- 1198م)([7]).

وفي سلسلة حرق كتب المذاهب كان أيضاً أبو يوسف يعقوب المنصور بالله (554هـ) قد أحرق كتب المذاهب بعدما أزال منها الآيات والأحاديث فأحرق كتاب التهذيب للبرذعي، ونوادر

---

(1) البغدادي: هدية العارفين، ج6، ص104.

(2) ابن فرحون: الديباج المذهب، ج6، ص104.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج40، ص319.

(4) المراكشي: المعجب، ج1، ص305- 306.

(5) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ج1، ص111.

(6) عكاوي: موسوعة عباقرة الإسلام، ج2، ص 249.

(7) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج21، ص309.

ابن أبي زيد ومختصرة، ومدونة ابن سحنون، وأمر بترك الاشتغال بعلم الرأي أو الخوض فيه، وهو العلم الذي يقوم عليه المعتزلة، ونهى الفقهاء عن الفتوى بغير الكتاب والسنة، وسجن بعض العلماء المخالفين لمذهبة كأبي بكر الجياني (492هـ - 1099م)، ومحمد بن علي بن خلف التيجيبي (ت 576هـ - 1200م)، وذلك الأمر أدى إلى اختفاء العلماء وانقطاع علم الفروع طوال عهده([1]).

في زمن الصراع المذهبي ذلك كان الفسق منتشرا، فخرجت النساء سافرات، والعلماء لاهون بالحديث عن المرجئة والمعطلة، وغيرها من الأمور المفرقة، معتقدين بأنها أهم الأمور التي يجب أن تولى الأهمية، وبيعت الخمور وصنعت دون إنكار من الفقهاء، وظلم الأمراء الناس، وانتشرت ملاهٍ للرقص لا تُستر، والفقهاء والعلماء لا يتحدثوا عنها في شيء([2]).

محمد بن تومرت (473هـ- 1080م/ 524هـ - 1130م):

كان محمد بن تومرت زاهداً لا يحمل في يده إلا عصاً وركوه([3])، ولا يأكل إلا القليل من الطعام، وكان صاحب علم غزير فالتف حوله الناس، وكوّن جماعة سماها باسم الموحدين([4])، وقرر في نفوس أتباعه فضيلة المهدي المنتظر وشوقهم إليه، ثم ادعى أنه هو المهدي، وقال أنا محمد بن عبد الله، ورفع نسبه الى النبي ﷺ وزعم أنه معصوم، وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري، في أكثر المسائل ولكنه نفى الصفات موافقاً المعتزلة في ذلك، وكان يبطن شيئاً من التشيع رغم أنه لم يُظهر منه شيء للعامة([5])، وكان المرابطون يثبتون لله تعالى صفاته كما هي، فادعى بن تومرت أنهم من المجسمة، وعليه قال بكفر المرابطين، وأدعى أن علي بن يوسف بن تاشفين ومن معه من الفقهاء والعلماء ومن يعمل تحت حكمهم من الكافرين([6]).

بعدما كفّر محمد بن تومرت المرابطين؛ استحل دماءهم وأمر بالخروج عليهم مدعيا بأنه ليس في هذا الأمر إثم، بل إن قتلهم له ثواب عظيم([7])، فكان لا يتردد في قتل من يشك في إيمانه بما يدعيه من مبادئ، حتى لو كان من أتباعه، وقام بالتمييز، أي تمييز الصادقين من المداهنين من أتباعه فيقتلهم على الفور ليظل صفه قويا([8]).

---

(1) المراكشي: المعجب، ج1، ص254؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص196.

(2) المراكشي: المعجب، ص260.

(3) إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء أو الدلو الصغير (معجم اللغة: المعجم الوسيط، ج1، ص 371).

(4) ابن خلكان وفيات الأعيان، ج5، ص51.

(5) المراكشي: المعجب، ج1، ص278.

(6) ابن خلدون: تاريخ، ج6، ص227؛ الذهبي: سير، ج19، ص550.

(7) المراكشي: المعجب، ص260.

(8) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص199.

وفي قضية التمييز تلك قام بن تومرت بإفك عظيم، حيث ابتدع كذبة الونشريشي الذي قال فيه: تعلمون بأن الونشريشي رجل أميّ، ولكن الله أطلعه على ما في قلوبكم، فكان يعرف المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، وقد نودي في الناس من كان مطيعا للإمام فليأتي، فجاءوا جميعا وعرضوا على الونشريشي، فأخرج جماعة جعلهم عن يمينه، وقال هم من أهل الجنة، وأخرى عن يساره وقال فيهم بأنهم شاكون في الأمر، ثم كان يقول هذا تائب ردوه عن اليمين تاب البارحة، فيعترف بما قال، وكان يطلق أهل اليسار فلا يفر منهم أحد، فإذا تجمع منهم عدة قتلهم أقرباؤهم حتى يقتل الأخ أخاه([1]). وكان من شأن الونشريشي أنه يأتي إلى الرجل الذي يشكل عليه خطراً فيقول: "هذا من أهل النار فيلقى من الجبل مقتولا، وإلى الشاب الغر ومن لا يخشى، فيقول هذا من أهل الجنة، فيترك عن يمينه، فكان عدة من قتل سبعين ألفا، فلما فرغ من ذلك أمن على نفسه وأصحابه"([2]).

يلاحظ بأن فتنة بن تومرت من الفتن العظيمة التي كانت سببا في سقوط دولة المرابطين، فلقد كان ابن تومرت متوحشاً قاسياً، مع من شك في عدم ولائه من الموحدين، ومع المرابطين كان أقسى، وأخطر ما في الأمر أن بن تومرت مثَّل مذهباً وتياراً دينياً، له أصوله واعتباراته، وقد خلط خلطاً كبيراً في عقائده، فتارةً يأخذ من المعتزلة وتارة من الشيعة وثالثةً من المذهب الأشعري، لقد كان الصراع ما بين بن تومرت والمرابطين صراعاً مذهبياً وسياسياً، أما مذهبياً بأنه اعتبر المرابطين من المجسمة، وبالتالي كفروا، فهو يقاتلهم على الكفر، وسياسياً لأنه يريد إقامة ملك له وهذا لن يتم إلا بالقضاء على خصومه.

خلف عبد المؤمن بن علي (487هـ- 1094م/ 558هـ- 1163م)، بن تومرت، وكان أول حاكم للموحدين، وكان أقل قسوة وجمود من سلفه، حيث جاء في وصفه بأنه كان سفاكاً لدماء من خالفه([3])، ومن التعاليم التي اعتقدها من سلفه ابن تومرت أنه كان يعاقب من لا يحافظ على الصلاة في زمانه بالقتل، فكان إذا أذن المؤذن ازدحمت المساجد بالناس، وكان سفاكاً للدماء حتى على الذنب الصغير([4])، وكان إضافة إلى تساهله في الدماء يأخذ الغنائم التي حصلوها من دولة المرابطين ويحرقها جميعاً، ويضرب من فاته قيام الليل من جماعته، فأنشأ جماعةً زاهدة عابدة([5]).
عابدة([5]).

---

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج19، ص546.
(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ،ج9، ص199.
(3) ابن العماد: شذرات الذهب، ج4، ص183.
(4) ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص306.
(5) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج3، ص36.

يلاحظ في تلك الأجواء التي خاض العلماء في علم الفروع وغرقوا فيها، وتناسوا كتاب الله وسنته، مصدري الشريعة الأساسيين، وتجرؤهم على بعضهم بحرق إبداعاتهم الفقهية، والوشاية للأمراء وإيغار صدورهم على إخوانهم، وتكفير البعض منهم، أدى ذلك بشكل أو بآخر إلى فساد في المجتمع الذي كان في تلك الفترة (عهد المرابطين) يغرق في كثير من المحرمات لانشغال أولئك العلماء في الفروع بدلاً من الإنشغال في هداية الناس وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

إن التنوع الفقهي في الأندلس والذي كان يمثله المالكية والحزمية والصوفية الغزالية، يعتبر ظاهرة ايجابية وعلامة صحة وعافية في الحضارات المتعاقبة، ولكن يُشترط فيه أن يتميز بسعة الصدر وقَبول المخالفين في وجهات النظر، وعدم الحَجْر على العقول، بزعم أن ذلك الطرف صاحب الحق المطلق، وغيره صاحب الباطل المطلق، وفي ذلك المقام أتي قول الامام مالك "إذا تعارض رأيي مع القرآن والسنة فأضربوا برأيي عرض الحائط"، ولكن للأسف لم يدرك المالكية في الأندلس ذلك القول الواعي للإمام مالك، بل نَحَو نحواً مغايراً، فعطلوا الكتاب والسنة في بعض عصور الأندلس، وقدّموا علم الفروع على الأصول، واعتبروا بألا حق إلا حقهم، ولا إمام الا امامهم؛ مما أدى الى غياب الإبداع الفقهي والفكري، واستبداله بحرق كتب المخالفين ومصادرة أموالهم؛ ونفيهم من بلدانهم واتهامهم بالزندقة، وهنا نرى لزاماً أن نطرح سؤالاً هل الجمود الفقهي وانكار الأخرين يُعتبر عاملاً رئيس من عوامل سقوط الاندلس، أم عاملاً فرعياً؟.

من خلال اطلاع الباحث يمكن القول أنه كان يُشكل عاملاً رئيساً وفرعياً معاً، فعندما كانت الدولة الإسلامية في الأندلس قوية سياسياً وعسكرياً لم يكن لذلك العامل تأثيراً وحضوراً كبيراً؛ وبالتالي كان تأثيره تأثيراً بسيطا، وعندما ضعفت الحالة السياسية في دولة الأندلس وانتكست، برز ذلك السبب كسبب قوي من أسباب التفكك الحضاري الأندلس.

الفصل الرابع:
العوامـــل الخارجيـــة

المبحث الأول:

موقف القوى في شمال أفريقيا من الأندلس

عندما بدأ الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا والأندلس، بقيادة طارق بن زياد وأميره موسى بن نصير؛ كان فتحاً عظيما بقيادة عظيمة، كما مر علينا آنفاً، وقد شكل المغرب العربي والأندلس، وحدة جغرافية واحدة، لدولة اسلامية وبقيادة مسلمة واحدة، وظل الحال على ما هو عليه حتى انقطاع عصر الولاة سنة (95هـ-138هـ)، والعهد الأموي (138هـ-400هـ) بمرحلتيه.

قام عقبة بن نافع بفتح بلاد المغرب ووصل إلى طنجة سنة (60هـ-682م)، وتولى موسى بن نصير على أفريقيا لعبد الملك بن مروان، وبدأ جهاده هناك، واستمر في فتح البلاد التي لم يدخلها الإسلام من قبل، فتم فتح بقية المغرب سنة (89هـ-709م)([1]).

الدولة الفاطمية في المغرب:

لم يكن لشمال أفريقيا خطراً على الأندلس، حيث كان الشمال الأفريقي والأندلس يمثلان حالةً دينية واحدة ، وظلت على ذلك حقب طويلة إلى أن ظهرت الدولة (الفاطمية) في المغرب العربي([2])، حيث قامت (في شمال أفريقيا) سنة (297هـ- 909م)، واتسعت رقعتها بعد انتقالها إلى مصر وتأسيس القاهرة سنة (358هـ-969م)، وكانت تلك الدولة تعادي العباسيين والأمويين باعتبارهم سنة، وكانوا يرنون إلى الأندلس بعين لا تخلو من الطمع ([3]).

وقد ظلت دولة الفاطميين على عدائها للأندلس، إلى أن جاء المعز بن باديس والذي أثّر عليه وزيره ابن أبي الرجال، الورع الزاهد، ودله على مذهب الإمام مالك وعلى السنّة، وعندما علم الشيعة بأمره أرادوا قتله، فدافع عنه عبيده وغلمانه، وقتلوا من الشيعة ما يزيد عن ثلاثة آلاف، وسمي ذلك الموضع ببركة الدم، ثم انتشر الأمر في أفريقيا كلها، فقُتل الشيعة في كل بقاعها وانتهى أمرهم وانتهى أمر الدولة (الفاطمية) وذلك سنة (440هـ-1049م)، بعدما أعمل المعز بن باديس تفكيره وهمته في إزالتها([4]).

يلاحظ بأن الدولة (الفاطمية) كان لها خطراً عظيماً على الأندلس في تلك الفترة التي كانت في المغرب، فتارةً تدعم المتمردين على الدولة في الأندلس، وتارة أخرى تقوم بشن الهجمات على حواضر الأندلس، سعياً في بسط نفوذها جغرافياً، ونشر عقيدتها المنحرفة، خاصة إذا ما علمنا أنها كانت تدعم المتمردين في نهاية عهد الدولة الأموية الأولى، والذي تميز بضعفه الشديد

---

(1) البلاذري: فتوح البلدان، ص282.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص446؛ انظر ابن عذاري: البيان المغرب ج1، ص52-56.

(3) الشطاط: تاريخ الإسلام، ص156.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب ج1، ص119.

لولا منة الله على المسلمين في الأندلس، ومجيء عبد الرحمن الناصر الذي أوقف انهياراً محققاً كاد أن يصيب الأندلس كما سيتضح لاحقاً.

عبد الرحمن الناصر في مواجهة الفاطميين:

يعتبر ابن حفصون من المتمردين النكدين في دولة الأندلس، حيث شكل عنصر توتر دائم، مما دفع الناصر إلى أن يشن عليه حرباً بلا هوادة، فأعلن عمر بن حفصون الطاعة لعبيد الله المهدي (الشيعي) راغباً في دعمه وغير مقتنع في مذهبه([1])، وعلى إثر ذلك قام الخليفة الناصر بعدة أمور أهمها، تقوية الأسطول الذي استطاع منع وصول إمدادات الفاطميين إلى المتمرد عمر بن حفصون، وفي سنة (301هـ-914م) سارع من كان بتلك الناحية من أحواز الجزيرة إلى الدخول في طاعة الناصر فقبلهم وأمنهم، وسكن أحوالهم([2]).

وكان قد خرج عبد الرحمن الناصر بنفسه على رأس حملة عسكرية، وتوجه إلى عمر بن حفصون (صامويل) سنة (306هـ-919م)([3])، وحاصر (صامويل) بن حفصون المتمرد والمدعوم من دولة الفاطميين، واستمر الحصار مدة ثلاثة أشهر كاملة؛ وكان المدد يأتي لابن حفصون من النصارى ومن مدينة إشبيلية، فاستولى عبد الرحمن الناصر على سبعين حصن من الحصون المتمردة، وهزم بن حفصون هزائم منكرة([4])، وكان الناصر قد تعمق في الجنوب بعد أن استولى على جبال رندة، ومدينتي شذونا، وقرمونا، وهي من مدن الجنوب وتمكن من عزل ابن حفصون، ثم تقدم حتى وصل إلى جبل طارق فاستولى عليه، وقطع خط الامداد الواصل من الدولة الفاطمية إلى ابن حفصون، وكان قد وجد في البحر مراكب لابن حفصون، تأتيه بالمدد من بلاد المغرب فأحرقها، وهكذا أجهز الناصر على كل طرق الإمدادات ووسائلها التي تأتي بالمدد والدعم لابن حفصون من المغرب([5]).

ثم استولى على سبتة وطنجة سنة (319هـ- 931م)، بعد حربه لافتتاح المغرب حيث رأي الناصر أن يستولى على سبتة من ولاتها بني عصام حلفاء العبيديين، فاستدعى أمراء البربر بالعدوة، وأرسل أسطولاً قوياً حشد به الرجال والعتاد واستولى عليها([6])، وبعد أن تم للناصر فَتحُها،

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص135.

(2) ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص211.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب ج2، ص159.

(4) عنان: دولة الإسلام، ج2، ص376.

(5) ابن عذاري: البيان المغرب ج2، ص164.

(6) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص181.

فَتحُها، شكها بالرجال، وأتقنها بالبنيان، وبنى سورها بالكذان([1])، وألزم فيها من رضيه من قواده وأجناده، وصارت مفتاحا للغرب والعدوة، وقامت الخطبة فيها باسم أمير المؤمنين الناصر([2]).

يلاحظ بأن تلك الخطوة التي أقبل عليها عبد الرحمن الناصر بالاستيلاء على سبتة، رغم انشغاله بالحرب مع القوى النصرانية بالشمال، أخافت الفاطميين، وجعلتهم ينشغلوا باستخلاص سبتة، ومقاتلة عبد الرحمن الناصر في أرض المغرب، وليس في أرض الأندلس، وهذا يدل على عقلية عسكرية فذة تمتع بها الناصر بحيث نقل المعركة إلى أرض العدو (الفاطميين).

ولتوطيد أعماله العسكرية قام عبد الرحمن الناصر بمراسلة الحسن بن أبي العيش ابن ادريس العلوي حاكم طنجة، ليتنازل له عن حكم طنجة، وبالتالي يسيطر الناصر على رأس العدوة، فرفض ابن أبي العيش ذلك فحاصره أسطول الأندلس، وضيق عليه حتى استسلم في نهاية الأمر([3]).

وفي نفس الإتجاه استولى عبد الرحمن الناصر على ثغور الساحل المغربي المواجهة لساحل الأندلس؛ فاستولى على طنجة ومليلة سنة (314هـ- 926م)، وسبتة سنة (319هـ-931م)،عمل عبد الرحمن الناصر على توطيد علاقته مع دولة الأدارسة، التي تراجعت بعد الغزو الفاطمي لها إلى المناطق الجبلية وقام بدعمها، وذلك لتقويتها في نزاعها ضد الفاطميين([4]).

وفي سنة (319هـ-931م) كتب موسى بن أبي العافية الي عبد الرحمن الناصر من العدوة راغباً في موالاته وطاعته، وأن يستميل له أهل العدوة المجاورين فقبل الناصر، وأحسن إليه، وأمده بالخلع والأموال وأعانه على حرب ابن أبي العيش وغيره، فظهر أمر موسى من ذلك الوقت في العدوة، وتجمع إليه كثير من قبائل البربر، وتغلب على مدينة جراوة، وأخرج عنها الحسن بن أبي العيش بن إدريس العلوي، ودارت بينهما محاربات ومواقعات([5]).

في عام (323هـ-935م) توجه جيشاً بقيادة ميسور الصقلبي (الفاطمي)، ليقاتل موسى أبو أبي العافية، وبعد معارك انهزم بن أبي العافية، واستنصر بالناصر فأنجده وهزم الفاطميين، وعاد لموسى ابن أبي العافية ملكه في المغرب، وقوي أمره([6]).

---

(1) الحجارة التي ليست بصُلْبة (الأزهري: تهذيب اللغة، ج9، ص326).

(2) ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص231.

(3) الناصري: الاستقصا، ج1، ص253.

(4) البكري: المغرب، ص92.

(5) ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص86.

(6)النويري: نهاية الأرب، ج28، ص72؛ ابن خلدون: تاريخ، ج1، ص136.

وفي الحرب التي شنها الفاطميون ضد الأندلس، قام المعز لدين الله عام (344هـ-955م)، بضرب سواحل الأندلس، من خلال الهجوم على ثغر المريّة، وأحرق ما فيها من السفن وخرب ما استطاع، فما كان من عبد الرحمن الناصر إلا أن خرج بأسطوله إلى سواحل الدولة (الفاطمية)، وقام بحملة تأديب واسعة ضدهم، وعاد سنة (345هـ-956)، ثم توجه جوهر الصقلي بجيش الفاطميين إلى المغرب الأقصى ودخل فاس سنة (347هـ-958م)، وقتل عامل عبد الرحمن الناصر عليها، فعجل الناصر بتجريد حملة أندلسية عبرت المغرب وردت العبيديين على أعقابهم([1]).

يلاحظ بأن همة الفاطميين كانت عالية في غزو الأندلس، ولم يفوتوا أي فرصة للهجوم عليها، وكذلك لضمها لملكهم بعد أن انتشروا في الشمال الإفريقي، ولولا قوة عبد الرحمن الناصر وخبرته العسكرية لاستطاع الفاطميون دخول الأندلس وتغيير مذهبها.

الحكم المستنصر (302هـ-914م /366هـ-976م):

استخلف عبد الرحمن الناصر ابنه الحكم سنة (350هـ -961م)، وتلقب بالمستنصر بالله، فكان عمره يومها 47 عاماً([2])، واصل المستنصر بالله طريق والده في سياسته اتجاه شمال أفريقيا، وفي سنة (360هـ-971م) تمكن حلفاء المستنصر من هزيمة زيري بن مناد الصنهاجي عامل المعز لدين الله، وتمكن من قتله، وقتل كبار رجاله وإرسال رؤوسهم إلى قرطبة حيث المستنصر، ففرح بذلك واحتفل بهم، وأجزل لهم العطاء، وخاطب المستنصر بالله قواده وعماله بكِور الأندلس ليأتوا لمشاهدة دخول يحيى بن عليّ بن حمدون وبني خزر أمراء زناتة القادمين برأس زيري بن مناد الصنهاجي([3]).

بعد تلك الهزيمة التي قتل فيها زيري الصنهاجي وكبار جنده، عزم ابنه يوسف بن زيري على الأخذ بثأر أبيه، فخرج بجيش قوي سنة (321هـ-933م)، والتحم مع الجيش الموالي للمستنصر، والذي كان في معظمه من قبيلة زناتة، وكان على رأس جيش زناتة محمد بن الخير أمير تلك القبيلة، فلما أدركته الهزيمة على يد يوسف بن زيري اتكأ على سيفه وقتل نفسه، خوفاً من الوقوع بالأسر، وقد هلك فيما زعموا بضعة عشر أميراً منهم، وبعث زيري برؤسهم إلى المعز بالقيروان فعظم سروره، وكانت هزيمة منكرة لأتباع الحكم المستنصر، وعلى إثرها قام يوسف بن زيري بقتل أبناء زناتة وتخريب بيوتهم، وإخضاع شمال أفريقيا ثم حاول دخول سبتة ففشل

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص221 - 222.
(2) ابن حزم، رسائل، ج2، ص194.
(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص248.

لمناعتها([1])، وفي سنة (361هـ-972م)، تحول حسن بن قنون الحسني أمير الأدارسة، من ولائه للحسن المستنصر إلى يوسف بن زيري (بلقين)، ودعا للعبيديين (الفاطميين) على منابر طنجة بدل الدعاء للحكم، فأرسل الحكم جيشاً قوياً لسبتة وأوصى قائده بالاجتهاد في محاربة حسن بن قنون، وأمر المستنصر قائده محمد بن قاسم إن نصره الله أن يحسن إلى الناس، ويصلح في البلاد ويعفو ويصفح، وبدأت المعركة وانهزم بن قنون، ولجأ إلى جبل حصين، ثم نظم جيشه، وفي سنة (362هـ-973م) دارت معركة شديدة بين محمد بن قاسم الأندلسي والحسن بن قنون في (فحص مهران)، قتل فيها محمد بن قاسم وهزم الأندلسيون وقتل منهم 500 فارس وألف راجل([2]).

يرى الباحث بأن المعارك التي دارت بين الأندلسيين والفاطميين كان لها أثر عسكري مهم، حيث فقدت الأندلس الكثير من القادة الكبار والجنود البواسل الذين كان بالإمكان أن يبقوا حصناً للدولة، وطليعة للفتح لولا ذلك الاستفزاز الفاطمي الذي أودى بحياتهم، وذلك يظهر الدور السلبي للقوى الفاطمية في شمال أفريقيا والذي ظل كسمة مميزة، وملازمة للوجود الفاطمي في المغرب.

وفي نهاية تلك المعارك جهز المستنصر جيشاً قوياً وجعل عليها غالب بن عبد الرحمن وأمده بالمال والجند، وأوصاه قائلاً سر يا غالب مسير من لا إذن له بالرجوع، إلا حياً منصوراً، أو ميتاً معذوراً، ولما علم بن قنون بذلك الجيش هرب ولجأ بأهله وأمواله إلى قلعة حجر النسر القريبة من سبتة، واستمرت المعارك أياماً بين غالب بن عبد الرحمن الأندلسي وجيش بن قنون، وكان أن استمال غالب رؤساء البربر المنضوين لحسن بن قنون فانشقوا عنه، وفي سنة (364هـ-975م)، عاد غالب بن عبد الرحمن في موكب عظيم إلى الأندلس، ومعه حسن بن قنون وشيعته، بعدما أخذ الأمان من غالب بن عبد الرحمن وعاد إلى طاعة المستنصر([3]).

لقد عانى الفاطميون من علاقتهم مع البربر الذين لم يلتزموا بالولاء لهم ولاءً كاملاً، وكانت مدينتا صنهاجة وزناتة الأكثر نفوذاً وسطوة، والمنافسة بينهم شديدة، حيث حالفت صنهاجة الفاطميين فيما حالفت زناتة الأمويين، وكانت بهذا التحالف تمثل نقطة ضعف في السيادة الفاطمية مع المغرب، والتي أحسن المستنصر استغلالها بإعطاء حلفائه دعماً كافياً ليحقق هدفين أولهما: الإحتفاظ بالمواقع العسكرية التي سيطر عليها الأمويين على ساحل المغرب، مثل طنجة وسبتة ومليلة، والثاني إضعاف الحكم الفاطمي في تلك المنطقة([4]).

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج6، ص204؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص243.

(2) انظر ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص248-250.

(3) ابن خلدون: تاريخ، ج6، ص261.

(4) الشطاط، تاريخ الإسلام، ص187.

بتتبع سريع لتلك المرحلة التي كان القتال فيه على أشده بين الأندلس وحكامها، من جهة وحكام شمال أفريقيا، يتضح بأن تلك الحرب لم تؤثر على الوجود الأندلسي في حينه، وذلك أنها كانت في عهد قوة عز نظيرها تحت حكم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم، ويلاحظ أيضاً بأن حكام شمال أفريقيا من الدولة (الفاطمية) كانوا على غير عقيدة عموم المسلمين في المشرق والمغرب، حيث أنهم كانوا من الشيعة، والتي أرادت أن تنشر عقيدتها كما أسلفنا القول بعد نشر نفوذها السياسي على الأندلس، ولكنها ارتدت مدحورة بعد مواجهة حكام الأندلس لهم، وبالتالي فإن الصراع بين شمال أفريقيا والأندلس لم يكن في تلك الفترة عاملاً مباشراً لسقوط الأندلس ولكنه بالتأكيد كان يؤسس لعلاقات غير منسجمة بين الأندلس شمال أفريقيا والتي ستؤثر بشكل أو بآخر على الوجود الإسلامي في الأندلس.

دول الشمال الأفريقي زمن الحكم الأندلسي:

1- دولة الأغالبة تأسست سنة (184هـ-800م)، أمراؤها من بني الأغلب يحكمون باسم العباسيين، وعاصمتهم مدينة رقّادة جنوب القيروان، سقطت بيد أبي عبد الله الشيعي سنة (296هـ-909م)([1]).

2- الدولة الرستمية تأسست سنة (144هـ-761م)، على يد عبد الرحمن بن رستم الخارجي الاباضي، وكانت عاصمته مدينة تاهرت وعلاقتها مع الأمويين طيبة، قضى عليها الفاطميون سنة (296هـ-909م)([2]).

3- الدولة المدرارية أو دولة بني (واسول)، وكانوا من الخوارج، وتبعهم أهل مكناسة على مذهبهم وبنوا مدينة سجلماسة سنة (140هـ-757م)، وفي سنة (155هـ-772م)، اجتمعوا على زعيم له يقال له أبي القاسم سمكو بن واسول بن مصلان بن أبي نزول؛ وبه تسمّت الدولة([3])، واستمرت تلك الدولة إلى أن قضى عليها الفاطميون سنة (349هـ-960م)([4]).

4- دولة الأدارسة تأسست سنة (172هـ-789م)، أسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعاصمتها فاس([5]).

ذكر الحجي بأن العلاقة بين الأندلس والشمال الأفريقي كانت ودية وحسنة وكذلك مع باقي المشرق الاسلامي ودلل على ذلك بأن الناس في المشرق كانوا على صلة طيبة بالأندلس،

---

(1) العبادي: التاريخ العباسي والأندلسي، ص385.

(2) النفوسي: الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الاباضية، ج2، ص14.

(3) ابن خلدون: تاريخ، ج6، ص172.

(4) الخطيب: أعمال الأعلام، ص146.

(5) العبادي: التاريخ العباسي والأندلسي، ص387.

حيث يذهبون للسفر والحج والسياحة والدراسة، وفيها كان يُستقبل علماء الشرق بالترحاب، ولم يحدث صدام أو مواجهة بينها بل كانت العلاقة الحسنة، ولا غرابة في ذلك فالعقيدة تجمع بين تلك الأطراف، وكانت تلك الصفة بشكل عام تميز العلاقة بين الأندلس وشمال أفريقيا([1]).

يلاحظ بأن القول السابق للحجي فيه ما فيه من الصواب إلا أنه لا يجوز أن نغفل بأن هناك حروباً طاحنة استمرت بين الأندلس وشمال أفريقيا (الفاطميين) إلى ما يقرب من قرن من الزمان كما ذكر في المصادر الأندلسية السابقة والتي أظهرت تلك الحرب بوضوح، وهذا كان له التأثير الواضح على الأندلس من الناحية العسكرية وغياب قيادتها كما أسلفنا القول.

التحالف مع ملوك أوربا:

في حرب الناصر ضد الدولة الأموية قيل بأنه تحالف مع ملك ايطاليا (هوج دي بروفانس)، الذي أراد الانتقام من الفاطميين لتخريبهم ميناء جنوة، كما حالف الناصر قسطنطين السابع امبراطور الدولة البيزنطية الذي رغب في استعادة جزيرة صقلية من الفاطميين([2]).

إن تلك الاتفاقيات التي ابرمت بين الناصر عبد الرحمن وبين ملوك أوروبا، رأى فيها عبد الرحمن الحجي بأنها غير منطقية وذلك لعدة أسباب أهمها: انعدام الأدلة الكافية على قيام مثل تلك المعاهدة([3]).

ويرى الباحث أن القوة التي كانت تتمتع بها الدولة الاسلامية زمن عبد الرحمن الناصر، تغنيها في مواجهتها مع الفاطميين عن عقد تحالفات مع الأوروبيين رغم أهمية تلك التحالفات على المستوى السياسي للدولة.

المرابطون في المغرب والأندلس:

أول ما قامت دولة المرابطين في المغرب كانت على أسس إسلامية، وكان يوسف بن تاشفين أبرز وأهم أمرائها، وبعدما أصاب التفكك الأندلس في عهد الطوائف وأنهكها النصارى في أسبانيا، وسقطت طليطلة سنة (478هـ-1085م)؛ استنجد حكام الأندلس بالمرابطين، فلبى المرابطون النداء، واشتبك المسلمون المرابطون مع النصارى في معركة الزلاقة في رجب (479هـ-1086م)، وكان النصر حليفاً للمسلمين، وكان ذلك أول تدخل للمرابطين لنصرة الأندلس والحفاظ عليها([4])، وعند عودة يوسف بن تاشفين الى المغرب أمر القوم بالاتفاق

---

(1) التاريخ الأندلسي، ص318.

(2) العبادي: التاريخ العباسي والأندلسي، ص402.

(3) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص318.

(4) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص421.

ووحدة الكلمة، وأشار لهم بأن النصارى ما تمكنوا منهم إلا لتشتتهم واستعانة بعضهم على البعض بالكفار، فأجابه حكام الأندلس بأن وصيته مقبولة([1]).

ظلت ظلال المرابطين وارفة على الأندلس، وسيفهم مشهر للدفاع عنها، ففي عام (501هـ-1108م) كانت وقعة أوقليش والتي سميت بمعركة (الأقماط السبعة)، نسبةً للأمراء السبعة الذين رافقوا شانجة بن أذفونش (ألفونسو السادس)، وكان عدد الجيش القشتالي أكبر من الجيش الإسلامي بكثير، فهزم الله القشتاليين وقتل شانجة وانتصر المسلمون([2]).

وكذلك كانت معركة قتندة في ربيع أول سنة (514هـ-1120م)، وقادها إبراهيم بن يوسف بن تاشفين شقيق الأمير علي بن يوسف، وكانت الدائرة على المسلمين، واستشهد فيها مجموعة من العلماء والفقهاء، كان منهم القاضي الشهير أبو علي الصدفي وهو حسين بن محمد بن فيرو بن حيون يعرف بابن سكرة الصدفي، من أهل سرقسطة وسكن مرسية([3]).

وفي تعاضد المرابطين والجيش المغربي مع الأندلس كانت وقعة إفراغة في رمضان سنة (528هـ- 1134م)، والتي تعتبر من المعارك المهمة حيث التحم فيها المرابطين والأندلسيين بقيادة يحيى بن غانية، وهو من أعظم قادة المرابطين وقابله ابن ردمير، وبعد قتال عنيف هلك ابن ردمير وانتصر المسلمون وسرت أنباء تلك المعركة في المغرب والأندلس لتبعث الأمل والسرور([4])، وبعد ثلاثة شهور من تلك الموقعة، التقى تاشفين بن يوسف مع القشتاليون بقيادة أفونسو الأول ملك أرجون، في مكان يُعرف بالبكار شمال قرطبة، ودارت معركة عنيفة هزم فيها القشتاليون، وأبدى فيها تاشفين بطولة نادرة، وقال بعد أن عرض عليه الفرار: "لا أسلم وأُسلّم الأمة"، وأحدق به رجال من الأندلس وأفذاذ المرابطين، فوقع الضرب واشتد الحرب وعظم الخطب، وتاشفين في درعه متشحا، ودرقته بيده يشد حملته ويبدي صفحة، فلم يُرى أربط جأشاً ولا أشم نفسا منه([5])، لسنوات عديدة حدثت معارك بين المرابطين وجيش الأندلس ضد قوات قشتالة، وانتصر المرابطون في أكثرها، وخسروا بعضها([6])، إن جهاد المرابطين في الأندلس قد استغرق واستنفذ طاقة الدولة المرابطية، مما تسبب ذلك البذل والجهد تكليف الدولة وتكليف طاقاتها كل ذلك الى عدم استطاعتها النهوض بالعبء، فكان ضعفها ثم

---

(1) ابن بلقين: التبيان، ص106.

(2) ابن القطان: نظم الجُمان، ج6، ص5.

(3) ابن بشكوال: الصلة، ج1، ص46؛ ابن الآبار: التكملة، ج1، ص54؛ المقري: نفح الطيب، ج4، ص460.

(4) ابن عذارى: البيان المغرب، ج4، ص94.

(5) ابن الخطيب: أعلام الأعلام، ج3، ص259؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج4، ص90.

(6) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص426.

سقوطها سبباً واضح الأثر بالأندلس وضياع العديد من مدنه، ولقد كان تعاون المرابطين مانعاً لسقوط الأندلس لأربعة قرون حتى ورث ذلك الجهد الموحدون وبنو مرين بالنيابة عنهم([1]).

يلاحظ بأن قوة الشمال الأفريقي ممثلة بدولة المرابطين، والتي ظلت ظهيراً وسنداً للأندلس، ينصرونهم ويدفعون غائلة السقوط عنهم؛ إلى أن انتهى عهد المرابطين وخسرت الأندلس ناصراً قوياً لهم، فحال المرابطين في المغرب كان غير حال الفاطميين، فالمرابطون حافظوا ودعموا الأندلس وأما الفاطميون فقد أرادوا خرابها واحتلالها، ونجمل القول بأن استعراض تلك المعارك التي قام بها المرابطون، على مدار تاريخ الأندلس، كانت حامية لها، وعند تراجع المرابطين وضعفهم، ضعفت الدولة الأندلسية، ثم كان انهيار دولة المرابطين سبباً مباشراً في سقوط الأندلس.

الموحدون في الأندلس:

بعد صراعٍ دامٍ بين الموحدين والمرابطين انتصر الموحدون، وسقطت دولة المرابطين بعد سقوط عشرات آلاف القتلى، وذلك في ثماني وعشرون سنة (512هـ -1118م/ 541هـ-1146م)، وكان عبد المؤمن بن علي زعيم الموحدين، يطوي الممالك الواحدة تلو الأخرى إلى أن ذلت له البلاد وأطاعته العباد([2])، وكان نتيجة ذلك الصراع وسقوط دولة المرابطين أن سقطت مدينة المَرِيَّة في أيدي النصارى سنة (542هـ- 1147م)، واستشهد فيها آلاف المسلمون وسُبيت أكثر من أربعة عشر ألف فتاة مسلمة، ومن النتائج المريعة أيضاً لسقوط دولة المرابطين، سقوط طرطوشة ولاردة، وكان قد حررها المرابطون قبل ذلك([3])، بعد تلك الأحداث ضعفت الأندلس عن رد عدوان أسبانيا الشمالية أواخر المرابطين، فذهبت وفود من الأندلس لتدعوا الموحدين لنجدتها ورد العدوان، فاستجابت دولة الموحدين لذلك وقضت على بقايا المرابطين وعلى العدوان القادم من الشمال الأسباني، ووحدت الأندلس لتجعلها جناح الدولة الموحدية الغربي([4]). وكانت أول وقائع الموحدين في نصرة أهل الأندلس وقعة الأرك سنة (591هـ-1195م)، حيث كان من الأمر أن عقدت هدنة بين ألفونسو الثامن، وبين أبو يوسف يعقوب المنصور (الموحدي)، وذلك بعد انتصاره على (بطرو بن الريق) أمير البرتغال وذلك سنة (585هـ-1189م)، بعد أن قصد مدينة شلب من جزيرة الأندلس، واستعان بالإفرنج ووعدهم أن يجعل لهم السبي وله المدينة، ولكن أمير المؤمنين لاقاه بجيوش عظيمة فلم يستطع

---

(1) المراكشي: المعجب، ص270.

(2) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص421.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص347؛ الناصري: الاستقصا، ج2، ص118.

(4) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص483.

الروم دفاعه، ولم يكف عنهم إلا بعد انتصاره عليهم وأخذ حصن عظيم من الروم يقال له طرش([1]).

وفي سنة (586هـ-1190م) بلغ المنصور أن الفرنج ملكوا مدينة شلب، وهي في غرب جزيرة الأندلس فحاصرها وأخذها، فأرسل جيشاً من الموحدين ومعه جماعة من العرب، ففتحوا أربع مدن كانت في يد الفرنج، وكانوا قد أخذوها من المسلمين قبل 40 سنة، فخافه ألفونسو الثامن صاحب طليطلة، وسأله الصلح فصالحه خمس سنين، وعاد إلى مراكش فلما انقضت مدة الهدنة ولم يبق منها سوى القليل، خرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين، فنهبوا وسبوا وعاثوا عيثا فظيعا، فلما علم الأمير يعقوب جهز جيشاً عرمرم من قبائل الموحدين والعرب وذهب إلى الأندلس سنة(591هـ - 1195م)([2]).

التقى جيش أبو يوسف يعقوب المنصور، والذي يقدر بمئتي، ألف مسلم من المغرب وأهل الأندلس([3])، يقابله ألفونسو الثامن مستعيناً بمملكتي ليون ونفار وبقوة بلغت 225 ألف نصراني، وقد أحضر معهم بعض تجار اليهود لشراء أسرى المسلمين بعد انتهاء المعركة لبيعهم في أوروبا([4])، وبعد معركة عظيمة تبدد فيها جيش النصارى بين القتل والأسر وقتل في اليوم الأول 30 ألفاً، وذكر المقري أن قتلاهم وصلت إلى 146 ألف قتيل، والأسرى من عشرين إلى ثلاثين ألف أسير([5]).

يلاحظ بأن تلك المعركة من معارك الإسلام الخالدة تُذّكِر بمعارك المرابطين كالزلاقة، والتي هب فيها جنود المسلمين في المغرب دفاعاً عن الأندلس، وسجل لهم فيها الإنتصار العظيم، وهذا يثبت بأن المسلمين اذا ما اتحدوا مشرقهم ومغربهم، ورفعوا راية التوحيد والدفاع عن الحرمات، -حيث أن معركة الأرك جاءت بعدما عاث النصارى فساداً في بلاد المسلمين- فإن النصر حليفهم وعدا من الله، "وَكَـانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْـرُ الْمُـؤْمِنِينَ"([6]).

فالإيمان الحقيقي عندما يكن في قلوب المؤمنين يأتي نصر الله، كعهد قطعه الله على نفسه لنصره أوليائه وعباده، وكان من نتائج تلك المعركة المجيدة أن وقعت معاهدة بين قشتاله والمسلمين على وقف القتال لعشر سنوات أراد المنصور فيها أن ينظم دولة الموحدين([7]).

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ص204؛ ابن خلدون: تاريخ، ج6، ص244.

(2) ابن خلكان: وفيان الأعيان، ج7، ص4-5؛ ابن الأثير: الكامل، ج10، ص237.

(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج21، ص319.

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص237؛ ابن خلدون: تاريخ، ج6، ص245.

(5) نفح الطيب، ج1، ص443.

(6) سورة الروم: أية 47.

(7) المراكشي: المعجب، ص360.

تمتعت الأندلس في عصر الموحدين بمستوى كبير من القوة العسكرية والسياسية كما هو الحال بالمغرب الجناح الأخر للدولة الموحدية، وتميزت بالمستوى الحضاري العالي، الذي استمر نموه في كثير من الجوانب برعاية الموحدين مع مكانة المغرب الحضارية([1]).

توفي المنصور الموحدي سنة (591هـ-1195م) بعد إنجازات عظيمة أهمها (معركة الأرك) سنة (591هـ-1195م) واستخلف ابنه الناصر لدين الله ولم يتجاوز عمره السابعة عشر([2])، كانت أهم الأعمال التي أراد انجازها الناصر القضاء على ثورات بني غانية، مما دفع ألفونسو الثامن للتجهيز لمعركة جديدة، بعد معركة الأرك وما لحقه من عار، وبالفعل هجم ألفونسو الثامن على بلاد المسلمين فأحرق الزروع ونهب القرى، وقتل المسلمين العزل، مدشناً بداية حرب جديدة ضد الأندلس([3])، ولم يكن ألفونسو الثامن هو التحدي الوحيد الذي واجه الناصر لدين الله الموحدي، بل هناك كان تحدي داخلي تمثل بتولية بطانة سوء حوله، كان أهمها الوزير سيء التدبير أبا سعيد بن جامع([4])، وكان وزيره أبو سعيد بن جامع قد أقصى شيوخ الموحدين وأعيانهم، وذوي الحنكة والرأي منهم عن بساطه، وانفرد هو به، فكان يشير على الناصر في غزوته تلك بآراء كانت سبب الضعف والوهن؛ وجلبت الكرّة على المسلمين([5])، وكان أصعب المواقف التي مرت في زمن الناصر لدين الله موقعة العقاب سنة (665هـ-1267م)؛ وفيها سحق جيش المسلمين حيث فرت ميمنتهم من أرض المعركة، والتف العدو حولهم، فقتل الآلاف بسيوف النصارى، وسمي بيوم العقاب أو بمعركة العقاب([6]).

بهزيمة الناصر لدين الله في العقاب اهتزت دولة الموحدين قاطبةً وبدأت ممالك الأندلس تتساقط، وهذا نتيجة الضعف الذي أصاب دولة شمال أفريقيا (دولة الموحدين)، وهذا ما يدلل على أن اهتزاز دولة شمال أفريقيا كان له صداه على الأندلس وسقوط ممالكه، تماماً كما كان حال دولة المرابطين زمن سقوطهم وما تبعهم من نكسات، وبهذا يتضح علاقة قوى الشمال الأفريقي بسقوط الأندلس، حيث أنها وبقوتها تحفظ وتصان الأندلس، وبضعفها تدمر الأندلس، وقد يكون ضعف قوى الشمال الأفريقي إما لحروبهم فيما بينهم، وإما لحروبهم مع النصارى.

---

(1) الحجي: تاريخ، ص498.

(2) المراكشي: المعجب، ص386.

(3) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص233.

(4) الحجي: تاريخ، ص498.

(5) الناصري: الاستقصاء، ج2، ص221.

(6)ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص239.

في سنة (613هـ – 1217م)، تردى وضع بلاد المغرب وتولى المستنصر بالله الحكم هناك وهو طفل، وفي زمانه ظهرت قبيلة زناته واستقلت عن حكم الموحدين، وإنشأت دولة بني مرين، والتي سيكون لها شأن في بلاد الأندلس([1]).

توفي المستنصر بالله ولم يستخلف بعده أحد، فجاء بعده حكام ضعاف، إلى أن وصل للحكم ابن هود سنة (625هـ – 1228م)، مستقلاً بشرق وجنوب الأندلس، وكان مفرطاً في الجهل ضعيف الرأي لم ينصر له على النصارى جيش، وكانت أعظم المآسي في تلك الفترة سقوط قرطبة سنة (633هـ – 1236م)([2]).

تقاعس الشمال الأفريقي في نصرة الأندلس:

بعد أفول نجم دولة الموحدين ومجيء بني مرين، الذين حاولوا ايقاف التدهور الحاصل في الأندلس، كان بنو مرين قد أنشؤوا فرق دائمة في الأندلس، للمرابطة على ثغورها، متفرغة للجهاد فيها دوماً([3])، استطاع ابن الأحمر –الذي عقد اتفاقاً مع ملوك النصارى– بمعاونة المتطوعين الذي جاءوا من وراء البحر أن يهزموا النصارى عام (660هـ – 1261م)، ويعتبر هذا أول انتصار للأندلس على النصارى بعد انهيار دولة الموحدين، وتمكن عامر بن ادريس قائد الجيش المسلم أن ينتزع مدينة شريش من النصارى، ولكن لأمدٍ قصير، وذلك مثل بارقة أمل سرعان ما ذهب سناها، وفي سنة (663هـ–1265) بدأ واضح أن ملك قشتالة يريد استرداد ما بقي من قواعد الأندلس، فعادت الرسائل المستغيثة تخرج من الأندلس الى أمراء المغرب وزعمائه لينصروا الأندلس ويغيثوها قبل فوات الأوان، خاصة وأن النصارى قد بدؤوا عدوانهم وبدأت هزائم بن الاحمر على يد دون نوني دي لاري (دوننه) سنة (663هـ–1265)، وكتب الفقيه أبو القاسم العزفي صاحب سبتة يستنصر قبائل المغرب ويقول: "لا تخلدوا بركون إلى سكون، والدين يدعوكم لنصره، وصارخ الاسلام قد أسمع أهل عصره، والصليب قد أوعب في حشده، فالبدار البدار، بإرهاب الجد وإعلان الجهاد"، وتكرر ذلك الصريخ إلى سائر أمراء أفريقيا، وأعلن ابن الأحمر بيعته للملك المستنصر بالله الحفصي صاحب تونس، ثم بعث إليه المستنصر هدية ومالاً لمعاونته، ولكن تلك المساعي لم تسفر عن نتيجة سريعة، وبقيت الأندلس وحدها تواجه العدو وتواجه سوء المصير، وفي تلك الأجواء وأمام ضغط القشتاليين هادن ابن الأحمر ملك قشتالة، وتنازل له عن عدد كبير من البلاد والحصون، بلغ أكثر من مئة موضع معظمها في بلاد الأندلس سنة (665هـ – 1267م)، وبعد ثلاث سنوات أي في

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج6، ص251.

(2) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص278.

(3) الحجي: تاريخ، ص520.

عام (668هـ-1270م) عاد النصارى إلى فسادهم وتخريبهم يقودهم ملك قشتالة ألفونسو العاشر، وكأنه لم يعقد هدنة مع بن الأحمر، فبعث ابن الأحمر إلى أمير المسلمين السلطان أبي يوسف يعقوب المريني ملك المغرب يطلب منه الغوث والنجدة، ويخبره بعدوان النصارى ونيتهم القضاء على الأندلس، ولكنه مات قبل أن يرى الجواب([1]).

استجاب السلطان المريني لنداء ابن الأحمر وأرسل جيشاً من خمسة ألاف عبر إلى الأندلس، وفي ربيع الأول سنة (674هـ-1276م)، اشتبكت قوات المسلمين مع جيش قشتاله عند مدينة استجة، وكان عدد الجيش القشتالي يقدر بتسعين ألف مقاتل، يقودهم الدون نوني دي لارا، وباسمه عرفت المعركة بالدونينة، وفي تلك المعركة قام أبو يوسف يعقوب وترجل عن جواده وصلى ركعتين، ودعا اللهم انصر هذه العصابة وأيدها وأعنها على جهاد عدوها وعدوك، وخطب في المقاتلين خطبة عظيمة رغبهم فيها في القتال وذكرهم بالجنة وما فيها، وكانت معركة عظيمة([2]).

كانت تلك أهم ملامح العلاقة التي حكمت شمال أفريقيا مع الأندلس، فمن الدولة (الفاطمية) التي كانت معادية للأندلس وتحاول السيطرة، عليها ونشر مذهبها الشيعي هناك، إلى دولة المرابطين وما مثلته من داعم وناصر للأندلس، وكذلك دولة الموحدين، ثم بني مرين، وانجازات تلك الدول، في نصرة الأندلس وتقاعس بعضهم، ولكن الملاحظ أيضاً أن العلاقة عندما كانت تسوء بين دول شمال أفريقيا والبيوتات التي ستحكم فيها يتأثر الأندلس منها وبشكل واضح، حيث تغيب قوة مسلمة قوية داعمة للأندلس، فيتمكن النصارى في الشمال الأندلسي من الهجوم على الأندلس واقتلاع بعض الدول.

ظلت تلك الحالة من بداية القرن الثامن الهجري حتى نهايته، إلى أن سقطت غرناطة عام (897هـ-1472)، والسبب في بقاء غرناطة بيد المسلمين، هو الخلاف الكبير والصراع الطويل الذي دار بين قشتاله وأرغون المملكتين النصرانيتان في الشمال، وتصارعهما معاً بعد أن صارت كل مملكة منهم ضخمة قوية، وكانتا قد قامتا على أنقاض الدولة الاسلامية في الأندلس([3]).

---

(1) عنان: دولة الإسلام ج5، ص47.

(2) ابن خلدون: تاريخ، ج7، ص193.

(3) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص559.

المبحث الثاني

دور الممالك النصرانية في الشمال

إن عوامل سقوط الأندلس عديدة متنوعة، منها ما كان داخلياً كالذي مر علينا خلال الدراسة، ومنها ما كان خارجياً، كدور الشمال الأفريقي ودور ممالك الشمال النصرانية، التي شكلت معول هدمٍ قوي، في تدمير الأندلس، والقضاء عليها قضاءً مبرماً، وإقامة دولة نصرانية على أنقاض دولة الإسلام في الأندلس.

باستعجال الوليد بن عبد الملك لموسى بن نصير إلى دمشق، لم يكتمل الفتح الإسلامي للأندلس، إضافة لأسباب أخرى، أهمها سرعة تغير الخليفة إما بالقتل أو وبالإقالة، وكذلك لبعد الأندلس عن مركز الخلافة، مما يصعب وصول الإمدادات في الوقت المناسب، وقد فتحت القوات الإسلامية الأندلس بقيادة طارق بن زياد، والوالي المحنك موسى بن نصير، ولكنها تركت أجزاء منها، ولم تتابع الفلول المنهزمة من بقايا الجيش القوطي، التي لجأت إلى الشمال، لتحمي نفسها، مما ساعد تلك الفلول على تجميع نفسها والنمو ومحاربة القوات الفاتحة، وخوض حرب الإسترداد التي قضت على المسلمين في الأندلس([1]).

لقد تمكن الجيش الإسلامي من دخول جليقية، واستولى على معظم قلاعها وطاردوا العدو حتى جبال أستورياس، واعتصموا بها، فحاول موسى بن نصير محاصرة العدو وإرغامه على الإستسلام (سنة 95هـ-714م)، ونجح ولم يبقى سوى زعيم يدعى بلاي، وقليل من أنصاره، في تلك الأثناء أرسل الخليفة الوليد متعجلاً موسى بن نصير لكي يعود إلى دار الخلافة، وكان قد أرسل له مغيث الرومي فتباطأ، فأرسل له رسوله الثاني أبا نصر، فعاد موسى تاركاً ذلك الزعيم النصراني ومن معه معتصمين في الجبال، واستهان المسلمون بهم فيما بعد، فإذا بهم ينمون، ويكوّنوا المملكة النصرانية في الشمال، التي قُدر لها أن تطرد المسلمين من الأندلس بعد ثمانية قرون([2]).

يلاحظ بأن استدعاء الخليفة الوليد لموسى بن نصير كان سبباً أساسياً في ترك موسى لفلول النصارى، في تلك الأماكن الوعرة التي تحصنوا بها، ثم قويت شوكتهم وأقاموا ممالكهم وقضوا على دولة الاسلام بتعجل من الخليفة الوليد ولقدر يعلمه الله.

لقد كان كهف أونكا، (كوفا دونجا)، ملجأً بعيداً عن طريق الجيوش الإسلامية وكان منيعاً وبه قلة من النصارى، وهذا السبب الذي جعل العيون لا تتجه إليها مما أدى إلى

---

(1) الحجي: التاريخ الأندلس، ص269.

(2) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص16؛ المقري: نفخ الطيب، ج1، ص275-276.

نموهم، ومساعدتهم فيما بعد من جيوش أتت من خارج أسبانيا، وفيهم قال ابن خلدون "لجأ الجلالقة ومن بقي من أمم العجم إلى جبال قشتالة وأربونا وأبواب الدروب فتحصنوا بها"([1]).

عقبة بن الحجاج:

كان عقبة بن الحجاج السلولي قد تولى على الأندلس في شوال سنة (116هـ-121هـ)، وكانت ولايته خمسة أعوام وشهرين، واستشهد في معركة بلاط الشهداء([2])، وقاد ذلك الفاتح سبع حملات داخل فرنسا، وأحسن إلى الإسرى حتى أسلم على يديه ألفاً منهم([3])، ولقد اتسعت الفتوحات في زمنه لتشمل بدمونت شمال ايطاليا([4])، وفتح مدينة سنبول، ومدينة أربونا، وقرقشونا([5])، وافتتح جليقية وبنبلونة، وأسكنها المسلمين. وعمت فتوحاته جليقية كلها غير الصخرة([6]). وفي سنة (116هـ- 734م)، حاصر علقمة (وادي اشتوريش) وبلاي ومن معه بالصخرة، وألجأه إلى مغارة أونجة، ولم يستطع المسلمون اقتحام المغارة التي لاذ بها ملك يقال له بلاي هو وثلاثمائة رجل، وظل القتال بينهما حتى مات معظم أصحاب بلاي، وظل معه ثلاثون رجل([7])، وفي الليل تمكن بلاي من الهبوط على علقمة وقتله، وأسر بعض المسلمين فارتدوا منهزمين، ولا شك أن معركة الصخرة (كوفا دونجا) لم تكن كبيرة حيث كان طرفاها متمرد نصراني محلي، وقائد مسلم محلي أيضاً، ولكنها كانت حاسمة، لانشغال المسلمين بصراعهم الداخلي؛ مما منعهم من إخماد بؤر التمرد في الشمال([8]).

وفي نهاية عهده زاد الضعف والتشرذم في الأندلس ونتج عن ذلك الضعف والفرقة قيام دولة أسبانية في شمال اسبانيا هي مملكة ليون سنة (119هـ- 737م)([9]).

يلاحظ أن الإنجازات العظيمة لذلك القائد المجاهد رغم أهميتها، تركت ذلك المكان المسمى بالصخرة، والذي كان منطلقاً للشر ومدمراً لحكم المسلمين في الأندلس من خلال الجيوش التي خرجت من ذلك المكان وعلى يدها كان الخراب.

---

(1) تاريخ ابن خلدون: ج4، ص151؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص234.

(2) ان الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص120؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص151.

(3) المقري: نفح الطيب، ج3، ص19.

(4) مؤنس: فجر الأندلس، ص233.

(5) الحجي: التاريخ الأندلسي، 204.

(6) الصخرة أو صخرة بلاي تقع في قمم أوروبا في سلسلة جبال قنتبرية، وفي أعلى هذه الصخرة توجد مغارة أو كهف (كوفا دونجا)، (الحجي: التاريخ الأندلسي، ص112).

(7) مجهول: أخبار مجموعة، ص43؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص151.

(8) كحيلة: القطوف الدواني، ص153.

(9) يوسف: العصور الوسطى الأوروبية ص335.

تأسيس الممالك النصرانية:

مملكة ليون (119هـ- 737م):

توالى على حكم ليون ألفونش (ألفونسو الأول) بعد وفاة بطرة (121هـ-739م)، وتزوج ألفونش من ابنة بلاي، وتوحدت جبهة الحرب واعتبر ألفونش الأول مؤسس المملكة النصرانية في الشمال، وانتفع من الأحداث الداخلية في الأندلس زمن يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وبعد ألفونش جاء ابنه فرويلة الأول وجرت بينه وبين المسلمين حروباً سجالاً، وعندما قامت الإمارة في الأندلس سنة (138هـ-756م)، وانشغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره، قوي أمر الجلالقة، واستفحل سلطانهم، وعمد فرويلة ابن الأذفونش ملكهم الجديد إلى ثغور البلاد، فأخرج المسلمين منها، وملك مدينة لوك وسمورة وشلمنقة وشقوبيا وقشتالة، وصارت للجلالقة حتى افتتحها المنصور بن أبي عامر آخر الدولة([1]).

وفي سنة (159هـ-776م) إغتيل فرويلة، ثم جاء ابنه ألفونش الثاني واستمر حكمه 50 سنة، وقامت عدة مواجهات عسكرية بينه وبين المسلمين، إلى أن انتهت بعقد معاهدة سلام بينه وبين عبد الكريم عبد الواحد بن مغيث وزير عبد الرحمن الأوسط سنة (206هـ-822م)([2]).

يلاحظ بأن هناك قاعدة لا تخفى على أي دارس للتاريخ، وهي ما أن يدب النزاع بين المسلمين وينشغلوا ببعضهم حتى يضعف شأنهم، وتبدأ حصونهم وبلدانهم بالسقوط، وهذا أمر طبيعي، لأنه على ثغورهم يقف عدو متربص يتحين الفرص لينقض عليهم، وكان انقضاض ذلك العدو على الأندلس، بعد صراعاتهم الداخلية، وصراعهم أيضاً مع عدوهم خلف الحدود، سبباً في سقوط الأندلس.

مملكة قشتالة:

في أواخر القرن التاسع امتدت مملكة ليون على حساب المسلمين، وأنشأ عدد من القلاع في القسم الشمالي، مما مهد لظهور مملكة قشتالة، التي مثلت رأس حربه أمام الأندلس فإن ملوك ليون منحوها قدراً من الإستقلال، وأتاحوا للمهاجرين إليها امتيازات واسعة، فشعر أهلها بتميزهم عن أهل ليون، ولصعوبة الحياة التي صادفوها اتسموا بالصلافة والصلابة والعناد([3]).

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص403؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص234.

(2) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص271.

(3) كحيلة: القطوف الدواني، ص162.

قامت مملكة قشتالة ونبارا بجانب ليون وهما أصغر من ليون، وكانت العلاقة بين قشتالة ونبارا من جهة، وليون من جهة أخرى، تتأرجح بين حرب وصفاء، وكانت تلك الممالك تتحرش بالأندلس منفردة أو مجتمعة، وجاء إلى حكم ليون ردمير الثاني الذي حارب المسلمين بكل الوسائل، وفي زمانه كانت معركة الخندق (327هـ - 939م)، وكانت أقسى أشكال الصراع، حيث أصيب فيها المسلمون([1])، وفي سنة (371هـ-981م) اتحد ردمير الثالث مع قوات الشمال الأسباني، وبدأ حربه ضد الأندلس فواجهه المنصور بن أبي عامر وهزمه في موقعة (شنت منكش) سنة (371هـ- 981م)([2]).

مملكة نافارا:

نشأت في القرن التاسع للميلاد، وتولى ملكها سانشو غرسية بعد اعتزال أخيه فرتون (303هـ- 905م)، وكان سانشو خاض مع المسلمين حروباً عديدة أيام الأمير عبد الله([3]).

وفي أواخر عصر الإمارة استطاع سانشوا الأول توسيع حدود دولته على حساب المسلمين، وصارت نافارا مملكة ضمت بعد سنوات إمارة أرجونة، وأصبحت القوة النصرانية التالية بعد مملكة ليون([4]).

وفي فترة نشوء إمارة نافارا نشأت إمارة أرجونة، وفي القرن العاشر اختفت تلك الإمارة عندما آلت عن طريق المصاهرة مع غرسيا الأول ملك نافارا، ولم تعد إلى مسرح الأحداث إلا بعد وفاة سانشو الكبير ملك نافار سنة (426هـ-1035م)([5])

الممالك النصرانية شمال الأندلس زمن الناصر:

تمكن عبد الرحمن الناصر بعد توحيد الأندلس من تقليم أظافر الدولة المسيحية التي اتسع خطرها؛ فقام سنة (308هـ- 920م) بقيادة حملة على جليقية وندرة، وهدم حصون ستوريش، وحقق انتصارات حاسمة على أردون الثاني وحلفائه، وسجلت له انتصارات على شيوش وليون ونبرة، اكتسح بعدها تلك الدولتين([6])، وفي زمن الناصر عظم شأن الأندلس، حتى غدت أعظم الدول في زمانها، واعتُرِف بالناصر على أنه أقوى زعيم في زمانه([7])، فأذعن له أعدائه بالطاعة وهادنوه؛ وبعثوا له بالسفارات والهدايا مطالبين بالصلح، ففي عام (344هـ-

---

(1) ابن عذارى: البيان المغرب، ج1، ص233.

(2) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص274.

(3) عنان: دولة الإسلام، ج4، ص580.

(4) كحيلة: القطوف الدواني، ص176.

(5) كحيلة: القطوف الدواني، ص181.

(6) سالم: تاريخ المسلمين، ص289.

(7) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص58.

955م)، قدِم إليه بقرطبة رسول الملك أردون الثالث يطلب السلم فعقده له، كما وفدت عليه الملكة طوطة سنة (347هـ- 958م)، مع حفيدها شانجة، فأكرم وفادتها، وأعانهما على إعادة الملك إلى حفيدها، بعد أن اغتُصب منه ملكه([1])، وحول علاقة الممالك الشمالية بالخليفة الناصر رحمة الله، قال ابن خلدون: "ومدت له أمم نصرانية من وراء الدروب يد الأذغان، وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم، من روما والقسطنطينية في سبيل المهادنة، والسلم والاعتمال، فيما يعن في مرضاته، فقبّلوا يده، والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه، وامتطوا مراكبه([2]).

يلاحظ مما سبق ذكره أن إذعان ملوك الشمال، وطلب ود خليفة المسلمين كان حالة طبيعية في ظل وحدة الإسلام في الأندلس وقوتها، وتمسكها بأسباب القوة، وابتعادها عن أسباب الضعف التي سبق الحديث عنها خلال البحث، وتلك قاعدة أصيلة في تاريخ الاندلس والتاريخ الاسلامي عموماً، ففي ظل تماسك المسلمين ووحدتهم وانتمائهم الى قيادة قوية ينكمش النصارى (الأعداء)، ومع بروز أي شقاق، تتسارع الممالك النصرانية للانقضاض على دولة الإسلام.

المستنصر بالله (350هـ - 1156م= 366هـ- 1162م):

كان عالماً فقيهاً نساباً حافظاً للتاريخ، جمّاعاً للكتب، مقرباً للعلماء من كل مصر، وجرد نفسه لخدمة العلم والعلماء، فكان في تلك الأمور حجة وقدوة وأصلاً يوقف عنده([3])، ولصفاته تلك، ظن حكام الشمال أنه ضعيف؛ فأعلن سانشو (شانجة الأول) عن عدم إلتزامه بالعهود التي قطعها، وتلكأ في تنفيذ اتفاقية الهدنة بينه وبين الناصر([4])، فاحتفظ بالحصون التي كان قد تنازل عنها للخلافة الأموية، وأخذ يستعد لحرب المسلمين، وتحالف مع مملكة نابارا وقشتالة([5])، وأمام ذلك التحالف بادر المستنصر بإعلان التعبئة في الدولة رداً على استعداد النصارى، وتلك التعبئة التي نفذها المستنصر (352هـ- 963م) تصدى لها ملك قشتالة فردناند؛ ولكنه أصيب بهزيمة فرقت جيشه، وبعثرت قواته قبل إرغامه على موادعة الخليفة الذي عاد أدراجه بعد حملة ناجحة، كان نتيجتها استجابة الأمير القشتالي لشروط الخلافة واحترام الحدود([6]).

---

(1) سالم: تاريخ المسلمين، ص290.

(2) تاريخ، ج4، ص177؛ المقري: نفح الطيب، ج1، 354.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص233.

(4) المقري: نفح الطيب، ج1، ص384.

(5) العبادي: التاريخ العباسي والأندلسي، ص432.

(6) ابن خلدون: العبر، ج4، ص144.

الحاجب محمد بن أبي عامر (المنصور) (366هـ- 976=392هـ- 1002م):

جنّد البرابرة والمماليك، واستكثر من العبيد والعلوج، وقهر من يعاديه، فظفر من ذلك بما أراد، ورد الغزو بنفسه إلى دار الحرب، فغزا اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه،ولم ينكسر له فيها راية، ولا فلّ له جيش، ولا أصيب له بعث، ولا هلكت له سرية، في مواجهة المسلمين لقوات النصارى في الشمال([1]).

وفي سنة (378هـ-988م) قاد المنصور قواته باتجاه (شانت ياقب) مخترقاً الطرق الجبلية الوعرة حتى وصل إلى المدينة، فلم يجد بها سوى راهباً بجوار قبر القديس يعقوب، فسأله عن سبب بقائه، فقال: آنس يعقوب، فأمر بتركه وهدم حصون المدينة وأمر بعدم المساس بالراهب، وغنم الكثير من الغنائم وعاد راجعاً([2]).

وفي سنة (397هـ- 1002م)، تولى عبد الملك بن أبي عامر أمر الحجابة للخليفة هشام بن الحكم وسار على سيرة والده، فقام بأعمال جليلة في بلاد الروم؛ فغزا سبع غزوات، ودوخ الإفرنج، وفتح حصون كثيرة كانت تابعة للممالك المسيحية([3]).

الممالك الأسبانية وحربها ضد الطوائف:

بعد قيام دول الطوائف سنة (400هـ-1005م= 484هـ-1189م) (دويلات أو ملوك الطوائف) سادت الأندلس حالة من الإرتباك والحيرة، وعليه سعت سلطات أسبانيا النصرانية أن تستحوذ على ما بيدي أمراء الطوائف من الممالك، سواء كانت العلاقة بينها وبين تلك الطوائف الإسلامية علاقة حرب أو تحالف، وكانت هذه عادة الممالك النصرانية([4]).

وقد اتحدت ممالك أسبانيا النصرانية في الشمال في عصر تنازُع الطوائف، وفرقتها في الأندلس، مما سبب صراعاً مريراً داميا تجاوزت فيه أسبانيا النصرانية حدود القسوة المتناهية مع المسلمين([5])، وكان لفردلند ذلك جهد في مهاجمة الأراضي الأندلسية، في تلك الفترة حيث حيث استولى على بعض المناطق في قاسية الأندلس من الشمال الغربي سنة (449هـ- 1057م)، وحاصر مدينة بازو جنوب نهر دويرة، وفيها ثبت المسلمون ودافعوا دفاعاً مجيداً، وكان للرماة جهاداً بارعاً في ذلك، ولكن فرناردو اقتحم المدينة بصورة عنيفة وبدأ بالتقتيل وأسر الناس، وكان بين الأسرى ذلك الرامي الماهر الذي أصاب ألفونش الخامس قبل ثلاثين عاما، فأمر فردلند بسمل عينيه وقطع يديه ورجليه، وعذب حتى الوفاة، كما احتلت مناطق

---

(1) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص190؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص398 .

(2) ابن عذارى: البيان المغرب، ج2، ص294.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص3-4.

(4) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص226.

(5)ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص253؛ الحجي: التاريخ الأندلسي، ص274.

أخرى من مملكة بطلايوس، وفي سنة (454هـ-1062م)، عاث فردلاند فساداً في الأنحاء الشمالية لمملكة طليطلة زمن بنو ذي نون، وفي بعض مناطق إشبيلية حيث بنو عباد، وفي سنة 456هـ سقطت بيده مدينة قلمريا (قلنبيرة) لكن فردلند ملك قشتاله وليون توفي العام التالي([1]).

فرناندو الأول (ملك قشتالة) ضد بني الأفطس (449هـ- 1057م):

في سنة (449هـ-1057م)، جمع فرناندو الأول جيوشه وغزا بلاد بطليوس مهاجماً الحدود الشمالية لتلك البلاد، فأخضع مدينة بازو ولميجو الواقعتين في شمال البرتغال، وأفسدهما، وقام بتطهير عرقي ضد مسلمي المدينتين المسلمتين، فطرد المسلمين منهما واستوطنهما بالنصارى([2])، وبعد سيطرة فرناندو طلب من المظفر بن الأفطس الجزية فرفض بن الأفطس دفعها، مما حذا بفرناندو أن يغير مرة أخرى عليه؛ فبعث عشرة ألاف جندي فأفسدوا وخربوا ولم يُلاقوا من يردهم، ووصلوا الى مدينة شنترين، ولعجز بن الأفطس من صد العدوان اتفق مع فرناندو على الصلح مقابل دفع جزية تقدر بخمسة ألاف دينار([3])، ثم توجه فرناندو سنة (454هـ-1062م)، إلى حدود طليطلة الشمالية، وأفسد فيها مما دفع المأمون بن ذي النون، الذهاب مسرعاً ومعه أطنان من الذهب ليدفعها كهدية وجزية، واعترافاً بطاعته لفرناندو، وفي عام (455هـ-1063م) أغار فرناندو على مملكة إشبيلية، وحرق قراها وخرب أراضيها؛ مما دفع المعتضد بن عباد أن يحذو حذو المأمون مقدما الهدايا، ومعلناً الطاعة والصلح مع فرناندو، فطلب منه فرناندو نقل قبر القديسة خوستا إلى إشبيلية فوافق المعتضد([4])، وفي سنة (456هـ-1064م)، توجه فرناندو بجيوشه إلى قلمرية، وفرض عليها الحصار، وكان قائدها راندة، وقد غادر المدينة بعد أن راسل فرناندو سراً، وخرج هو وأهله سالمين، ثم توجه رانده إلى المظفر بن الأفطس فقتله لخيانته، ولم تلبث المدينة أن سقطت بعد ستة أشهر([5])، وفي عام (445هـ-1053م) توجه فرناندو إلى بلنسية مخترقاً حدود سرقطسة الجنوبية، فقتل من أهلها وخرب زرعها، واجتاح سائر البقاع والحصون، مما أرغم المقتدر بن هود على دفع الجزية، ثم توجه إلى بلنسية ففرض عليها الحصار، ولم يستطع دخولها لمناعتها، فتظاهر بالإنسحاب،

---

(1) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص274.
(2) عنان: دولة الإسلام، ج3، ص386.
(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص238.
(4) عنان: دولة الإسلام، ج3، ص384.
(5) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص184.

فخرج أهلها فرحين متتبعين فلول المنهزمين، وفي غفلة من أهلها ارتدت قوات فرناندو فقتلت وأسرت ما استطاعت من أهل بلنسية وكان ذلك في (457هـ-1065م)([1]).

يلاحظ أن تلك الحروب التي شنت على بلاد الأندلس من الأسبان وممالكهم، كانت ذات أثرٍ فعال وقوي في سقوط الأندلس بعد تخريبها، وقتل الكثير من الجنود، ومن العامة، تلك المعارك التي سبقتها معارك ولحقتها معارك أخرى، تراكمت كلها بعضها لتشكل حالة من الإستنزاف، ظلت على مدار التاريخ الأندلسي، إلى أن حان الوقت لخراب الأندلس.

ألفونسو السادس والإستيلاء على طليطلة (478هـ-1085م):

كان هم ألفونش السادس الإستيلاء على طليطلة، فبدأ منذ سنة (470هـ-1078م)، بالإغارة على أراضي مملكة طليطلة وانتسف مزارعها، وبقي على ذلك سنوات فأنهك قواها، حتى سقطت طليطلة، من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى ذي بن النون، بعد حصارها سبع سنين، وكان ذلك في منتصف محرم (478هـ-1086م)([2])، وحيال سقوط طليطلة وقف بعض ملوك الطوائف جامدين لا يتحركون لنجدة طليطلة، وكأن الأمر لا يخصهم، فاغرين أفواهم جبناً وغفلةً، بل إن عدداً منهم ذهب الى ألفونش (أدفونش) طالباً عونه أو عارضاً له الخضوع([3]).

وبعدما استولى الفونسو السادس على طليطلة، شن غاراته على جميع أعمالها، واستولى على جميع ما في يد القادر بن ذي النون واستأصلها، وأخذ القرى المحيطة بتلك المنطقة، وبعد قضاء ألفونش على ملوك الطوائف كافة غدوا رهن إشارته وطوع بنانه، لذلك علت مكانته بين ملوك النصرانية وتسمى بـ(الإمبراطور) أبو بـ(الإمبراطور ذي الملتين)([4]).

وبعد سيطرة الفونسو على طليطلة أراد أن يسيطر على بلنسية، فوعد صاحبها القادر بن ذي النون أن يمكنه من استرداد بلنسية، من أجل أن يجعل شرقي الأندلس واقعاً تحت سيادته بالكامل، فخرج القادر قاصداً بلنسية، ومعه مجموعة من جنود النصارى بأميرهم (البرهانيس)، ودخلها القادر بعد أن تودد لأهلها بمساعدة النصارى الذين أفسدوا في المدينة وفرضوا على الناس ضرائب باهظة، وأصبح القادر أداةً في يد البرهانيس الذي لها السيادة الفعلية على بلنسية([5]).

---

(1) عنان: دولة الإسلام، ج3، ص224.

(2) المقري: نفح الطيب، ج4، ص352.

(3) ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص82.

(4) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص230.

(5) عنان: دولة الإسلام، ج3، ص113.

تُجمع المصادر التاريخية على أن الحروب الأهلية، والإنقسامات الداخلية، والصراعات القبلية، بين المسلمين في عهد الولاة (97هـ-138هـ/ 713هـ-755م)، هي السبب في نشأة الممالك المسيحية وتطورها على أرض الأندلس، ومن هنا أصبح التاريخ الأندلسي بكامله صورة من صور الصراع بين تلك الممالك الناشئة، وبين دولة الإسلام هناك، كما أن التاريخ سجل شهادته التي تؤكد للمسلمين في كل العصور، وفي أي مكان، أنه في ظل وحدة المسلمين، كانت الممالك المسيحية تنكمش وتسعى للعيش في سلام مع جيرانها المسلمين، وما أن يدب الخلاف بين المسلمين، حتى تسارع تلك الممالك باستغلال الموقف، والإنتقاص من أطراف المسلمين، وكانت تلك العادة دائمة إبان حقب التاريخ الأندلسي، والتي لم يلتفت إليها المسلمون إلا قليلاً([1]).

سقوط بلنسية (487هـ- 1094م):

تعرضت بلنسية لحصار شديد من القمبيطور (رذريق) المغامر، فهلك أكثر الناس جوعاً وأكلوا الجلود والدواب، ومن فر فقئت عيناه أو قطعت يداه، أو دقت ساقاه أو قتل([2])، ونتيجةً للحصار انعدمت أقوات الناس وهلكوا ولم يبق إلا القليل، وانتشر الوباء، وكان الرجل يموت وهو يمشي من شدة الجوع، وبالعموم فعل ببلنسية ما لم يُفعل بأيٍ من الممالك في الأندلس، وكل ذلك بإشراف المرتزق القمبطور رذريق([3]).

بعد ذلك الحصار الشديد اضطر أهلها إلى التسليم، ضمن شروط شرطوها على رذريق وكان أهمها أن يبقى (بن حجاف) قاضياً للمدينة وأن يؤمّن في ماله ونفسه وأهله، وأن يؤمّن السكان في أنفسهم وأموالهم، وأن يتولى مندوب رذريق الإشراف على تحصيل الضرائب، وأن يتولى المدينة النصارى المعاهدين الذين يعيشون بين المسلمين، وأن يرابط رذريق بجيشه في الجبال ولا يغيّر شيئاً من شرائع المدينة وأحكامها([4]).

وما أن استقر المقام للقمبيطور (رذريق)، حتى تنصل من كل ما اتفق عليه مع المسلمين، فعاقب ابن حجاف القاضي ورئيس الجماعة، والذي تولى زمام السلطة عام (485هـ-1092م)؛ فأخذ أمواله ثم أحرقه أمام الناس سنة (488هـ-1095م)([5])، وكان ذلك بعد أن أمّنه في نفسه وماله، عند دخوله بلنسية وتركة على القضاء عاماً، ثم اعتقله وأهل بيته وأقاربه، وطالبه بمال القادر بن ذي النون (حليفه!) فحصل على المال الذي بحوزته، بعد

(1) عنان: دولة الإسلام ج1، ص112-140.

(2) ابن عذارى: البيان المغرب، ج4، ص33.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، ج4، ص38.

(4) الحجي: التاريخ الإسلامي ص377.

(5) ابن الآبار: التكملة، ج1، ص240.

الضرب والإهانة، ثم أشعل ناراً عظيمة وقيد القاضي ابن حجاف وأهله وبنوه حوله، وأحرقوا جميعاً([1]).

بعد تلك المأساة توجهت قوات مرابطية لحصار بلنسية، بقيادة الامير أبي محمد مزدلي ابن عم يوسف بن تاشفين، وذلك عام (495هـ-1102م)، فعجل أذفونش بدخول بلنسية بعد طلب جيش رذريق ومن معه؛ فأقام بها شهراً والروم والنصارى يراقبونه فيها، ويهوّنون عليه أمر جيش المسلمين، وكان في المدينة شيمانه زوجة رذريق الذي توفي سنة (493هـ-1100م)، فنصحها أذفونش بترك المدينة، فأخذت رفات زوجها والأموال المنهوبة، ثم خرجت مع اذفونش بعدما حرقوا بلنسية التي خُربت تماماً ودخلها المرابطون مرة أخرى عام (495هـ-1102م)([2]).

إن التتبع السابق للتاريخ الأندلسي في القرن الخامس، والذي سيطرت فيه الطوائف كان مريعاً بكل ما تحمل الكلمة، حيث تميز بتخريب حواضر الأندلس وسقوط ممالكها، وقتل رجالها وسبي نسائها في كثيرٍ من الأحيان، وكما هي العادة، تأتي تلك النتائج بسبب التشردم الداخلي والصراع الذي ميز ذلك العهد وتلك الحقبة من التاريخ الأندلسي، وهذا كله كان دافعاً للسير في طريق انهيار الأندلس وسقوطها في نهاية المطاف.

المرابطون والممالك النصرانية:

بدأ عبور الجيوش المرابطية من سبتة إلى الجزيرة الخضراء، بعد المصائب التي حلت بممالك الأندلس، وبعد النداءات التي وجهها ملوك الطوائف ليوسف بن تاشفين رحمه الله، فاستنفر قواته للجهاد واجتمع له نحو 700 ألاف فارس([3])، ونزل الجيش إلى إشبيلة ثم تبعه بن تافشين ونزل بظاهرها، ورغم موت ابنه أبي بكر إلا أنه آثر الجهاد([4])، وفرح المسلمون بذلك القدوم المبارك وسارع أمراء الطوائف للاشتراك بقواتهم، وأعدوا ما أمكن للمشاركة في البذل والتضحية فرحين بشهود ذلك اليوم الجليل([5])، وما أن سمع ألفونش السادس بذلك الجيش حتى فك حصار سرقسطة، وكاتب ملك أرغون شانجة بن ردمير، وأمراء ما وراء البرت يطلب النجدة، فتجمعت جيوش جليقية ونبارا وقشتالة، وجاء متطوعون من فرنسا وإيطاليا، حتى قيل أن عدد الجيش النصراني بلغ 50 ألفاً أو يزيد([6])، وعندما رأى ألفونش تلك الجيوش قال بهؤلاء

---

(1) القضاعي: الحلة السيراء، ج2، ص126؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص204.

(2) ابن الآبار: التكملة، ج1، ص422؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج4، ص42.

(3) المراكشي: المعجب، ص191.

(4) القضائي: الحلة السيراء، ج2، ص100.

(5) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص404.

(6) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص153.

بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء([1])، جرت المراسلات بين الطرفين وحاول ألفونسو استخدام الخديعة، ولكن تنبه له يوسف بن تاشفين ومن معه، وكان اللقاء بين المرابطين والممالك النصرانية في معركة الزلاقة، وذلك في الثاني عشر من رجب سنة (479هـ-1086م)، واستمرت المعركة يوماً واحدا لا غير، حطم الله شوكة العدو الكافر، ونصر المسلمين وأجزل ما لديه من نعمه، وأظهر بهم عنايته، وأجمل لديهم صنعه([2])، وفي تلك المعركة ظهرت عبقرية القائد المسلم بن تاشفين وبن عباد، ولم يكن بن تاشفين مجرد فارس يصول ويجول، بل أظهر من الخطط العسكرية التي ناسبت المعركة ما يثبت أنه قائد بحق، فما أن اختل ميزان القوى دفع ابن تاشفين إلى قلب العدو مجموعة من الجيش، ثم تقدم بالقوة الإحتياطية إلى المعسكر القشتالي وهاجمه بشدة، واتجه صوب مؤخرة الجيش فأثخن وأشعل النار فيه([3]).

يلاحظ أن معركة الزلاقة تدل وبشكل قاطع على أن الروح الكامنة في الإسلام عقيدة وأخلاقا، إذا ما تفاعلت مع نفوس الناس، فإنها تحوُل العدم إلى طاقة جبارة، وإلى قوة موّارة تدك الجبال، وتستطيع العقيدة إن استقرت في قلوب المسلمين أن تهزم أعتى الجيوش، والتي ظن قائدها بأنه يمكن أن يقاتل الجن والإنس والملائكة بجيشه، ويا ليت تلك المفاهيم كانت في عقول وقلوب ملوك الطوائف، الذين شاركوا في معركة الزلاقة، وكتب الله على أيدهم النصر، يقودهم بن تاشفين، بدلا من إجهاد أنفسهم في قتال بعضهم بعضاً، وتدميرهم لدولة كبيرة للإسلام، وحاضرة من حواضر المدنية العالمية.

وفي المواجهة بين المرابطين والممالك النصرانية، أمر علي بن يوسف بن تاشفين أخيه تميم سنة (501هـ-1108م) بالتوجه لمدينة أقليش، شرق طليطلة، ففتحها وفر الجيش القشتالي، وتحصن في قصبة أقليش، وأمد أدفونش بن فردلاند الحامية بعشرة ألاف فارس، وجعل عليه ابنه شانجة، ومعه البرهانش وقادة أخرون، وسميت المعركة بالأقماط السبعة أي الأمراء السبعة المرافقين لشانجة، وفيها كان نصراً عظيماً للمسلمين([4]).

سقوط سرقسطة:

إستدعى أهل سرقسطة محمد بن الحاج اللمتوني والي بلنسية فوافاهم (503هـ-1111م)، فأمكنوه من البلد وجرت قصص طويلة أفضت إلى تغلب الروم على سرقسطة، بحيث سقطت

---

(1) المقري: نفح الطيب، ج4، ص363.

(2) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج3، ص242-243.

(3) الحجي: التاريخ الأندلس، ص407.

(4) ابن عذارى: البيان المغرب، ج4، ص50.

في يد بن ردمير سنة (512هـ- 1018م)([1])، وكان من شأنها أن صارت حملة صليبية بلغ عددها 50 ألف راكب، تلك الحملة اشتركت فيها أسبانيا الشمالية، وفرنسا بقيادة بن ردمير ملك أرغون، وتوجه إلى شمال الأندلس وحاصر أهلها ستة أو تسعة أشهر في صفر سنة (512هـ-1118م)([2])، وبعدها بعامين سار بن ردمير حتى وصل إلى كتندة (قتندة)، وهي بالقرب من مرسية في شرق الأندلس؛ فحاصرها وضيق على أهلها، وكان أمير المسلمين علي بن يوسف حينئذ بقرطبة ومعه جيش كبير من المسلمين والمتطوعين، فالتقوا معبن ردمير فهزمهم هزيمة منكرة، وكثر القتل في المسلمين، وكان فيمن قتل (أبو عبد الله بن الفراء) قاضي المرية، وكان من العلماء العاملين، والزهاد في الدنيا، العادلين في القضاء، ومعه استشهد لفيف من العلماء والفقهاء([3]).

وفي عام (528هـ-1134م)، قام أدفونش (المحارب) بن ردمير بالهجوم على الأراضي الإسلامية، فَهُزم شر هزيمة حول مدينة إفراغة([4])، وتعتبر تلك المعركة من المعارك المهمة في التاريخ الإسلامي، والتي كان يقف على رأس المسلمين فيها المرابط الأمير ابي زكريا يحيى بن غانية والي بلنسية، ويعتبر من القادة العظام في دولة المرابطين، وكان جيشه أقل من جيش ابن ردمير، الذي حلت به الهزيمة بعد قتال عنيف، ثم هلك على إثر تلك المعركة، وقد بعثت تلك الموقعة الأمل في قلوب مسلمي الأندلس([5]).

نهاية المرابطين :

في سنة (539هـ-1145م) بدأ نجم دولة المرابطين بالأفول، وملكهم بالزوال، فخرج سيف الدولة ثائراً بالثغور الجوفية، ومنها ورد على قرطبة، في تلك الفترة هزم المسلمون بالمكان المعروف باللج على مقربة من جنجالة سنة (540هـ-1146م)([6])، إستغلت أسبانيا تلك الحالة من الفوضى والضعف، فنظم ملك قشتالة أدفونش بن رومند المعروف بالسليطين (ألفونسو السابع) جيشاً شمل جيش قتشالة ونبارا وأرغون وقطلونيا مع قوات جنوا وبيزا، وتقدمت تلك الجيوش وحاصرت البر والبحر لمدة ثلاثة شهور، فنفذ الطعام وتم الإستيلاء عليها فسقطت في أيديهم

---

(1) القضاعي: الحلة السيراء، ج2، ص248.

(2) الحميري: الروض المعطاء، ص98.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص206.

(4) ابن الخطيب: أعلام الأعمال، ج3، ص254.

(5) ابن عذارى: البيان المغرب، ج4، ص91.

(6) القضاعي: الحلة السيراء، ج2، ص250.

ودخلوها سنة (542هـ-1148م) عنوة، وتتابع سقوط الممالك الإسلامية فسقطت المرية (542هـ-1148م)([1]) ولاردا في عام (567هـ-1172م)، بعد خيانة محمد بن سعد بن مردنيش([2]).

الجهاد في عهد الموحدين:

عبد المؤمن بن علي 543هـ:

في عام (560هـ-1165م) حصل اللقاء ما بين محمد بن سعد بن مردنيش، وحلفائه من نصارى شمال أسبانيا، حيث كان في جيشه ما يقرب من ثلاثة عشر ألف مقاتل، حارب بهم الموحدين، ولكنهم تعاهدوا على الثبات والإستشهاد في سبيل الله، وتم النصر لهم في معركة عرفت بفحص الجلاب([3])، وفي عام (543هـ-1148م) وبعد استيلاء الموحدين على كثير من البلدان الأندلسية، بايع القاضي (بن العربي) عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين، وطلب النجدة لأهل الأندلس، ونشير هنا إلى أن عبد المؤمن بن علي لم يحمل الأفكار الضالة التي كان يحملها محمد بن تومرت وبعض أتباعه([4])، فجهز عبد المؤمن بن علي جيوشه، وحارب الصليبين في الأندلس واستطاع أن يعيد المرية وذلك سنة (552هـ - 1157م)([5])،

يوسف بن عبد المؤمن بن علي (558هـ - 580هـ):

وجاء بعد عبد المؤمن بن علي ابنه يوسف، وذلك (558هـ - 1163م)، وجاهد جهاداً عظيماً، ضد النصارى، وفي عام (579هـ-1183م) عبر بجيشه الأندلس ونزل إشبيلية، وقصد مدينة شنترين وهي بغرب الأندلس، التي كان بن الريق قد أخذها، فنازله يوسف بن عبد المؤمن وقطع أشجارها وحاصرها، ثم خاف المسلمون البرد وزيادة النهر، فأشاروا على يوسف أن يرجع فرجع، وكان رجوعهم غير منظم، علم به الروم من خلال عيونهم، فحملوا على الناس حتى وصلوا إلى يوسف بن عبد المؤمن، فطعن طعنة كان فيها أجله، وانتهى تاريخه الحافل بالجهاد ضد أعداء الأندلس من النصارى عام (580هـ-1185م)([6])، وقتل عدد كبير من كبار رجال الجيش، وقيل بأن الخليفة يوسف قد أصيب بسهم مسموم ومات بعد إصابته بليلتين، وحملت جثته إلى إشبيلية، ثم أرسلت إلى تينمال، ثم دفن بجوار أبيه عبد المؤمن([7]).

---

(1) المقري: نفح الطيب، ج4، ص462 - 463.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص417

(3) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص417.

(4) الحلل الموشية، ص147.

(5) ابن الأثير: الكامل، ج9، ص416.

(6) الذهبي: تاريخ الإسلام ج40، ص323.

(7) المراكشي: المعجب، ص258-291.

لقد كانت غزوات يوسف بن عبد المؤمن ضد الفرنج في الأندلس، قوية وحادة وتذكر ببداية عهد الموحدين، وقد حاول الإستيلاء على البرتغال فأخفق سنة (580هـ -1174م)، وقد أعاد للإسلام مجده العسكري، وأعطى نموذجا للقائد وأمير المؤمنين الذي يسقط شهيداً وسط المعركة([1]).

يلاحظ بأن يوسف بن عبد المؤمن وأبيه الذين منّ الله عليهما بصفاء العقيدة، ونزع أفكار بن تومرت المضلة، قد مكنهما ذلك من انسجامها مع عموم المسلمين في الأندلس والمغرب أيضاً، وكان جزائهما نصراً من الله مؤزراً، يليق بمؤمنين صادقين، يحملون عقيدة صافية، وبهما وبأمثالهما ظلت الأندلس مصانة، قوية رغم عوامل الضعف الداخلية والخارجية التي كانت تحيط به.

يعقوب بن عبد المؤمن "أبو يوسف المنصور الموحدي" (554-595هـ/1160-1199م):

عبر يعقوب الأندلس سنة (585هـ-1189م)، وتوجه مباشرة إلى شنترين وأشبونا، فأحرق القرى ونهب الضياع، وسبي كثيراً من أهلها وعاد إلى المغرب([2])، وقد عبر يعقوب بن يوسف الأندلس مرة ثانية عام (591هـ-1195م) ووصل إلى قرطبة في 19 رجب إلى موقع الأرك، وعندما سمع ألفونسو الثامن بتقدم جيش الموحدين، توجه إلى الأرك لمواجهة الموحدين قبل أن يغيروا على بلاده، وكان من سوء طالع ألفونسو الثامن أنه دخل المعركة قبل أن تصل جيوش حلفائه من ليون ونبرا([3])، وهزم ألفونسو الثامن، وقتل من جيشه 146 ألفا وأسر 30 ألفاً، ولا يحصى ما أخذ من الجواهر والأموال، وبيع أسيرهم بدرهم، ثم حاصر يعقوب طليطلة وضيق عليها، وفي مشهد يليق بسماحة المجاهدين المسلمين العظماء، جاءت والدة ألفونسو الثامن وبناته ونسائه باكيات، سائلات ذلك المجاهد أن يبقيهن في البلد فرق لهن وأعادهن مكرمات ووهبهنّ أموال وجواهر([4]). وكان من نتائج تلك المعركة تهافت الأمراء لعقد معاهدات مع الموحدين، حيث جاء سفراء مملكة ليون، وأبدى ملك نبارا رغبته في كسب صداقة الموحدين، للدفاع عن مملكته من أطماع قشتاله([5])، ومن نتائج تلك المعركة أن حاصر المسلمون طليطلة وكانت من أحصن المدن الأندلسية ولم يستطيعوا فتحها([6]).

---

(1) عودات وأخرون: تاريخ المغرب والأندلس، ص117.

(2) ابن ابي الزرع: روض القرطاس، ص144.

(3) ابن عذارى: نفح الطيب، ص43.

(4) المقري: نفح الطيب، ج1، ص443.

(5) سالم: المغرب الكبير، ص812.

(6) ابن خلدون: تاريخ، ج6، ص245.

تعتبر معركة الأرك من أعظم المعارك الإسلامية في التاريخ الأندلسي، وذلك للنتائج التي ترتب عليها وكان أهمها كسر شوكة معظم ممالك النصارى الشمالية، الذين جاءوا سراعاً طالبين الصداقة والهدنة مع أبو يوسف يعقوب الموحدين، مما أمد في عمر الأندلس وأخر سقوطها.

الناصر لدين الله ـ ابن المنصور الموحدي (595هـ - 1199م):

بعد وفاة يعقوب بن يوسف (المنصور) (595هـ-1199م) جاء ابنه الناصر لدين الله، وكان طموحاً قوياً مجاهداً([1])، واجه بني غانية في حرب مريرة، واستولى على المدن التي كانت تحت يد بن غانية، وذلك سنة (604هـ-1208م)([2])، ونتيجة لتلك الحروب التي خاضها الناصر لدين الله، قام ألفونسو الثامن بالهجوم على بلاد المسلمين، فنهب القرى وأحرق الزروع وقتل المسلمين، مستغلاً انشغال الناصر في حربه مع بني غانية([3])، وبعد أحداث مريعة تمثلت بتجهيز النصارى لأنفسهم للهجوم على المسلمين، وبقيام الناصر بأعمال كانت قاصمة للظهر، كقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس المجاهد الكبير، لقد كانت الأحداث تتجه سريعاً إلى معركة العقاب، والتي تلاقى فيها جيش المسلمين، والذي يعتبر من أكبر جيوش المسلمين في بلاد الأندلس، والذي وصل إلى 160 ألف جندي([4])، حيث خرج أمير المؤمنين من مدينة (جيان)،والتقى هو والأدفنش بموضع يعرف بالعقاب، بالقرب من حصن يدعى حصن سالم، فعبأ الأدفنش جيوشه ورتب أصحابه ودهم المسلمين، وهم على غير أهبة فانهزموا وقتل من الموحدين خلق كثير([5])، بعد المعركة عاد الخليفة الناصر إلى مراكش، وتوفي سنة(610هـ - 1213م)، غماً لما أصابه في المعركة([6]).

وكان من أسباب تلك الهزيمة، اختلاف قلوب الموحدين، حيث خرج المسلمون وهم كارهون، فمنهم من لم يسلّ سيفاً، ولم يشرع رمحاً، ولم يأخذ شيئاً من أهبة القتال، بل انهزموا من أول المعركة، وثبت أبو عبد الله في ذلك اليوم ثباتا لم ير لملك قبله، ولولا ثباته ذلك، لاستئُصلت تلك الجموع كلها قتلاً وأسراً ثم رجع إلى إشبيلية، وعبر البحر قاصداً مدينة مراكش

---

(1) المراكشي: المعجب، ص386.

(2) ابن خلدون: تاريخ، ج6، ص246.

(3) المراكشي: المعجب، ص398.

(4) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص238-239.

(5) المراكشي: المعجب، ج1، ص321.

(6) مجهول: الحلل الموشية، ص 122

وكانت هذه الهزيمة الكبرى على المسلمين يوم الإثنين منتصف صفر الكائن في سنة(609هـ-1213م)([1])، وعرفت تلك الوقعة بواقعة العقاب([2]).

كان من نتائج تلك المعركة تفكك الموحدين وخراب الإدارة في دولتهم، واستنزاف قواهم، وعدم مقدرتهم على مواجهة التوسع النصراني في الأندلس، وذلك في النصف الثاني من القرن السادس الهجري([3]).

لا بد من الوقوف أمام هزيمة العقاب ومآل ذلك الجيش، فرغم أنه من أكبر الجيوش عدداً إلا أن كثرته لم تغنِ عنه شيئا، وذلك لأن الخلاف والشقاق كان قد دب فيه، ووصل الخوَر إلى كثيرٍ من الجنود وقادتهم، لدرجة أنهم لم يشاركوا في المعركة إلا بحضورهم كمتفرجين، ولا بد لنا أيضاً من الوقوف أمام قتل المجاهد الكبير أبي الحجاج يوسف بن قادس، وكيف يفل قتل القادة العظماء في عضد الجيش، مهما بلغ عدده وعتاده، خاصة إذا ما كان القتل ظلما وجوراً.

بعد سقوط الموحدين:

جاء أبو عبد الله محمد بن هود الجذامي (المتوكل على الله) وحكم الموحدين، وكان أضعف من أن يصد خطر الأسبان، وظهر ضعفه عندما وجه إليه النصارى حربهم، فهزم أمام الأسبان في الكثير من المعارك، وتهاوت المدن الإسلامية بأيديهم، وسقطت حواضر الإسلام وعلى رأسها قرطبة([4])، واتفق ملوك النصارى فزادت قوتهم على حساب الأندلس، وقادر خايمي الأول ملك أورغون حملة سنة (626هـ-1229م) مستهدفاً جزر البليار، وفي (632هـ-1235م) هاجم يابسة، وفي سنة (648هـ - 1250م)، تمكن الإفرنج من فتح ميورقة، وطرودا المسلمين منها([5]).

بني الأحمر وسقوط غرناطة:

كون أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر (ابن الأحمر 635هـ - 1238م) قوة حفظت جزء من جنوب الأندلس، وأسس مملكة غرناطة([6])، أصبحت غرناطة حاضنة المسلمين، ولكنها لم تستطع بقوة أمراءها من بني الأحمر حماية جميع الأندلس التي كانت تحت حماية الموحدين، فسقطت مدن قرطبة وبلنسيا وإشبيلية ومجموعة من المدن والحصون([7])، وهاجم الأسبان حصن

---

(1) المراكشي: المعجب، ج1، ص322.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج43، ص39.

(3) عودات وآخرون: تاريخ المغرب والأندلس، ص132.

(4) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2، ص130.

(5) المقري: نفح الطيب، ج4، ص469.

(6) المقري: نفح الطيب، ج1، ص447.

(7) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص517.

جيان سنة (643هـ-1245م)، فقاتلهم بن الأحمر، ولكنه هزم، فذهب بن الأحمر إلى ملك قشتاله فرناندو، وأبرم معه اتفاقاً يضمن فيه احتفاظه بغرناطة مقابل جزية سنوية قدرها 50 ألف مثقال من الذهب، والتعاون في الحرب مع بعضهم، مقابل أن يتنازل بن الأحمر عن مدينة شريش ومجموعة من الحصون([1]).

توفي محمد بن الأحمر الأول سنة (671هـ-1273م)، وخلفه ابنه محمد الملقب بـ"الفقيه"، لانشغاله بطلب العلم، وبموت محمد الأول، تجرأ ألفونسو العاشر وخالف الاتفاقيات، وبدأ بالهجوم على أطراف غرناطة فاستعان محمد الفقيه بيعقوب المريني (المنصور) أمير المغرب، وكانت تلك وصية أبيه([2])، وكان نجم بني مرين قد سطع بعد الحرب التي وقعت بينهم وبين الموحدين في أواخر سنة (667هـ-1269م)، حيث التقى الخليفة الموحدي الواثق بالله مع بني مرين في وادي غفو بين مراكش وفاس، فقتل في تلك الحرب الخليفة الموحدي، ومعه خلق كثير، واستولى المرينيون على أموالهم وأسلحتهم، وتوجهوا إلى مراكش التي دخلها يعقوب المنصور بجيشه في سنة (668هـ-1270م) وتسمى بأمير المسلمين([3]).

كان يعقوب المريني قد أرسل ثلاثة ألاف مقاتل لإعانة محمد بن الأحمر الأول فاستقروا في الأندلس وردوا الهجوم عن غرناطة وكان ذلك سنة (663هـ-1265م)، وبعد أن أرسل محمد الفقيه استغاثته إلى المنصور سنة (674هـ-1276م)، فاستجاب له يعقوب المريني، والتقى جيش المسلمين خارج غرناطة مع جيش النصارى؛ الذين قادهم قائد كبير من قشتالة يدعى (دون نونيو دي لاري) لتقع الموقعة التي عرفت بالدونونية نسبةً إلى اسمه([4]).

ودارت رحى المعركة، ونصر الله عباده بعدد لم يتجاوز عشرة ألاف مقاتل، وقتل من النصارى ستة آلاف، وأسر سبعة آلاف وثمانمائة، وقتل دون نونيو قائد قشتالة، وفي سنة (677هـ-1278م) حاصر يعقوب المريني إشبيلية وصالحه أهلها على الجزية، فتوجه بعدها إلى قرطبة وحاصرها فرضخت له على الجزية أيضاً([5])، وفي نفس العام (677هـ-1278م)، طالب بن اشقيلوله من أبي يعقوب المنصور بأخذ مالقة منه، وهدده بأنه سيعطيها للإفرنج إن لم يأخذها، وذلك نكايةً في محمد الفقيه بن الأحمر، وبطبيعة الحال قبل أبو يعقوب ذلك الأمر([6])، فما كان من من محمد الفقيه إلا مراسلة ألفونسو العاشر ملك قشتالة، مستعيناً به على طرد يعقوب المريني من

---

(1) المقري: نفح الطيب، ج4، ص486.

(2) ابن خلدون: تاريخ، ج7، ص191.

(3) ابن بسام: الذخيرة، ص118.

(4) ابن بسام: الذخيرة ، ص148.

(5) ابن خلدون: تاريخ، ج7، ص196.

(6) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص45.

جزيرة طريف([1])، واستغل الفونسو العاشر الفرصة وحاصر طريف حصاراً شديداً؛ كان نتيجته أن قتل المسلمون أولادهم الصغار من معرّة الكفر، فأرسل أبو يعقوب أسطول ضخم سنة (678هـ – 1279م)، وحشد الناس للجهاد، فاشترك فيه أهل سبتة من بلغ فيه الحلم فما فوقه، وصدقت عزائم المسلمون على الموت، ونصرهم الله على الفونسو ومن معه([2]).

يلاحظ في تلك المعارك الدور الذي قامت به دولة بن مرين من خلال القائد أبو يعقوب، حيث حفظت غرناطة من الضياع، باذلة ما تستطيع من أجل ذلك، كما يلاحظ ذلك السلوك المشين الذي سلكه محمد الفقيه عندما استعان بالنصارى على المسلمين، والأندلس في أشد اللحظات حرجاً، وهي على وجه الخراب والضياع.

بعد تلك الحادثة ثار سانشوا بن ألفونسو العاشر على أبيه، فلجأ ألفونسو إلى المنصور المريني، فاستغل المنصور تلك الفرصة ليضرب النصارى بعضهم ببعض وعاون الفونسو، فصالحه النصارى وعقدوا معه عقداً للهدنة والموادعة، وبعد وفاة الفونسو طلب المنصور من سانشو بن الفونسو كتباً أخذوها من المسلمين فأرسل له ثلاثة عشر حِملاً([3]).

ظلت غرناطة عصية على الانهيار حتى عام (897هـ – 1492م)، حيث ذكر الحجي السر في ذلك فقال: لأن ما ضمته مملكة غرناطة كان أبعد مكاناً عن الوقوع في يد عدو الأندلس، من باقي الممالك المجاورة للنصارى، وكذلك الموقع الجغرافي، حيث العدو من الشمال والبحر من الجنوب، مما جعل قناة اتصال مفتوحة بين الأندلس والمسلمين في المغرب، الذين لم يتأخروا عن نصرتها، وكذلك لجوء المسلمون إليها بعدما سقطت حواضرهم، مما مدها بطاقات ومهارات وكفايات عالية من الرجال والنساء، والسبب الأهم من آنفات الذكر؛ هو ذلك المقدار الذي بقي من الإلتزام بالإسلام، والذي وهب تلك المعاني معنى حي، وحياة حقيقية، وجمع الطاقات ودفعها للصمود والإستعداد للبذل([4]).

سقوط غرناطة:

سقطت غرناطة بعد حصار شديد انتهى بتسليمها، ليسقط أخر حصن إسلامي في شبه الجزيرة الأندلسية، وكان الإستيلاء عليها في محرم عام (897هـ–تشرين الثاني1491م)([5])، وذلك

---

(1) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص289.

(2) ابن خلدون: تاريخ، ج7، ص202.

(3) ابن خلدون: تاريخ، ج7، ص211.

(4) التاريخ الأندلسي، ص519–522.

(5) المقري: نفح الطيب، ج6، ص22.

وذلك بعد معاهدة التسليم التي جرت بين حاكم غرناطة المتخاذل أبو عبد الله محمد بن الأحمر الصغير، وبين ملكي قشتالة فرناندو وايزابيلا([1]).

لقد أُنهكت قوى غرناطة، مما جعل دفع الخطر عنها صعباً وشاقاً، ويبدو أن العدو نال منها كثيراً، وفي اللحظة التي كانت تستنزف قواها في نزاعاتها الداخلية، ذهبت إلى مصيرها المأسوف([2])، وهذه سُنَة الله في خلقه قال تعالى "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم"([3]).

يلاحظ بأن أي باحث لا يمكنه التقيد بالبحث العلمي، وهو يتحدث عن سقوط حاضرة من أعظم حواضر الإسلام، وعن دولة من أكثر دول الأرض إشراقاً على الناس، فالعين دامعةٌ والقلب منفطراً واللسان ملعثم، فكيف بمسلم أن ينعي جزءاً من تاريخ مجيد، اختلطت فيه العقيدة بقلوب الرجال، واختلط فيه الجهاد وحب الله مع حب الناس، وتقديم الخير لهم بنشر دولة الإسلام السمحة، وكيف يمكن لباحثٍ أن ينعى ما بناه عظماء الإسلام موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد الرحمن الداخل والناصر وابن تاشفين، وآلاف مؤلفة من المجاهدين الأوفياء الذين حركهم القرآن، ورفع هممهم أحاديث النبي ﷺ، وآنسهم في طريقهم قصص فرسان الصحابة، فياليت شعري أي قلب يمتلك الحديث عن ذلك، وأي قلم يتجرأ ليكتب خاتمة مجد تليد، إن العوامل السابق ذكرها والتي أدت لسقوط الأندلس؛ لم يكن تأثيرها على ذهاب دولة الاسلام في الأندلس فقط – ورغم أهمية ذلك الغياب–، إلا أنه يمكن تجاوزه بإعادة المسلمون لدولة الاسلام من جديد، إذا ما بقوا على تلك الأرض، ولكن أخطر من ذهاب دولة الاسلام في الأندلس، هو ذهاب العنصر المسلم، والفرد المؤمن بالله، والذي كان زواله بحملة تطهير ديني شاملة، شملت شبه الجزيرة، وكانت على إثر قيام (محاكم التفتيش) التي لها الدور الأساس في القضاء على المسلمين، إما بالقتل أو التهجير أو التنصير، وهكذا اجتمع في بلاد الأندلس ما لم يجتمع في أيٍ من بلاد المسلمين، التي نكب فيها الإسلام؛ فاجتمع في الاندلس غياب النظام السياسي الاسلامي (الدولة) وغياب الفرد المسلم معاً.

---

(1) مجهول: نبذة العصر، ص125؛ المقري: نفح الطب، ج4، ص525.

(2) الحجي: التاريخ الأندلسي، 516.

(3) سورة الأنفال: أية 46.

المبحث الثالث

محاكم التفتيش وأثرها على الوجود الإسلامي

لقد كانت محاكم التفتيش من أكثر صفحات التاريخ سواداً، لما سجلته من فظائع وجرائم ارتكبت بحق الإنسانية، وتفتقت فيها عقلية الشر، لتبتكر أشكال تعذيب لم تخطر على بال أحد، وذلك من أجل تدمير الإسلام وحضارته، والقضاء على المسلمين في الأندلس.

تعايش المسلم والإسباني زمنا طويلاً، وكل واحد سيداً في أرضه، وفي الثاني من كانون ثاني (897هـ-1492م)، دخل الملكين الكاثوليكيين غرناطة فأصبح المسلم مهزوماً في أي مكان يكون فيه في أسبانيا، وبدأ ضغط وقهر المتنصرين يشتد يوما بعد يوم، حتى وصل التفكير بإنهاء وجود الأقلية، وإنهاء الوجود الإسلامي، وانتهت يوماً بعد يوم النصوص القانونية التي عكست بتسامحها ميراث المعايشة السلمية والإحترام المتبادل، كما فرضت ضرائب جديدة على المسلمين بين عامي(900هـ-1495م/904هـ-1499م)([1]).

أسباب نشأة محاكم التفتيش:

يقول المؤرخ ليا:"إن أهم الأسباب التي دعت إلى قيام محاكم التفتيش في أسبانيا عدم وجود دين موحد، إلا أن هذا السبب لم يكن كافيا لقيام تلك المحاكم، التي شملت طبقات المجتمع الأسباني بمختلف أديانه، فيما يرى آخرون أن السبب هو الحصول على مكاسب مادية من طريق مصادرة أموال الضحايا المتهمين، وهذا ما يفسر أن ضحايا التفتيش كان معظمهم أغنياء([2]).

تعود محاكم التفتيش في نشأتها إلى أوائل القرن الثالث عشر للميلاد، وكان الهدف من ورائها الرقابة على العقيدة النصرانية، والتحقق من سلامتها بين أتباعها، وعهد بها إلى الرهبان، ولكن مهام محاكم التفتيش اتسعت في أوائل القرن الخامس عشر لتشمل اليهود ومن ثم المسلمين([3]).

وفي مبرر إنشاء محاكم التفتيش ذكر المؤرخ الفرنسي (فكتورد روي) في تاريخه، أنه كان في الجزيرة أخلاطا من المسلمين والنصارى، واليهود فأراد فرديناند توحيد الهيئة بوحدة الإعتقاد، وذلك تعزيزاً للدولة، فأنشأ ديوان التفتيش (محكمة التفتيش) وكان الملك هو الذي يعين الرئيس والمفتش الكبير([4]).

---

(1) دومينفير: الموريسكيون- حياة ومأساة أمة، ص20.

(2) السيد: محاكم التفتيش، ص234.

(3) كحيلة: الدواني في التاريخ الأسباني، ص144.

(4) ارسلان: خاتمة تاريخ العرب في الأندلس، ص221.

طبيعة محاكم التفتيش:

اعتبرت محاكم التفتيش ذراعا للسلطة باسم الدين، ضربت القوة المناوءة للحكومة، وصادرت أملاك وأراضي المناوئين لصالح الدولة، وكانت تسجن من ينتقد السلطة، ووصل الأمر حد تقديمهم للتحقيق والتعذيب، ثم عرضهم على السلطات المدنية لتقضي بإحراقهم ومصادرة أموالهم من حقوقهم([1])، وكان من وحشية محاكم التفتيش أن المسلمين الذين تنصروا في العلن وأبطنوا الإسلام فتشوا عنهم ثم قاموا بحرقهم أحياء([2]).

وكانت محاكم التفتيش تأخذ من تبدو عليه أي صلة بالإسلام، أو يضبط متلبسا يؤدي الشعائر، أو يترسم عادة من العادات الإسلامية، أو يحمل شارة من شاراته، حتى الملابس والاغتسال اعتبرت دليلا عليه، لذلك تنصر بعض المسلمين ظاهريا، وأبطنوا الإسلام وسموا بالموريسكيين (Clos Moriscos) المسلمون الصغار([3]).

ولقد وضع ألفونسوا مانريك المفتش العام الخامس لديوان محكمة التفتيش الأسبانية قائمة بالقضايا التي سيعاقب عليها من يفعلها وهي كالتالي:

كل من يقول: بأن الدين المحمدي أفضل، وأنه من خلاله نصل للجنَة، أو من قال: أن المسيح نبيا وليس إلاهاً، أو من ذبح الدواجن والحيوانات قاطعا عنقها بالسكين، أو رفض أكل مذبوحات النساء، أو ختنوا أولادهم، أو حلفوا بالقرآن، أو صاموا رمضان وتسحروا، أو توضؤوا وصلوا إلى القبلة، أو إذا احتفلوا بعيد الأضحى والفطر، أو غنوا أغاني عربية، أو غسلوا موتاهم قبل الدفن([4]).

ومن العقوبات التي كانت معتمدة في محاكم التفتيش، السجن المؤبد المصحوب بالتعذيب الشديد، أو الإعدام حرقا، أو التهجير، ومصادرة الأموال والممتلكات، إن تلك العقوبات كانت تنزل على من يشك في إيمانه، وغالبا ما يدانون، وكان المحكومون بالإعدام يساقون في مواكب تعرف بـ(رسوم الإيمان)، وكانت الجماهير تتسلى بتلك المواكب التي يعشقها فرناندو الكاثوليكي([5]).

وفي الأصول التاريخية لمحاكم التفتيش نقف على عهد مارتن ملك أرغونة (797هـ-1395م/813هـ1410م) حيث صدرت قوانين تحد من حركة المدجنين، وتمنعهم من إظهار شعائرهم، كمنع الآذان، ومنعهم من استقلالهم القضائي، وإجبارهم على المثول أمام القضاة الملكيين، فيما قام خوان الثاني ملك قشتالة (808هـ-858/1406هـ-1454م)، بإلزام المدجنين

---

(1) بشتاوي: الأندلسيين الموراكة، ص215.

(2) الناصري: الإستقصا، ج4، ص107.

(3) الحجي: التاريخ الإسلامي، ص569.

(4) عبد المنعم: محاكم التفتيش، ص241.

(5) كحيلة: الدواني في التاريخ الأسباني، ص144

بارتداء قلنسوة صفراء، ووضع شارة زرقاء على الكتف الأيمن، ومنعهم من تقلد وظائف عامة، أو اشتغالهم بالتجارة ومهن غيرها([1]).

وكذلك نظرت الدولة الأسبانية للمسلمين الذين يشكلون 20% على أنهم الأوفر حضارة والأكثر مدنية، فيما نظرت لهم الكنيسة ككفار يجب تنصيرهم، أو قتلهم واسترقاقهم ونفيهم، وقد إنصاعت الدولة لقرارات الكنيسة في عام(904-1499م)، حيث استدعى فرناندو الكردينال خيمينيث دي ثيسنوروس مطران طليطلة (ت 923هـ-1517م) إلى غرناطة، فجمع فقهاء وأعيان المدينة وأغدق عليهم، ثم صعَّد إجراءات التنصير، فحول المساجد إلى كنائس، وحرق ألوف كتب المسلمين، واستثنى 300 كتاب في الطب([2]).

شروط تسليم غرناطة 894هـ وبداية محاكم التفتيش:

كانت شروط تسليم غرناطة تنص على أن صاحب روما يوافق على الالتزام والوفاء بالشروط، إذا مكّنوه من قصر الحمراء في غرناطة ومن المعاقل والحصون، ويقوم على عادة النصارى في العهود (عدم النكث في العهد)، وقام النصارى بإعطاء مال جزيل لرؤوس أجناد المسلمين، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط، قرأت على أهل غرناطة، فانقادوا إليها ووافقوا عليها، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة فقبلها منهم، ونزل سلطان غرناطة قصر الحمراء، وفي (2 ربيع الأول 897هـ-1492م)، استولى النصارى على الحمراء بعد أخذ خمسمائة من أعيان غرناطة رهناً خوفاً من غدر المسلمين، وكانت الشروط 67 شرطا كان منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم، وإقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت، والأوقاف كذلك، وألا يدخل النصارى دار مسلم، ولا يُغصب أحدٌ، وألا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي؛ مما يتولى عليهم من قبل سلطانه؛ وأن يفك جميع الأسرى في غرناطة؛ من حيث كانوا وخصوصا أعيانهم، ومن هرب من الأسرى ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، وألا يقهر من أسلم على النصرانية، ومن تنصر يقف بين حاكم من المسلمين وآخر نصراني، فإن رفض الرجوع للإسلام بقي على نصرانيته، ولا يلاحق من قتل نصرانيا في الحرب، وأخيرا يوافق على كل الشروط صاحب روما، ويوقع على تلك الشروط (3).

ومن ضمن شروط أهل غرناطة على ملك قشتالة (فرناندو) أن يؤمنهم على جنَاتهم، ومحاريثهم وجميع ما بأيديهم، ولا يغرمون إلا الزكاة والعشر لمن أراد الإقامة ببلدة غرناطة، ومن

---

(1) كحيلة: الدواني في التاريخ الأسباني، ص216.

(2) كحيلة: الدواني في التاريخ الأسباني، ص143.

(3)المقري: نفح الطيب، ج4، ص525؛ الناصري: الإستقصا، ج4، ص104.

أراد الخروج منها يبيع أصله بما يرضاه من الثمن لمن يريد من المسلمين والنصارى، من غير غُبن، ومن أراد العبور لبلاد العدوة بالغرب يبيع أصله ويحمل أمتعته، في مراكبه إلى أي أرض أراد من بلاد المسلمين من غير كراء ولا شيء يلزمه، ومن أراد الإقامة بغرناطة من المسلمين فله الأمان على نحو ما ذكر، وقد كتب لهم ملك الروم بذلك كتابا، وأخذوا عليه عهوداً ومواثيق مغلظة، على أن يوفي لهم بجميع ما شرطوه عليه([1]).

إن شروط تسليم غرناطة آنفة الذكر لن يتم مراعاتها، حيث أن النصارى نقضوا الشروط عروة عروة، إلى أن آل الحال بحملهم المسلمين على التنصير سنة (904هـ-1499م)، بعد أمور وأسباب أعظمها أنهم قالوا:"إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجع نصرانيا"([2]).

ومن الملاحظ أيضا أن الشروط لم تعطى للمسلمين إلا إغراء لهم، وتعجيلا بالاستسلام ولتجنب مقاومة قد تكلفهم كثيراً، وجرى ذلك رغم تأكيدات البابوية والملكية القشتالية وسلطاتها المدنية للوفاء بشروط معاهدة تسليم غرناطة([3]).

سُلمت غرناطة بعد تلك المعاهدة نصت على أن يبقى المسلمون في أماكنهم([4])، ولكن تلك الإتفاقية التي وقعت لم يتم مراعاتها ولا العمل بمقتضاها بل كانت معاهدة تسليم غرناطة، سقوطا مدوياً وبداية النهاية لشعب قُضي عليه تدريجيا، بإعلان الحرب على مقدساته ولغاته وحضارته ودينه وتراثه، وتم تبني كل القوانين والقرارات الدينية والوضعية والإدارية، لتسهيل مهام آلاف الموظفين الإداريين والمخبرين والعسكريين، عبر خمسة أجيال قادمة للإشراف بطريقة جهنمية على القضاء نهائيا على الشعب المسلم، واجتثاثه تماما من أندلسيته التي منحها أفضل القيم والمبادئ والإنجازات الحضارية الكبرى([5]).

انتشار التفتيش:

في عام (893هـ-1488م) بدأ نشاط محكمة التفتيش في برشلونة، وفي عام (897هـ- 1492م) تأسست محكمة التفتيش في قشتالة، وفي أبلة وقرطبة وجيان وسيقوبيا وطليطلة، وبلد الوليد، وبلغ عدد محاكم التفتيش خمسة عشر في نهاية القرن الخامس عشر، ومع

---

(1) أندلسي معاصر: نبذة العصر، ج1، ص124.

(2) المقري: نفح الطيب، ج4، ص525؛ الناصري: الإستقصا، ج4، ص105.

(3) الحجي: التاريخ الإسلامي، ص569.

(4) السيد: محاكم التفتيش الأسبانية، ص299.

(5) التميمي: تأملات جديدة، ص299.

اتساعها أنشأ لها (المجلس الأعلى لمحاكم التفتيش) والذي يخضع مباشرة للملك وترأسه (توماس دي توركيميدا)([1])، وقد مرت محاكم التفتيش أو تعذيب المسلمين في ثلاث مراحل:

أولاً: منذ تسليم غرناطة (897هـ-1492م/904هـ-1499م)، وتولى فيها هنرنادو دي طالبيرا قضية الموريسكيين واتبع سياسة التسامح واللين.

ثانياً: من (904هـ-906/1499هـ-1501م) كلف فيها الكردنال فيسينيروس بتصفية القضية الموريسكية فعمد استخدام العصا الغليظة وفرض التنصير.

ثالثاً: من (906هـ-1501م) حتى القرن السابع عشر، وتميزت ببروز دور محاكم التفتيش في طمس كل معالم الحضارة العربية والإسلامية، وتحويل المساجد إلى كنائس، وتهجير الموريسكيين، كما شهدت غرناطة أشهر عملية حرق في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، ولم ينجو سوى بعض كتب الطب التي نقلت لجامعة الكالا دي إينارس([2]).

قرارات فرناندو وإيزابيلا لاضطهاد المسلمين:

وفي مجال جرائم محاكم التفتيش، وفيما يتعلق بالتنصير فقد لاحقت محاكم التفتيش كل ما هو إسلامي، إلا أن الموريسكيين مارسوا دينهم سراً، فرأى الملكين إزابيلا وفرناندو أن يستمر بالتنصير والطرد النهائي للموريسكيين، فكانت بداية عمليات التنصير عام (904هـ-1499)(م)، ووصلت ذروتها عام (907هـ-1502 م) بعد إصدار مرسوم ملكي يعلن عن ضرورة اعتناق جميع الموريسكيين النصرانية، أو الرحيل وأعطوا ثلاثة شهور للتنفيذ، وبموجب ذلك القانون سيرحل كل الذكور الذين لم يتجاوز سنهم الرابع عشر والإناث اللاتي يزيد عمرهن عن 12 سنة إلا إذا تنصروا، وقد سمح المرسوم ببيع الأملاك شرط ألا يخرجوا الذهب والفضة معهم([3]).

جاء كارلوس الخامس حفيد فرناندو (925هـ-1519م/963هـ-1556م) وكان تحت وصاية الكاردينال فيسنيروس، فأصدر سنة (930هـ، 1524م) مرسوما يحتم تنصير المسلمين أو النفي أو الاسترقاق، وإعدام كل مسيحي يترك دين آباءه ويسلم ثم تحويل ما بقي من المساجد إلى الكنائس، أما في عهد فيليب (963هـ-1556م/1006هـ-1598م) وصلت سياسة التنصير إلى ذروتها والتي مارستها محاكم التفتيش، ففي (19 جمادي الآخرة 974هـ، يناير 1567م) ذكرى تسليم غرناطة والذي أصبح عيدا في أسبانيا، أصدر الملك مرسوما يحظر على الموريسكيين حمل السلاح والتحدث بالعربية، وارتداء الملابس العربية والتسمي بأسماء عربية، ومنع الحجاب، وأمر بهدم الحمامات العامة والخاصة، ومراقبة المورسكيين أيام الجمعة والأعياد الإسلامية ومن يخالف

(1) السيد: محاكم التفتيش، ص234.

(2) السيد: محاكم التفتيش، ص240.

(3) السيد: محاكم التفتيش، ص239؛ بشتاوي: الأندلسيون المواركة، ص117.

يعدم([1]). ويُذكر أن فرناندو كان يجنح في سياسته للغدر، فيما زوجته إيزابيلا تجيش بنزعة دينية متطرفة بتأثير أحبار متعصبين، وترتكب أبشع المجازر باسم المسيحية([2]).

في (20 يوليو 1501م، 4 محرم سنة 907هـ) صدر قرار بمنع المسلمين في مملكة غرناطة أن يتصلوا بغيرهم خشية أن يتأخر تنصيرهم، ويحذر عليهم الاتصال بمن تنصروا حتى لا يفسد عليهم إيمانهم بمخالطتهم، ومن يخالف يقتل ويصادر أملاكه، ويجوز للخارجين التصرف بأموالهم ويحذر عليهم الخروج لأفريقيا، والتي كانت في حرب مع أسبانيا ومن يخالف يقتل ويصادر أملاكه، في (12 سبتمبر 1502م، 19 ربيع الأول 909هـ)، حظر على الناس التصرف في املاكهم قبل مضي عامين على تنصيرهم، ويحظر عليهم مغادرة قشتالة إلى الأرغون والبرتغال([3]).

قام الملك فيليب الثاني بتعذيب من لا يدين بالكاثوليكية، وهدف من وراء ذلك إلى الوحدة الدينية حسب التعاليم الكاثوليكية، وفيما يتعلق بمسلمي الأندلس فقد اتبع سياسة التنصير والتهجير، واتخذ لذلك سلسلة إجراءات أهمها فرمان يحرم على المسلمين امتلاك الخدم والرقيق، وعدم استخدام الأسلحة النارية ومصادرة سلاح الموريسكيين، وكان ذلك عام (967هـ-1560م)، وقد أصدر قرار بأن يسلم الموريسكيون أسلحتهم وترخيصها في مدة 50 يوم وذلك عام (970هـ- 1563م)، وألغى حصانة المقيمين بأراضي النبلاء، وإغلاق (المعابد) في وجه الموريسكيين، وألا حصانة للكنائس والأديرة إلا ثلاثة أيام، وهنا زادت نقمة محاكم التفتيش وبدأوا البحث عن القضايا القديمة التي سبق أن حوكم عليها أصحابها وإعادة محاكمتهم([4]).

محاكم التفتيش وتدمير المساجد:

استأذن أسقف قرطبة إمبراطور أسبانيا شارلكان (شارل الخامس) سنة (928هـ-1524م) في إقامة هيكل قوطي كبير وسط مسجد قرطبة الجامع، فأذن له واستدعى الأمر – بسبب قبته العالية- إزالة السقف الأندلسي، ثم زار شارلكان مسجد قرطبة، وندم على موافقته للتشويه الذي أصاب المسجد، وكان مما قال:"لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بنائه في أي مكان آخر، وقضيتم بذلك على ما كان أثرا وحيدا في العالم([5]).

---

(1) كحيلة: الدواني في التاريخ الأسباني، ص143.

(2) ذنون: آفاق غرناطة، ص45.

(3) قطب: مذابح وجرائم محاكم التفتيش، ص46.

(4) حتامله: التهجير القصري لمسلمي الأندلس، ص22-23.

(5) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص534.

مواجهة محاكم التفتيش:

إن ذكر اسم محاكم التفتيش كان يبعث على التعوذ بالله والاستنجاد بالملائكة، ورغم كل ممارسات محاكم التفتيش داخل قشتالة وخارجها، إلا أن عمال المحاكم فشلوا في تحقيق هدفهم المتمثل بإعلاء الكاثوليكية والقضاء على جميع المذاهب الدينية الأخرى([1]).

لم يستسلم المسلمون أمام تطرف محاكم التفتيش وجرائمها، بل واجهوا تلك المحاكم، وبعد زوال سلطان الإسلام السياسي من أسبانيا لم تنتهي المأساة، وحاولت سلطات أسبانيا النصرانية إفناء الوجود الإسلامي، وثماره الفكرية والحضارية، من خلال إفناء الأفراد والعقيدة، وإلغاء كل ما يتصل بذلك، ولكن المسلمون ظلوا يقاومون ما يزيد عن القرن، دفاعا عن عقيدتهم المتمثلة في وجودهم([2])، وفي (904هـ- 1499م)، ثار مسلمو غرناطة (مدجنو البايزين) ضد عملية التنصير الإجباري التي مارسها الكاردنال سيثنيروس، ولا يعرف هل كانت حملة موجهة إلى النصارى أو إلى أبنائهم الذين أسلموا لردهم عن دينهم الجديد، أم كانت ضد المسلين كافة([3]).

وفيما يتعلق بأهل البايزين فقد قاموا على الحكام فحاولوا تنصيرهم لأن من قام ضد الحاكم فليس له إلا الموت، أو التنصير، وبالجملة تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة، وامتنع قوم من التنصر، واعتزلوا وامتنعوا في قرى وأماكن مثل بفليق وأندرش، فجمع لهم العدو واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا([4]).

ولكن الله من على المسلمين وأعانهم على عدوهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، مات فيها صاحب قرطبة، وذلك بعد أكثر من ثلاثة وعشرين معركة، ولما علموا بأنه لا طاقة لهم بالمسلمين أعطوهم الأمان ليذهبوا على عدوة المغرب، فوافق المسلمون على ذلك، وكان الشرط عليهم أن لا يخرجوا بشيء من متاعهم إلا الثياب التي عليهم([5]).

ثورة الموريسكيين في البشرات:

ظلت ثورة الموريسكيين حتى عام (973هـ-1566م)، فبعد اقتناع الموريسكيون أنه لم يعد ينقذهم سوى سلاحهم، والتوكل على الله، توجه الكثير منهم إلى البشرات، واعتصموا بها، وكانت المحاكم العسكرية والمدنية والكنسية تعتبر الموريسكي مذنبا، وتحكم عليه بالإشتراك في الحرب ضد إخوانه، مما أتاح للموريسكيين الإنضمام للثوار، وأصبحوا يدخلوا غرناطة وحي البيازين، ويخطفوا المسيحيات وأطفالهم ليفادوهم بأسرى المسلمين، وإنقاذهم من ويلات محاكم التفتيش، ثم

---

(1) بشتاوي: الأندلسيين المواركة، ص215.

(2) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص568.

(3) هورتز، أنطونيو؛ بنثنت، برنارد: المورسكيون حياة ومأساة أقلية، ص22.

(4) الناصري: الإستقصا، ج4، ص106.

(5) المقري: نفح الطيب، ج4، ص524؛ مؤلف أندلسي معاصر: نبذة العصر، ج1، ص123.

حرم النصارى من الخروج ليلا لشوارع غرناطة، ومن التنزه في غوطتها منفردين، ثم شكلت جماعات مسيحية هدفها قنص الموريسكيين، وعند شروق الشمس على غرناطة كانت تتنثر الجثث في شوارعها بفعل الثوار الموريسكيين([1]).

أثر محاكم التفتيش:

لولا الإنتصار الوحشي على المسلمين في بواتييه لظلت أسبانيا تنعم بسماحة الإسلام، ولنجت من وصمة محاكم التفتيش، ولما تأخر سير المدينة ثمانية قرون، ونحن نعترف بأن المسلمون كانوا مثال الكمال البشري في الوقت الذي كنا فيه مثال الهمجية([2])، ومن الآثار الوخيمة لمحاكم التنفتيش ما دعا إليه ملك الروم سنة (904هـ-1499م)، المسلمين للتنصير، وأكرههم عليه فدخلوا في دينه كرهاً، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبقى من يقول فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله جهراً، إلا من يقولها في نفسه وفي قلبه أو خفية من الناس، وجعلت النواقيص في صوامعها بعد الآذان وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله والقرآن([3]).

ومن آثار محاكم التفتيش تمكن فرديناند وزوجته إيزابيلا إزالة ملك بني الأحمر بالتنصير والإحراق، وضياع خمسة عشر مليون مسلم([4]).

ومن آثارها التي وقعت أيام محمد بن علي بن نصر الخزرجي، المبايعة في غرناطة في ذي القعدة عام 892هـ، قيام النصرانية في جميع مدائن الأندلس ونهب أموال المسلمين وأسر وتنصير من بقي([5]).

ومن تلك الآثار التضييق على الموريسكيين وملاحقتهم في قراهم ومدنهم، وبث العيون في العائلة الواحدة نفسها لتفكيكها، والقضاء على الهوية واللغة والدين؛ بتغيير أسماء وعادات المسلمين، ثم حرق مئات الآلاف من كتبهم في الساحات العامة، ومنذ عام (957هـ-1550م) أغلقت المدارس والمعاهد والمكاتب، ومنع من اقتناء الكتب العربية وتعلمها، ثم فرض تعلم لغة القشتاليين خلال ثلاثة سنوات، وكان الإنهاك الإقتصادي من خلال الضرائب الباهظة، وعدم استيطان الموانئ لقطع الصلة بين المسلمين وبين أبناء المغرب العربي، كما أدت المحاكم إلى الإيقاع بالمسلمين في السجون لمدى الحياة لكثير منهم، ثم القيام بعشرات الانتفاضات والثورات التي هزت المجتمع في القرن السادس عشر، كرد على جرائم محاكم التفتيش وأهمها ثورة البشرات

---

(1) عبده: التهجير القصري لمسلمي الأندلس ص27.

(2) لوبون، غوستاف: حضارة العرب، ص720؛ الكناني: الحيدا والاعتذار، ج1، ص35.

(3) مؤلف أندلسي معاصر: نبذة العصر، ج1، ص131.

(4) الكواكبي: أم القرى، ج1، ص230.

(5) مؤلف أندلسي معاصر: نبذة العصر، ج1، ص134.

سنة (975هـ-1568م) التي استمرت لمدة سنتين، وسبق الحديث عنها، وأجهضت بعد استنفاذ طاقتهم العسكرية والبشرية([1]).

يرى الباحث بأن محاكم التفتيش التي شكلت ضد المسلمين، تعتبر من أسود صفحات التاريخ الإنساني، حيث مورس من خلالها كل أشكال العنف والإرهاب والترويع والقتل، والخروج على قيم الديانات السماوية، وعلى قيم القوانين الوضعية، واتضح من خلالها جلياً قلوب أولئك الأوروبيين التي شحنت بعقيدة فاسدة – نسبت ظلما إلى المسيح عليه السلام – فأزالت بناءً حضارياً كان هو الأعظم في تاريخ أوربا، وأصبحت محاكم التفتيش وصمة عار في وجه من أشرف عليها تقريراً وتنفيذاً، ويلاحظ أيضاً بأن الإبتعاد عن شرع الله عزوجل، واستعار الفتن الداخلية، وعدم اتباع قوانين صعود وهبوط الحضارات، ومراعاتها أدى إلى تلك النتيجة المريعة، والتي لا يتحملها قلب أي إنسان سماعاً، فما بال من عانى ويلاتها.

---

(1) التميمي: تأملات جديدة، ص303.

النتائج

بعد ما من الله علي بإنهاء هذه الرسالة، توصلت إلى مجموعة نتائج، أسأل الله أن يكون فيها الخير لي وللمسلمين، وأهم تلك النتائج:

- أن الله عز وجل لا يحابي أحداً من عباده وخلقه، حتى لو كانوا مسملين، وحادوا عن الجادة سيجري عليهم ما يجري على غيرهم.
- تماهت وتطابقت أية الله في كتابه "وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا"، فهذه الأية انطبقت مع واقع الحال في الأندلس.
- دمار الحضارات في جزء كبير منه يأتي من داخل الحضارة نفسها، وبعض العوامل الخارجية تكن مساعدة أحياناً في ذلك الدمار، وقد أظهرت الدراسة أن أربعة عوامل من أصل خمسة تتعلقت بالعوامل الداخلية التي أودت بالمسلمين ودولتهم في الاندلس.
- في الأندلس كان انحراف الناس عن الدين، ومحالفة الحكام للأعداء، وانتشار الفساد بين الخاصة والعامة أسباباً أساسية في سقوط الأندلس.
- العلماء هم ورثة الأنبياء لهم في تراثنا الإسلامي التبجيل والتقدير، فإن أهينوا وأذلوا، أذل الله ظالميهم بزوال ملكهم، وذلك ما وضح جلياً في تاريخ طائفة ليست بالقليلة من علماءالاسلام الذين قتل بعضهم وعذب وطورد بعضهم الاخر ولوحقت كتابات طائفة ثالثة منهم.
- التاريخ لم يجامل أحداً من العلماء الذين سكتوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وداهنوا للحكام الظالمين، حيث ذكر التاريخ الاندلس بعض العلماء الذين وقفوا في وجه الحكام وكتب عنهم بأحرف من نور، فيما كان التبكيت والقدح لمن داهن الحكام.
- لقد ابتعد حكام الاندلس كثيراً عن طاعة الله واقترفوا المعاصي والتي وضحت من خلال البحث، فكان انتصار العدو عليهم أكيداً وذلك لبعدهم وتنكبهم لطريق الحق.
- أصاب الاذلال والصغار بعض حكام الاندلس وتمثل ذلك في قلب الموازين حيث دفع المسلمون الجزية للكافرين عن يدٍ وهم صاغرين وذلك بعد أن أتبعوا نفوسهم هواها.
- تولية غير المسلمين، وتوسيد الأمر إلى غير أهله، اعتبر عاملاً مهماً من عوامل سقوط الأندلس.
- الترف وإهدار المال الذي هو عماد الحياة كانت سمة مميزة للحكم الأندلسي، وعاملاً من عوامل الهدم.
- سيطرة الجواري على عقول وقلوب الحكام والعامة، كان لها أثراً سلبياً على المجتمع الأندلسي والدولة.

- من المفترض ألا يتم الإستهتار بقوة العدو مهما كانت ضعيفة، لأنها ستقوى يوماً وقد تؤدي إلى دمار الحكم كما في الأندلس.
- إن الإستهتار بدماء المسلمين عاقبته وخيمة في الدنيا والأخرة، وقد كان ذلك الإستهتار واضحاً في الأندلس، حيث مئات القتلى راحوا ضحية الإقتتال بين الأمراء.
- لقد كان منازعة الأمر أهله، والصراع على السلطة، كفيلٌ بأن يدمر أعرق الحضارات.

التوصيات

من خلال دراسة الباحث لعوامل سقوط الأندلس، يمكن الخروج بعدة توصيات لا غنى لنا عنها تتمثل بالأمور التالية:

1- لا بد من تعميم دراسة عوامل السقوط على من نستطيع من عامة المسملين، لتجنب تلك العوامل في حياتهم الشخصية، ومن ثم تعميم عوامل سقوط الأندلس ودراستها على الخاصة، ليمثلوا شبكة أمان للمجتمع حتى لا يقع في تلك العوامل.

2- دراسة أثر الصراع الإسلامي الإسلامي على دمار الأندلس، وضرورة تجنب الصراعات التي تجري في زماننا اليوم.

3- لا بد من تسليط الضوء على تولية غير المسلمين، وكذلك غير الأكفاء من المسلمين لأمر المسلمين لأن في هذا خراب الحضارات.

4- ونحن نبحث عوامل السقوط في الأندلس، لا بد أن تكن هناك دراسات تتناول الجوانب المشرقة في الأندلس حتى لا يشعر المسلم بالإحباط، خاصة وأن تاريخ الأندلس المجيد امتد إلى ثمانية قرون تقريباً، كان فيها الخير والعدل والسلامة والعلم والحضارة والمدنية، التي أشرقت على أوروبا، فحولت ليلها إلى نهار.

5- لا بد من تعميم دراسة التاريخ الإسلامي، وحضاراته لبعث الأمل والعزة في نفوس أبناء المسلمين، ليعيدوا ذلك المجد التليد ويخرجوا من وهلة الذل والإنكسار التي تحياه الأمة اليوم.

6- عدم اقتصار دارسة التاريخ للمتخصصين وطلاب البحث العملي فقط، بل يجب أن يفسح المجال أمام المثقفين من غير الاختصاص ليغوصوا في ذلك البحر، ويتعرفوا على درره الكاملة.

المصـــادر والمراجــع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر العربية:

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، (ت:658هـ=1259م).

1- التكملة لكتاب الصلة، جزءان، عني بنشره عزت العطار الحسيني، (مصر، مطبعة السعادة، ط1، 1956م).

2- الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، ط 2، 1985م

ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني أبو الحسن (ت630هـ):

3- الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415ه، ط2، تح: عبد الله القاضي.

4- اللباب في تهذيب الأسباب، دار صادر-بيروت، 2010م.

5- التكملة لكتاب الصلة، تحقيق :عبد السلام الهراس، لبنان، دار الفكر للطباعة، 1415ه = 1995م.

ابن الأزرق، أبو عبد الله (ت:896هـ = 1491م)

1- بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق: علي سالم النشار، العراق، وزارة الإعلام، ط1.

الأزهري، أبي منصور محمد بن أحمد الهراوي، (282-370هـ)،

6- تهذيب اللغة، ترجمة وتحقيق أحمد بن عبد الرحمن مخيمر، دار الكتب العلمية.

أبي الأصبغ، عيسى بن سهل الأندلسي، (ت:486هـ = 1093م):

7- ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ، دراسة وتحقيق: محمد عبد الوهاب خلاف، مراجعة وتقديم: محمود علي مكي، مصطفى كامل إسماعيل، القاهرة، المركز العربي الدولي للإعلام، ط 11981.

الأصفهاني، العماد، أبو عبد الله محمد بن محمد، (ت: 597هـ=1200م)،

8- خريدة القصر وجريدة العصر، 4ق، تحقيق: عمر الدسوقي، وعلي عبد العظيم، (القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، د.ت).

الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني، (ت:560هـ=1156هـ):

9- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت ،عالم الكتب، ط1،1409هـ، 1989م .

ابن بسام ، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، (542هـ=1147م):

10- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق:إحسان عباس، بيروت،دار الثقافة، 1417هـ=1997م.

ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك الخزرجي الأنصار، (578هـ =1183م):

11- الصلة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب المصري، ج 2، ط1، 1410هـ=1989م .

ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي، (ت: 874هـ).

12- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، د.ت.

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس (ت 728هـ):

13- المستدرك على مجموع الفتاوي، جمعه ورتبه محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، خمسة أجزاء.

14- كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيميه، مكتبة ابن تيمية، ط2، تح: عبد الرحمن بن محمد النجدي.

15- منهاج السنة النبوية، مؤسسة قرطبة، ط1، تح: د. محمد رشاد سالم.

ابن جلجل أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي، (توفي بعد سنة 377هـ=987م)،

16- طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد سيد، (القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1955م).

ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد سعيد بن حزم الأندلسي، (ت: 465هـ=1063م) وآخران:

17- فضائل الأندلس وأهلها، تحقيق: صلاح المنجد، دار الكتاب الجديد، ط 1، 1968م.

18- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد سعيد بن حزم الأندلسي، (ت:456 هـ = 1064 م):

19- طوق الحمامة في الألفة والآلاف، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987م.

20- جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية-بيروت/ لبنان ط3- 1424هـ - 2003م.

21- رسائل ابن حزم الأندلسي، 4ج، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1401هـ-1980م).

22- رسالة أبي محمد بن حزم في فضائل الأندلس، قدم لها ونشرها مع رسائل أخرى: صلاح الدين المنجد، تحت عنوان: فضائل الأندلس وأهلها، (دار الكتاب الجديد، ط1، 1387هـ-1968م).

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد البستي أبو حاتم(ت354هـ):

23- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م، ط2، تح: شعيب الارناؤوط.

الحميري، محمد بن عبد المنعم، (ت: 827هـ=1423م).

24- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، (القاهرة، مؤسسة ناصر للثقافة، ط2، 1980م).

25- صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار، عني بنشره: إ.ليفي بروفنسال، (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1937م).

الحموي، ياقوت:

26- معجم الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، تح: د. احسان عباس، ط1، 1993م.

الحميدي، محمد بن فتوح بن عبد الله (أبو عبد الله)، (ت 488هـ)،

27- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، دار الغرب الإسلامي، تونس، حققه بشار معروف ومحمد بشار عواد، ط1، 1429هـ=2008م.

ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت 214هـ)،

28- فضائل الصحابة، تح: د. وصي الله عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1403هـ =1983م.

29- مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، مصر.

ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف، (ت: 469هـ=1076م).

30- المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق: محمود علي مكي، (بيروت، دار الكتاب العربي، 1973م).

ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيس الإشبيلي

31- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلح أهل الأندلس (ت529هـ)، ج1، ص259، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983م، ط1، تحقيق محمد علي شوابكة،

ابن أبي الخصال، أبو عبد الله الغافقي الأندلسي (ت 540هـ):

32- رسائل بن أبي الخصال الأندلسي، تح: د. محمد الداية، دار الفكر، دمشق، ط1، 1408هـ=1988م

الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد (ت 739هـ):

33- الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ- 2003م.

ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله التلمساني (ت: 776هـ=1374م).

34- الإحاطة في أخبار غرناطة، 4ج، تحقيق: محمد عبد الله عنان، (القاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ط2، 1393هـ-1973م).

35- أعمال الأعلام (القسم الثاني)، حققه ونشره: إ.ليفي بروفنسال، تحت عنوان: تاريخ أسبانيا الإسلامية، (بيروت، دار المكشوف، ط2، 1956م).

36- أعمال الأعلام (القسم الثالث)، أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني، نشر تحت عنوان: "تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط"، (المغرب، الدار البيضاء، 1964م).

ابن الجعد، مسند بن الجعد:

37- مكتبة الفلاح، الكويت، تح: عبد المهدي عبد الهادي، ط1، 1405هـ=1985م.

ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، (ت: 808هـ=1406م).

38- المقدمة، (بيروت، ط3، 1967م).

39- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، 7ج، (طبعة 391هـ-1971م).

ابن خياط، خليفة الليثي العصفري أبو عمر (ت240هـ):

40- تاريخ خليفة بن خياط، دار القلم – مؤسسة الرسالة، دمشق- بيروت، 1397هـ، ط2، تح: د. أكرم ضياء العمري.

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي، السجستاني، (ت: 275هـ=888م).

41- سنن أبي داود، 2ج، (مصر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط1، 1371هـ-1952م).

الدينوري، أبي محمد عبد الله بن مسلم "بن قتيبة":

42- الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، تح: علي سيري، دار الاضواء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1940م.

الذهبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ، (748هـ =1348م):

43- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلا، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، لبنان، دار الكتاب العربي، ط1، 1407هـ = 1987م.

44- سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 9، 1407هـ =1987م .

45- العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح المنجد، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط2،1984م.

46- تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي.

الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر(721هـ=1321م).

47- مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، بيروت، مكتبة لبنان، 1415هـ=1995م.

ابن أبي زرع، أحمد بن عمر الفاسي، (ت:741هـ = 1340م):

48- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس: الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972م.

49- ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة: تحقيق ليفي بروفسنال، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية،1955م.

ابن أبي الزرع، علي:

50- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المويننية، الرباط، 1392هـ =1972م.

الزمخشري، محمود بن عمر "ابو القاسم"، (467-538هـ)،

51- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تح: عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت – لبنان، 1412هـ =1992م.

ابن الزيات، يوسف بن يحيى الشاذلي: "عرف بابن الزيات"، (647هـ)،

52- التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط2، 1997م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت: 911هـ=1505م).

53- الجامع الصغير من حديث البشير القدير، (مصر، مطبعة الحلبي البابلي، ط4، 1373هـ).

ابن السماك، العاملي، أبو القاسم محمد بن أبي العلا، (ت: في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي).

54- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، (الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، ط1، 1979م).

55- طبقات الحفاظ، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1983م).

ابن سمعون، محمد بن أحمد إسماعيل بن عنبس البغدادي أبو الحسن(ت387هـ):

56- أمالي ابن سمعون.

ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك (ت: 685هـ=1286م).

57- المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ط3، 1955م.

58- المقتطف في أزاهر الطرف، شركة أمل، القاهرة، ط1، 2010م.

الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير، (ت: 310هـ=922م).

59- تاريخ الرسل والملوك، 11ج، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة، دار المعارف بمصر، 1968م).

الطرشوشي، محمد بن الوليد الفهري "أبو بكر": (451-520هـ)،

60- سراج الملوك، تح: محمد فتحي أبو بكر، تقديم د. شوقي ضعيف، الدار المصرية اللبنانية، مصر، ط1، 1441هـ=1994م.

ابن عبد البر، أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي (368-463هـ):

61- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، تح: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان.

ابن عبد ربه، أحمد (ت328هـ):

62- العقد الفريد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1990م، ط3.

ابن عبدون، حمد بن أحمد التجيبي، (ت: في النصف الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي).

63- رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، حققها ونشرها: إ.ليفي بروفنسال، مع رسائل أخرى، تحت عنوان: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب. (القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1955م).

ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي، (ت: بعد 712هـ =1312م):

64- البيان المغرب في أخبار أهل الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعه، ج.س كولان، وليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، ط3، 1983م .

ابن عساكر، علي بن حسين بن هبة الله (ت: 571هـ).

65- تاريخ مدينة دمشق، (70ج)، تحقيق: عمر بن غرامة العموري، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1990- 1996م.

العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد (ت 852 هـ)،

66- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، دار الجيل، بيروت، 1414هـ=1993م.

ابن العماد: عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، أبو الفلاح

67- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، دمشق، 1406هن ط1، تح: عبد القادر الارناؤوط ومحمود الارناؤوط.

عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض، (ت: 544هـ=1149م).

68- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، 4ج، تحقيق: أحمد بكير محمود، (بيروت، منشورات دار الحياة، ليبيا، دار الفكر، 1968م).

ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي، (ت: 403هـ=1012م).

69- تاريخ علماء الأندلس، (القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م).

الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب(ت817هـ):

70- القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت.

71- الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، دار الكتب العلمية، ط1994،1م، تح: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود.

ابن القاضي، أحمد بن محمد المكناسي:

72- درة الحجال في غرة أسماء الرجال، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط1، 2002م.

ابن القطان، أبو الحسن علي بن عبد الملك بن يحيى الكتامي الفاسي، (ت: 628هـ=1230م).

73- نظم الجمان، تحقيق: محمود علي مكي، (الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، د.ت).

القلقشندي، أحمد بن علي بن أبي اليمن، (ت: 825هـ=1418م).

74- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (مصر، المؤسسة المصرية العامة، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، د.ت).

ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر، (ت: 367هـ=977م).

75- تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، (بيروت، دار النشر، للجماعيين، 1957م).

ابن كثير، عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، (ت: 774هـ=1332م).

76- تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، الثانية 1420هـ =1999م.

77- البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، د.ت.ط .

ابن الكردبوس، أبو مروان بن عبد الملك بن الكردبوس التوزري، (ت: بعد 713هـ=1313م).

78- الاكتفاء في أخبار الخلفاء، (قطعة منه)، نشر تحت عنوان: "تاريخ الأندلس، لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط".

اللاواتي، أبو عبد الله بن محمد:

79- تحفة النظار في غراب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة بن بطوطة).

ابن ماكولا، علي بن هبة الله بن أبي نصر، (ت 475هـ=1082م)،

80- الإكمال في رفع الارتياب عن المؤلف والمختلف والأسباب والأنساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط2، 1993م.

مالك بن أنس، الأصبحي، (ت: 179هـ=795م).

81- المدونة الكبرى، 16ج، في8م، (مصر، مطبعة السعادة، بغداد، مكتبة المثنى، 1323هـ).

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، (ت: 450هـ=1058م).

82- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، (بغداد، 1409هـ=1989م).

المراكشي، عبد الواحد: (647هـ=1249م).

83- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبط وتصحيح: محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، (القاهرة، مطبعة الاستقامة، ط1، 1368هـ-1949م).

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت346هـ):

84- مروج الذهب.

المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، (ت: 380هـ=990م).

85- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (ليدن، مطبعة بريل، ط2، 1967م).

المقري، شهاب الدين أحمد التلمساني، (ت: 1041هـ=1631م).

86- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، 8م، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت، دار صادر، 1408هـ=1988م).

87- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، (ت1041).

ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري(ت711هـ):

88- مختصر تاريخ دمشق.

89- لسان العرب، دار صادر - بيروت، ط1.د

الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي، (ت: 1279هـ=1863م).

90- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، محمد الناصري، (الدار البيضاء، 1954م).

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت: 733هـ=1332م).

91- نهاية الإرب في فنون الأدب، 21ج، (مصر، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، د.ت).

ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله، (ت: 626هـ=1228م).

92- معجم البلدان، 5ج، (بيروت، دار صادر، ودار بيروت، 1957م).

3: المراجع العربية والمعربة.

أرسلان، شكيب.

1- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية 3ج، (المغرب، فاس، 1355هـ، 1936م).

2- خاتمة تاريخ العرب في الأندلس،، ط1، 2011، دار طيبة للطباعة، الجزيزة.

أندلسي معاصر:

3- نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر وهو كتاب آخر أيام غرناطة)، دار حسان، دمشق، 1404هـ، ط1، تحقيق محمد رضوان الداية، ج1.

أنطونيو دومينفير هورتز والفرنسي برنارد بنثنت:

4- (الموريسكيون- حياة ومأساة أمة) تاريخ مسلمي الأندلس من1492- 1613، ترجمة عبد العال صالح طه، تنقيح وتعليق محمد محي الدين الأصفر، ط2، 2002م، دار الإشراق- الدوحة، المكتب الإسلامي بيروت.

الباروني، سليمان باشا:

5- الأزهار الرياضية في أئمة الاباضية، مراجعة محمد علي الصليبي، دار الحكمة، لندن.

بشتاوي، عادل سعيد:

6- الأندلسيون المواركة، ص117.

البغدادي، إسماعيل باشا:

7- هدية العارفين أسماء المؤلفين وأثار المصنفين، دار إحياء التراث، العربي، بيروت، لبنان، استنبول، 1951م.

بوتشيش، ابراهيم القادري:

8- أثر الأزمة الأخلاقية في سقوط دولة الإسلام في الأندلس، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1993م.

بيضون، ابراهيم:

9- الدولة العربية في اسبانيا، دار النهضة العربية.

البيلي، محمد بركات:

10- طليطلة في عصرها الإسلامي (92-477هـ/ 712-1085م)، دار النهضة العربية، 1993م.

التميمي، عبد الجليل:

11- تأملات جديدة حول مصيرية الموريسكيين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة، أستاذ بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة تونس، مدير مركز الدراسات والبحوث، (بحوث وندوات عن الأندلس الدرس والتاريخ).

حتامله، محمد عبده:

12- التهجير القصري لمسلمي الأندلس في عهد الملك فيليب الثاني، 1527-1598،، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، ط1، 1403هـ- 1982م.

الحجي، عبد الرحمن علي.

13- التاريخ الأندلسي، من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (92-897هـ=711-1492م)، (دمشق، دار القلم، بيروت، دار المنارة، ط3، 1407هـ-1987م).

الحسيني، محمّد مرتضى الزبيدي (ت 1205هـ):

14- تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، تح: مجموعة من المحققين.

الخالدي، خالد يونس:

15- اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، "رسالة دكتوراه منشورة"، 1421هـ=2000م.

أبو خليل، شوقي:

16- علماء الأندلس وإبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوروبية، دار الفكر، دمشق، سوريا.

دوزي، رينهات:

17- المسلمون في الأندلس، ج2، حسن حبشي، الهيئة المصرية للكتاب 1994.

ديورانت، ول وايريل.

18- قصة الحضارة، جـ3، م4، ترجمة: محمد بدران، (بيروت، دار الجيل، 1408هـ-1988م).

ذنون، عبد الحكيم:

19- آفاق غرناطة،، ط1، دار المعرفة، بيروت 2004 م

الزركلي، خير الدين:

20- الأعلام، بيروت دار العلم للملايين، ط15، 2002م.

سالم، السيد عبد العزيز.

21- تاريخ مدينة المرية الإسلامية، قاعدة أسطول الأندلس، (الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، 1984م).

22- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية – عمرانية أثرية في العصر الإسلامي)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر.

23- تاريخ المغرب الكبير من أقدم العصور حتى الوقت الحالي

24- تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ط2، 1982م.

السحيباني، حمد بن صالح:

25- عصر الازدهار العلمي في الأندلس- دراسة تحليلية لأهم عوامل الازدهار العلمي في عصر ملوك الطوائف.

السرجاني، راغب:

26- قصة الأندلس، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 1432هـ - 2010م.

سيسالم، عصام سالم:

27- جزر الأندلس المنسية (التاريخ الإسلامي لجزر البليار) (89-685هـ= 708-1287م)، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1984م.

السيد عبد المنعم داوود:

28- (محاكم التفتيش الأسبانية) الأصول والهيكلية والإجراءات،، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.

الشطاط، علي حسين:

29- تاريخ الإسلام في الأندلس، من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك.

30- الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث، 1420هـ/2000م.

الصلابي، علي محمد :

31- الجوهر الثمين في بمعرفة دولة المرابطين، مكتبة الصحابة، الامارات – لشارقة، مكتبة التابعين، القاهرة – عين شمس.

طه، عبد الواحد نون:

32- دراسات التاريخ الأندلسي، ط1، 1987م

ابن عاشور، محمد الطاهر:

33- تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.

العبادي، أحمد مختار:

34- في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1995م.

ابن عبد الله، عبد العزيز:

35- الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، مطبوعات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، 1395هـ =1957م.

عكاوي، رحاب، ومرشوخ، محمد أمين:

36- موسوعة عباقرة الإسلام، دار الفكر العربي . القاهرة، 1996م.

عنان، محمد عبد الله.

37- دول الطوائف، (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط1، 1380هـ، 1960م).

38- دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر، 2ج، (القاهرة، 1380هـ-1960م).

39- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، (مصر، ط2، 1958م).

عودات، أحمد، وجميل بيضون، وشحادة الناطور، ومحمد محاسنة:

40- تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس الهجري حتى القرن العاشر، دار الأمل للنشر والتوزيع – 1990.

الفقي، عصام الدين عبد الرؤوف:

41- تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة.

الفيومي، محمد إبراهيم:

42- تاريخ الفلسفة الإسلامية في المشرق، دار الثقافة والنشر والتوزيع، 1991م.

القرضاوي، يوسف عبد الله:

43- الإسلام والفن، رسائل ترشيد الصحوة، المكتب الإسلامي، ط3، 1418هـ-1998م.

قطب، محمد علي:

44- مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس.

كحيلة، عبادة.

45- تاريخ النصارى في الأندلس، (القاهرة، ط1، 1414هـ-1993م).

46- القطوف الدواني في التاريخ الأسباني،

كرد علي، محمد:

47- غابر الأندلس وحاضرها، المرتبة الأهلية، مصر، ط1، 1341هـ=1923.

لوبون، غوستاف:

48- حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012.

مؤنس، حسين.

49- فجر الأندلس، (القاهرة، ط1، 1959م).

مجهول، المؤلف، (من أهل القرن الرابع أو الخامس الهجري).

50- أخبار مجموعة في فتح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (القاهرة، دار الكتاب المصري، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1401هـ-1981م).

مصطفى وآخرون، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار.

51- المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، د.ت.

محمد، على جمعة:

52- المكاييل والموازيين الشرعية، القدس للإعلان والنشر والتسويق، القاهرة، ط2، 1421هـ- 2001م.

محمود، حسن أحمد:

53- قيام دولة المرابطين في العصور الوسطى، القاهرة،ط2 (م)

الوكيل، محمد السيد:

54- الأمويين بين الشرق والغرب، دراسة وصفية وتحليلية للدولة الأموية القسم الثاني الأمويين في الغرب، دار القلم الدار الشامية

الخلاصـــــة:

يعتبر تاريخ الاسلام في الاندلس تاريخاً مجيداً عظيماً، قدم للانسانية الكثير من الابداع الحضاري، وتقدم بالانسانية خطوات عريضة في طريق المدينة، ولكن دولة الإسلام في الأندلس، أصابها ما يصيب الحضارات عبر التاريخ من القوة ثم الضعف ثم الذبول والانهيار، وقد تناولت هذه الدراسة العوامل التي كانت سبباً مباشراً لسقوط الأندلس، وخروج المسلمين منها نهائياً، والقضاء على الفرد المسلم بعد القضاء على دولته.

وقد تنوعت عوامل السقوط ما بين عوامل داخلية، وأخرى خارجية، فكانت أهم العوامل الداخلية، التي أدت إلى سقوط الأندلس، شيوع المنكرات كالخمر، وعشق الغلمان، والتنافس على الجواري، وكذلك التحالف مع غير المسلمين وموالاتهم، وعدم الاستجابة للعلماء عندما أمروا بالمعروف ونهو عن المنكر، كما كان الترف وفرض الضرائب الباهضة ودفع الجزية للنصارى من العوامل الإقتصادية المهمة للسقوط، وكذلك تميز تاريخ الأندلس بالنزاع بين الحكام على السلطة، ثم كان فساد الحكام سبباً مباشراً وقوياً في ذلك السقوط المدوي للأندلس.

وأخيراً يأتي دور الفقهاء، وخلافاتهم الفقهية، وأثرها على الاندلس، لنصل إلى النهاية المأساوية بتدمير دولة الإسلام في الأندلس، والتي نتج عنه القضاء على العنصر الإسلامي، من خلال محاكم التفتيش، التي تتبعت أثر المسلمين قتلاً وتشريداً وتنصيراً، إلى أن استأصلت شأفتهم، وقضت على وجودهم.

Abstract

The history of Islam in Spain was glorious and great. Islam provided humanity a lot of cultural crativiy and great steps on they wayof civilizations.But the state of Islamic in Spain (Andalus) was infected as the other cultures throughout the ages forse then weakness and at the end collapse, This study dealt with the factors which led to downfall of Spain (Andalus) and expulsion Muslims from it after theiv defeat.

The factors of Andalus downfall were varied, some of them weve internal and others ware external.

The most important internal factor was the spread of all kinds of corruption like "alcohol abuse, misusing the authority competition in collecting maids, dancers and prosttites, gambling, rave concerts, and keeping away from Islamice religion Teaching and the conflict between Islamic rulers in Andalus all these factors led to downfall som islamec rufers in Andalus with the enimies of Muslims against each other which led to weakness.

The most import external factors were the enimies in Eurpe "The christion kingdoms in the north" were unifed to eliminate the Muslims and dismiss them from Andalus.

The situation of the Muslims in north- Africa wasn,t helpful and sometimes agaist Muslims in Andalus